DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE


Princeton University Library
32101 073253237

واقعة السلطان عبد العزيز

تأليف
احمد صائب بك

تعريب
محمد توفيق جانا

ثمن النسخة نصف مجيدي

طبعة ثانية

بنفقة نجيب جانا

١٣٢٩ مطبعة الاقتصاد . بيروت ١٩١١

واقعة السلطان عبد العزيز

تأليف

احمد صائب بك

تعريب

محمد توفيق جانا

ثمن النسخة نصف مجيدي

طبعة ثانية

بنفقة نجيب جانا

مطبعة الاقتصاد . بيروت

كلمة للمترجم

لما كانت الامة العربية المستظلة بالظل العثماني تشكل نصف الهيئة الاجتماعية (على وجه التقريب) من مجموع الدولة العلية وبناء على ما شاهدت من بني العرب وعلى الاخص ابناء وادي النيل وشدة اشتياقهم الى تتبع احوال الخلافة العظمى اشتياق الظمآن الى الماء رأيت من الواجب ان اقوم بترجمة هذا الكتاب نظراً لما يحتوي من الحقائق التاريخية التي تهم كل من طلعت عليه الشمس من المسلمين خصوصاً والعثمانيين عموماً مع اعترافي بالعجز والتقصير وعدم وقوفي وقوفاً تاماً على كنه اللغة العربية وان كنت من ابنائها · واملي وطيد بان ارى من القراء الكرام عفواً واسعاً عما حصل من الهفوات الكثيرة في هذا الكتاب وقد لا يخفى على ذوي العقول النيرة ما يعتري من هو على شاكلتي من المصاعب الجمة حيث انها اول خطوة خطوتها في هذا السبيل وبالله استعين

محمد توفيق جانا.



﴿ كلمة للمؤلف ﴾

لا أقصد بكتابي هذا تفصيل ماوقع أيام سلطنة السلطان عبد العزيز وماامتزج بها وتفرع عنها شرحاً مفصلا موضحاً فتلك أمنية يبعد نيلها على همة هذا العاجز لعظيم اعتقادي بان تأليف كتاب كهذا في وقتنا الحاضر ضرب من المحال لان تأليف الكتب التاريخية في عصرنا هذا يحتاج الى وجود مادة واسعة تكون روحاً للتأليف وضف الى هذه الحاجات الكبرى اثاراً كثيرة يستعان بها على ضبط اسباب ومنشأ الواقعة التي هي اساس التاليف ومن العبث ان يطمح المرء لكتابة تاريخ جامع مع فقدان ذاك الشرط ولا خفاء انه لا يوجد لدينا معشر العثمانيين شيء من الاثار التي نحتاجها لنستعين بهما على التدوين في جميع ادرار التاريخ العثماني · والادلة على استكمال هذه النواقص مفقودة · اما الكتب التاريخية التي تبحث في احوال الممالك المحروسة وادوارها الجديدة فكثيرة ولكن كلها لجماعة من الكتاب الاجانب ولذا فانها لا تفي بالغرض المقصود اذ يدور رحى كل ما فيها على محور الاغراض النفسانية وزد على ذلك عدم وقوف مؤلفيها على احوال العثمانيين ومن

جهة اخرى فانه لا يوجد اثر من اثارهم مأمون الجانب من الاغراض ولو وجد شيء فلا يخلو من النقص فتقارير سفراء الدول (التي تزداد علائقهم السياسية يوماً عن يوم مع المملكة العثمانية) المرفوعة لجانب حكوماتهم لم تنشر جميعها . واما غير هذه التقارير فليس سواه غير الوقوف على المخابرات السياسية الخفية التي يمكن التوصل بها للتدقيق في المواد التي هي موضوع البحث وهذه هي الحقيقة بعينها . ومع اعتقادنا استحالة تأليف تاريخ كامل عن احدى وقائع التاريخ العثماني نرى السير في هذا الطريق لا يخلو من الفائدة . والسعي الجزئي ينتج فوائد جمة .

لان اظهار الحقائق المستورة بما امكن الحصول عليه من المعلومات وربط سلسلة حوادث ببعضها واستخلاص واقعة سياسية مهمة كواقعة السلطان عبد العزيز من بين غياهب الشك التي سدلت على ماضي التاريخ العثماني امر غير سهل المنال . ويوجد عندنا كما يوجد في اوروبا كتاب واحد يبحث عن سلطنة السلطان عبد العزيز فيمكننا ان نستعين به على كتابة تاريخ حكم السلطان عبد العزيز وما وقع في اخره من الاحوال الجالبة للاسف . والتأليف الاخير لفي غاية من الاهمية

عندنا لانه محرر بيراع (احمد مدحت) الكاتب التركي الشهير . وان لم يشاهد هذه الحادثة بعينه و يشترك فيها بنفسه ولكنه كان مقرباً ممن اشتركوا في تدبيرها . وهذا السبب هو اعظم باعث لزيادة قيمة هذا الاثر في اعيننا وفي الحقيقة ان هذا الاثر اي (أس الانقلاب) احسن ما كتب في هذا الموضوع . ولو وضع في بلاد غير البلاد العثمانية لكان اعظم قيمة واعم نفعاً اذ ما الفائدة منه وقد سار في طبعه (كمايقال) على البروغرام الذي وضع له من لدن جلالة خليفة ذلك الزمان او بالحري رسم على الخطة التي ترضيه . وعليه لا يمكننا ان نأمن جانبه تماماً ولو طالعناه لوجدناه يعقب في كل سطر غاية خصوصية .

ولا يمكننا ان لا نأسف على هذه الاحوال . مع ان احتياجنا شديد لتأليف تاريخ واقعة كواقعة السلطان عبد العزيز تشكل فصلاً مهماً في التاريخ العثماني تكون طاهرة من كل غرض ولها علاقة كبيرة مع هذا الزمان المحزن الذي نحن فيه . أما الافكار في هذه المسئلة فمتباينة متضاربة اذ يعد بعضنا حالتنا الحاضرة وما نابنا من المصائب والرزايا نتيجة طبيعية لهذه الواقعة المؤلمة . والبعض يعدها دليلاً على بدأ مستقبل حسن وتنور

أفكار العثمانيين . وعلى كلا الحالتين فان الافكار المذكورة تبرهن انا على شدة الاحتياج لظهور اثر جديد يبحث عن واقعة السلطان عبد العزيز غير قاصدين في عملنا سوى تسهيل السبل للمؤرخين الذين يأتون بعدنا وليكن دليلاً لهم على سلوك الطريق المستقيم وعلى ما ارى خصوصاً وانه وضع بعد كثير من المحاكمات العقلية والتاريخية الخالية من شوائب الاغراض . على تفصيل الواقعة الماضية ولا ندعي مع هذا كله انه خلو من النقص والعيب لان عدم كفاية المأخذ وفقدان المعلومات الرسميـة سببت بلا شك حصول هفوات متعددة واذا وجدت مادة نعتقد بصحتها فهي بلا شك خلو ملاحظتنا على المستقبل من كل غرض و بنائها على طهارة القلب وخلوص النية وموافقة قرائننا على صدق هذا الامر كاف لنيل ما نرغبه ونتمناه و بالله التوفيق

أحمد صائب

الواقعة الخيرية ونتيجتها

السلطان سليم الثالث — السلطان محمود — المشكلات التي اعترضت تشبثه في الاصلاحات — السلطان عبد المجيد — وزراء ذلك الزمان : رشيد باشا ، عالي باشا وفوءاد باشا — الثورات الداخلية ومحاربة القرم ظهور الاحوال الغير المأمولة في الاصلاحات — التكاسل في نشروتوسيع المعارف — نواقص التشكيلات والتنظيمات العسكرية واسبابها — المالية العثمانية — ولوج الدولة باب القروض لاول مرة — وفات السلطان عبد المجيد ٠

تصفح التاريخ العثماني من بدء القرن الحادي عشر على الحساب الهجري حتى الآن ترَ السلطان سليم الثالث اعظم سلطان واعدل خليفة ارتقى اريكة آل عثمان وبويع بالخلافة الاسلامية الكبرى وتعلم انه كان من اكبرهم همة واكثرهم غيرة علَى مصالح الدولة والدين ٠ تولى الخلافة ؤهي اريكة آل عثمان واحوال الدولة فوضى والبلاد من اقصاها الى ادناها مصبوغة بالدماء والخلل يكتنف مصالحها والعلل تتمشى في ادارتها فلم يقبض بيده على صولجان الملك حتى اخذ يصلح مختلها ويداوي معتلها ولم يمض عليها وقت قصير حتى بلغ من ذلك السعي غايته وضع للبلاد قوانين وقواعد تضمن للرعية العدل الشامل وتكفل

انفاذ ما ابتغاه من تحسين واصلاح . لكن الله شاء ان يقوم من رجال الدولة اوهم افراد الامـة اقوام خافوا ان تنزع تلك الاصلاحات عنهم نعماً يتلذذون باطايبها و يرتعون في بحابحها وان يناقشون الحساب من بعد هذه الاصلاحات وان تكون القيد الذي يغل ايديهم عن المظالم والمغارم فاخذوا يدسون الدسائس و يقيمون العقبات في سبيل ما ابتغاه السلطان العادل . بل بلغ من قيامهم انهم حرضوا عساكر الانكشاريـة (وهم عبارة عن وحوش في صورة جيش منتظم) على ان يرفضوا كل قانون جديد يبتغي السلطان تنفيذه ولسوء حظ الامة صادفت مساعيهم نجاحاً وانتهى الامر على ما ارادوه وفوق ما طمحت اليه انفسهم وانقضى الجدال بخلع السلطان وقتله . وكان ذلك من اعظم الجرائم على الامة والبلاد والحجر الاساسي في تدبير المكايد والدسائس للسلاطين وان كان قد تقدم تلك الجريمة جريمة اخرى من نوعها وعلى ذلك انقضت حياة السلطان السليم الثالث وانطفأت بموته شمعة العدل التي شيدها وغيض ينبوع الاصلاح والحرية وهكذا سودوا صفحات التاريخ العثماني بما تسببوا في حصوله

ثم تولى بعده السلطان محمود والمشاكل في السلطنة كبيرة

والمصاعب عظيمة والامر فيها لاولئك الانكشارية يفعلون ما ارادوا بلا خوف ولا وجل وكان السلطان ذا نفس عالية ومبادىء كريمة واميال مفطورة على حب العدل والخير ورغبات مطابقة لرغبات سلفه السلطان سليم الثالث بلا فرق ولا اختلاف . فاراد ان يسير بالسلطنة العظمى على ما يوحي اليه طبعه فحالت الايام دون مرامه واوشك ان يصيبه ما اصاب سلفه اذ اجتمع الانكشارية في ميدان هنالك يدعى (آت ميدان) وتآمروا على قتله ولكن المقادير مدت اليه يدها ورفعت عنه سر المتآمرين ومكنته منهم جميعاً فارسل عليهم من جيشه المخلص في ولائه كتائباً أعملت في رقابهم السيف ولم ينج منهم أحد . وتسمى هذه الواقعة في التاريخ العثماني (بالواقعة الخيرية)

زين ذلك العادل التاريخ العثماني بافعاله واعلن للعالم عزمه على ترك النظامات القديمة التي لم تكن سوى وسيلة لهدم اركان الدولة والنزول بالوطن الى دركات الانحطاط والهوان ثم أزمع على تشكيل هيئة ادارية توافق الزمان والمكان وادخال اصلاحات جدية في الامور الداخلية . فاحدثت هذه الارادة تأثيراً كبيراً في الداخل والخارج اذ كانت الدول الاوروبية خلواً من تمام

الوقوف على احوال الشرقيين كما ينبغي فكانت تعتقد فيها بعض الاعتقادات الباطلة وتظن في الدولة العثمانية وآلها انها امة لا قدرة لها على نقل قدمها خطوة الى الامام لتنظيم واصلاح امور الملك (وهو اس التقدم المدني الحاضر) . ولكن حصول هذه الواقعة ومحو اثار الانكشارية الذين هم العقبة الكؤد في سبيل الاصلاح وجلب ذوي الخبرة والمقدرة من اوروبا لاستخدامهم في امور الدولة هذا كله أوجب تبديل الافكار السيئة التي خالجت ضمائر عقلاء وساسة اوروبا وتمكنت من عقولهم حتى احدثت الخوف عند الكثيرين منهم وكان بين الاوروبيين فريق يعتقد انه اذا انتظمت شؤون الدولة العثمانية وادارتها على حسب القوانين الغربية وانتشرت العلوم والفنون الحديثة المتنوعة بين افرادها وكانوا يرون ايضا ان القوة المعنوية والمقدرة العسكرية اللذان هما نتيجة الهامات الدين الاسلامي القويم اكبر وسيلة لارتقاء الدولة العثمانية من كل وجهة و يعيدانها لمجدها القديم وعليه فمن المحتمل ان هذه الاحوال تؤثر على موازنة اوروبا السياسية

هذه نتيجة ما حصل في الخارج من تأثير تلك الاصلاحات

اما في الداخل فان كافة الاهالى كانوا في هرج ومرج من جراء آمال السلطان الخيرية حتى ان الامة يئست من مستقبلها . والسبب في ذلك اليأس هو ظهور نتيجة السيئات الذي كانت الدولة غريقة لججها منذ ثلاثة قرون . وقد نشأ عن توالي العصيان في الولايات والقلاقل الكثيرة عجز السلطان المرحوم عن اتمام ما آربه وغل يده عن كل عمل . لان القسم الاعظم من رجال الدولة كانوا يشكون من افعال السلطان جهاراً فرغبوا عن العمل بحسب رأيه مفضلين بقاء القديم على قدمه وعدم الخروج عما اختطه الاباء والجدود (بعد ان احسوا بمقاصد السلطان وعلموا ان غاية ما يرمي اليه هو تقليد اوروبا في اصلاح الادارة وتنظيم امور الدولة) بالرغم عما كان ينتابهم من ظلم الانكشارية والخوف الشديد الذي كان يخامر قلوبهم منهم

ولولا قوة عزم السلطان واستعمال بعض اركان الحكومة الشدة مع الاهالي لآل الامر الى شق عصى الطاعة على جلالة خليفة رسول رب العالمين

غير ان ذاك القتال الدموي الذي جرى بالامس في (آت ميدان) مع الانكشارية كان لا يزال رسمه باقياً في مخيلة الكل ولذا

لم يبق في الاستانة احد يرجى منه الاندفاع للخروج على السلطان

وخلاصة القول ان السلطان المرحوم توفق لنيل بغيته الوحيدة وهي قلب ادارة المملكة ببذل النفس والنفيس فوطد دعائم النظام على اسس متينة ثم صرف الهمة للبناء على ذلك الاساس وهو عبارة عن موادها الكافلة لحفظ العرض والناموس والامن على الاموال والارواح و يتفرغ عنها تقدير الويركو الضرائب وترتيب الجنود وما شاكل ذلك ·

وكانت الاصلاحات التي اسسها السلطان محمود في ايام ملكه عبارة عن تأسيس النظام العسكري وتغيير ازياء الاهالي ومع ان المادة الاخيرة يراها البعض قليلة الاهمية في اول وهلة ولكن اقل ملاحظة على وجود التعصب والجهل عند اهالي البلاد العثمانية في ذاك الحين وما تكنه صدورهم من البغض لاصول المعيشة الغربية تدل عَلَى ما كان يعتري هذه الاصلاحات من الموانع الكثيرة

ولما كان لا بد لتنظيم ادارة امور الدولة واتمام الاصلاحات المطلوبة من انشاء مدارس يتخرج فيها رجال اكفاء لخدمة الدولة ونشر العلوم والمعارف وبما ان هذه النقطة لم تخف على

السلطان قرر تأسيس جملة مدارس وبوشر حالاً في انشاء بعضها فاصبحت هذه الموفقيات العظيمة كافية لتخليد الذكر الحسن لجلالة السلطان وابقاء اسمه الى الابد

ولكن ازدياد الاضطراب الداخلي وظهور الثورات المستمرة ومحاربة بعض الدول الخارجية ، لم تترك مجالاً لتنظيم الادارة الملكيه والسعي في اجراء الاصلاحات الاخرى على قدر الامكان

جلس على سرير الملك بعد السلطان محمود خان العادل السلطان عبد المجيد وفي ايامه ظهر ميل عظيم من الاهالي للاصلاحات والسير في طريقها القويم وكان من اللازم حينئذ التوغل في هذا الطريق نظراً لموافقة الزمان ولكن اكتفى وقتذاك بوضع خط الكلخانة الهمايوني وبعض النظامات وهي كل ماجرى من الاصلاحات في هذه المدة

وهكذا ذهب ذاك الوقت الثمين سدى واستعمل على غير هدى ومع اقرارنا بتجمع أحوال كثيرة كانت السبب في التكاسل والتسامح ولكن لا ننكر مسئولية ذوي المكانة في ادارة الدولة من الموظفين . ولا يخفى على كل من طالع تاريخ هذه الفترة التي تزيد سنواتها عن اثنين وعشرين عاماً ونصف ان السلطان

وبعض الوزراء كانوا عالمين باسباب هذه الاحوال وانه لا بد من السير في الطريق الذي سار عليه السلطان محمود ولكنهم لم يظهروا اثراً مما كان يجب عليهم اظهاره من الحمية والغيرة واكتفوا بتسكين الشئوون القليلة الاهمية التي كانت تحصل في بعض الجهات من سوء الادارة وحصروا جل همتهم في الحرب مع الروس . وفي عهد هذا السلطان ظهر عدد من الوزراء ذوي المقدرة والهمة كرشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا وكان هؤلاء جميعهم يشغلون الطبقات العليا في ادارة الدولة وبيدهم زمام الامور واغلبهم ممن نشأ في عهد السلطان محمود .

وهم من ذوي الفكرة النيرة والخبرة التامة باحوال الدولة العثمانية والسياسة العمومية . ولكن ما الفائدة اذ لم يستحصل منهم على نفع في وقت كهذا كان أثمن فرصة عندنا نظراً لمساوىء الامور التي هي علة العلل وأساس كل خلل في الطبقات العليا من مراتب الدولة من قديم الزمان . وقلة المال التي هي نتيجة سوء الادارة وقلة الوسائل التي تتوقف عليها ثروة البلاد وسعادة العباد وبذل الاموال الكثيرة في تسكين الثورات

التى كانت تبدو كل آن في جهة اضطرت الدولة لصرف جميع قواها . وكانت هذه الثورات الداخلية سبباً في تزلزل مركز الدولة وضعف نفوذها بين الدول وفي هذه الاثناء اثار الروس (وهم اعدائنا الازليون الالى لا تغفل لهم عين عن انتهاز كل فرصة تسنح لنيل مقاصدهم وقضاء لبانتهم منا) غبار المسئلة الشرقية

وهكذا حصلت محاربة القريم . ولولا معاونة الانكليز والفرنساويين لنا في هذه المحاربة بناءً على منافعهم السياسية لما امكننا الى الان تعيين المهالك التي كادت تقع فيها الدولة ولو عَلَى وجه التخمين

فان الدولتين اعانتا دولتنا اعانة خالية من شوائب الغرض وكانتا سبباً في محافظة استقلالها في هذه الاثناء وتركتا لنا ميداناً فسيحاً ووقتاً طويلاً لاصلاح داخليتنا لان اندحار الروس ذلك الاندحار المبين جعل تحككهم بالشرق في مدة قصيرة من رابع المستحيلات .

وكان الواجب علينا اذ ذاك ان نحترس من الوقوع في ورطة كهذه . ونبذل جهدنا في اتمام الاصلاح (بعد ان من الله علينا وجعلنا في مركز يمكننا من ان نخط خطوات سريعة في

سبيل التقدم) ومحو تصورات عدونا الذي لا بد له من اعادة الكرة علينا بعد زمن قليل . وكان من اوجب الواجبات علينا ان نقدر مركزنا المنيع حق قدره ونستميت في رتق ما فتق وتقويم ما اعوج من الامور لان هاتين الدولتين اعانتانا في حرب القريم وقد افهمتانا بواسطة سفرائهما ان غايتهما الوحيدة قاصرة على ما قدمنا اى ترك ميدان واسع لنا حتى نصلح امورنا ونوقف الدب الابيض عدونا عند حده

ولكن هيهات ! فان هذه النصائح والمظاهرات الوديه كلها كانت صيحة في واد اذ لم تجد من يعر لها اذناً صاغية او يعطي لها أقل اهمية .

بقيت ادارة الدولة على ما كانت عليه قبل الحرب وكل من اهل السراي والوزراء سابح في بحار اللذائذ . ولم يسع احدهم لحل معضلات الامور ومع انه من العبث الاتيان على اسباب عدم اجراء شيء يفيد الملة من ادارة الدولة في الدور المذكور بيد انا نرى ايضاح الاسباب التي انتجت خطأ اولياء الامور (اي السلطان والوزراء) لا يخلو من الفائدة .

ومن البديهيات ان علو منزلة الدول واكتسابها للقوة

وعزت الجانب لا يتوفر الا بارتقاء العلوم والمعارف في ملكها وانتشارها بين افرادها فاي امة من الامم بلغت درجة عالية في الرقي العلمي والمدني لا بد وان تصل قوتها وانتظام امورها الى هذه الدرجة وهي حقيقة واضحة لا ريب فيها

فمهما كانت عليه احدى الدول من كثرة العدد وسعة الاراضي فانها تبقى في عداد الدول الثانوية اذا هي بقيت محرومة من العلوم والمعارف وهذه دولة الروس اكبر مثال وهو امر يمكن اثباته من تاريخ الدولة المذكورة . فالروس اكثر الدول الاوربية على وجه الانفراد عدداً ولهم من سعة الملك ما لا يمكن حصره ومع هذا لم تحز هذه الدولة النفوذ الذي هي عليه الآن بين الدول حتى القرنين الاخرين اي منذ ظهور رجل فيها يقدر الخوارق العلمية والفنية حق قدرها كبطرس الاكبر ولم تعد في مصاف الدول العظمى الا بعد دخول المدنية الغربية فيها وانتشارها بين اهليها

ومهما طال بنا الكلام عن المعارف فليس كل ما نبديه الا نقطة من بحر فتأثير المعارف على استعداد الامة اعظم من ان يتمدر ومهما بلغ قوم من الغنى المادي بالزراعة او نحوها

فانهم لا يقدرون بشيء ما داموا خلواً من العلم . فالشعب لا يرقى ولو وطدت دعائم قوانينه على مبادىء العدل والانصاف ما لم يكن رائده العلم والمعرفة بل لا يمكنه الاستفادة من العدالة والانصاف ما لم يستنر بنبراس العلم فلا يقف على حقيقة شيء بدون المعارف ولا يدرك غوامض الامور بدونها ولا تقوى امة على ردع اهوائها النفسانية التي نشأت معها بل تبقى محرومة من مزايا تقدير قيمة الوطن الحقيقية فتصبح الحرية والذل عندها سيان ولا تنجو من التعصب بمجرد معاملتها للأمم الاخرى ولا تدرك كنه الحقيقة وهكذا تحيا هدفاً لاستهزاء الامم المتمدنة لا اعتبار لها عندها بل تعد امامها كخادم او اسير . وصفوة القول ان الدولة التي لا تنتشر المعارف بين افرادها تبقى دائماً هدفاً للسقوط والاضمحلال ولا يمكن لها المحافظة على حياتها السياسية بين الدول ومن هذا كله يتضح للقاريء باجلى بيان انه كان من الواجب على اولياء الامور في الدولة بعد السلطان محمود ان يبذلوا الجهد في نشر العلوم والمعارف وتعميمها بين الافراد وادخال المدنية العصرية في انحاء البلاد

ولكن هيهات ! فانهم لم ينتبهوا الى هذا الامر ولم يمنحوه اقل اهمية ولا يظن القاريء الكريم اننا ممن يعتقد بان تعميم المعارف عندنا الآن مما يخرج بوطننا الى ساحل السلامة. كلا ثم كلا انا لا نعتقد ذلك مطلقاً : بل الذي نراه هو ان المعارف لا يقتطف ثمرها عاجلا ولا بدلها من زمن طويل. وجل ما نرمي اليه هو انا لو سرنا في زمن السلطان عبد المجيد خطوة نحو انتشار المعارف لامكننا الان ان نجني منها قطوفاً دانية ولكنا الان في ارغد عيش واهنأ بال

بل كنا الآن بغنى عن اوروبا ولكنا نستحصل حاجياتنا من انفسنا وتكفينا معاملنا مؤنة ما نحتاج اليه من الخارج . . .

. . . .

كانت المعارف في عهد السلطان عبد المجيد حتى الاصلاحات التي اعلنت رسمياً بخط الكلخانة الهمايوني وزفت بها البشرى الى العالم العثماني وطرب لها كل محب للدولة العثمانية حبراً على ورق او محض تفكير لم يبرز الى عالم العمل بل قد طوى في سجل الاوهام

فلو ضربنا صفحاً عن المعارف يمكننا ان نقول ان ذكر كلمة

عن المواد التي هي ذات اهمية عظمى كأصلاحات العدلية وتربية اولاد الاسرة المالكة التربية الحقة يعد ثرثرة فارغة اذ كان من الواجب (لحصول المواد الانفة الذكر) جلب جماعة من الاروبيين ذوي الخبرة في امور الادارة للاستفادة من علومهم ومعارفهم

ولكن لم يحصل من هذه الامور شيء اللهم الا الاهتمام ببعض شؤون نظارة الحربية فنظمت المعسكرات بعض التنظيم (نظراً لما فطرت عليه جنود الدولة العثمانية من حب الانتظام) بواسطة الضباط الذين اوتي بهم من اوروبا على عهد السلطان محمود العادل . فبدأ ضباطنا بعدئذٍ يتعلمون الفنون الحربية (التي كانت مفقودة حتى ذاك الزمن) في المدرسة الحربية

ولكن ما الفائدة من ذلك كله وقد كان بعض المغرورين المتعصبين من اصحاب المراتب العالية عقبة في سبيل التقدم المطلوب لعدم ادراكهم معنى الارتقاء حق الادراك . ومع هذا فقد وصلنا الى منتهى الكمالات العسكرية مع عدم وقوف ضباطنا على سوى مقدمات الفنون الحربية وادبياتها . وكان اولياء الامور يجددون وينقحون بروغرام المدرسة الحربية على

ما تشاء اهواؤهم ولم يهتموا في انتفاعنا من الارتقاء الفني الذي يحدث من حين لاخر في مدارس اوروبا الحربية فانتج هذا التسامح والغرور من سوء التأثير في ارتقاءنا العسكري ما اضطرنا الان لان ناتي بضباط اجانب يدربون عساكرنا وضباطنا على الفنون الحربية العصرية وهذا النقص ناشيء كما قدمنا قبلاً عن عدم تحصيل ضباطنا للعلوم والتدرب عَلَى الفن العسكري تحصيلاً كاملا يجعلنا في غنى عن الضباط الاجانب ولنضرب لك مثلا على صحة قولنا ظهور شدة حاجتنا في العام الماضي (اي بعد تأسيس المدرسة الحربية بستين سنة) لجلب ضابط اجنبي يعلم ضباطنا فن تقسيم الاراضي · وهو نقص يدلنا دلالة واضحة على الخطاء الفادح الذي حصل من اولياء الامور في ذاك الحين · ومما هو جدير بالتيقظ والتذكير ان الروس كانوا منذ مائتي سنة في حالة تشبه حالتنا في عهد السلطان محمود العادل ولكن بطرس الاكبر سعى ابان حكمه في انهاض وطنه من هاوية الجهل فاتي من اوروبا بعدد كبير من العلماء ونظم امور ملكه ولم يبال بمعارضة كبراء المملكه وما اقاموه له من العثرات في سبيل قصده ولم يرعه قيامهم عليه سراً وجهاراً

بل ظل سائراً في هذا الطريق حتى بلغ شعبه شاوءاً بعيداً من الارتقاء وهكذا استغنت تلك الدولة عن الاجانب بظهور رجال اكفاء فيها بعد اربعين سنة

امانحن فلا نقصد من ابحاثنا هذه الاثبات بانه كان من المناسب وقتئذٍ تسليم زمام امور الدولة للاجانب · بل نقول انه ما دام اصحاب المقدرة والكفائة مفقودين بين رجالنا فكان من الواجب حينذاك ان يأتوا بالرجال الاكفاء من الاجانب ويستخدمونهم في المراكز التي يهيئها لهم ذوو الحل والعقد وكان يمكننا بهذه الوسيلة اظهار رجال اكفاء يدبرون مهام الملك على ما ينبغي وكان من الواجب ايضاً اقتفاء آثار (بطرس الاكبر) بارسال الشبان العثمانيين الى مدارس اوربا ليتلقوا هناك العلوم والمعارف على رجالها حتى اذا بلغوا قصدهم عادوا الى بلادهم وعلموا ابناء اوطانهم وفي مدة قليلة تظهر نتائج هذا التعليم ويتخرج شبان يديرون حركة الامور بانفسهم في جميع شعبات ادارة الدولة · ولو اعاروا جانب الالتفات الى هذه النقطة السياسية وقتئذ لامكننا الان ان نستغني عن علماء اوروبا ولكان بين ظهرانينا من يخدم بلاده الخدمة المنتظرة

من الاجانب . ولكن مضي ما مضي فلا يجدى تذكيره الآن نفعاً وجميع ما جرى في عهد السلطان عبد المجيد عبارة عن تقاليد بدون تروٍ وكثير ما ظهرت نتائج هـذه التقاليد بشكل ادعى للاسي والاسف واول ضربة من ضرباتها المضرة وقوع البحران المالي وخلل النظام في ادارة نظارة المالية

وكان من اللزوميات قبل كل شيء لتأمين انتظام المالية هو السعى وراء توسيع وتعميم التجـارة والصناعة وهي امور لم يعتن بها وزراؤنا بل ذهبوا وراء تقليد الدول الاوربية بفتح الاعتمادات الماليه التي لا تلج الدول بابها الا بعد كل حساب دقيق واقتصادى لاصلاح مالياتها

نعم ان الدول الاوروبية في اوروبا تطرق باب القروض لكي لا تقع ماليتها في عسر ولكنهم لا يخطون خطوة في هـذا السبيل الا بعد اجراء كل حساب دقيق واقتصادي كما قدمنا

هذه هي احوال الدول الغربية الغنية الراقية . اما الدولة التي لا يعلم رجالها شيئاً من هـذه الحسابات . ولا يفقهون لها معنى ولا لاي شيء تعقد هـذه القروض فانها بلا شك تنتج اضراراً عظيمة ربما ادت بالدولة الى السقوط في الهاوية

حيث لا فائدة من وراء هذه القروض لخزينتها ولا هي عائدة عليها بنفع طالما كان السبب موهوماً لما وضع له القرض . وهي اول مرة تهجم فيها وزراؤنا على التقاليد الغربية في الاقراض ايام السلطان عبد المجيد ولم يفكروا في عواقب هذا القرض او تغافلوا كما هي عادتهم التغافل عن كل شيء له مساس بمصالح الدولة فكان مجموع هذا القرض يزداد يوماً عن يوم حتى وصل في اواخر حكم السلطان عبد المجيد الى عشر ملايين من الجنيهات وضف الى هذا ان الحالة المالية الداخلية كانت في غاية من الارتباك . نعم ان مبلغ العشرة ملايين غير كبير عند دولة كالدولة العلية تملك خزائناً متعددة ولكن كان من الضروري صرف المبالغ في مواضعها والاحتراس من تبذيرها فان هذه الاموال ذهبت هباء منثوراً ولم يترك السلطان عبد المجيد لخلفائه سوى بدعة الاقتراض ودفتراً مفتوحاً للديون

والمسئولية في هذا الاحوال عائدة بلا شك على السلطان ووزرائه اما ملخص الاصلاحات في دور السلطان فهي :

تعميم القانون العسكري مع اصول القرعة الذي وضع للعسكرية في سنة ١٢٦٠ من التاريخ الهجري ووضع قانون

يحتم عَلَى كل مسلم الدخول في الخدمة العسكرية خمس سنوات في النظاميـة وسبع في الرديف وفي سنة ١٢٧٣ ﻫ اسست مطبعة في الاستانة وفي سنة ١٢٧٤ ﻫ وضع قانون الاراضي والجزاء الهمايوني وهذا كل ما جرى في عهد السلطان عبد المجيد من الاصلاحات · وفي سنة ١٢٧٧ ﻫ انتقل السلطان عبدالمجيد خان الى دار البقاء بعـد ان تولى الملك اثنين وعشرين سنه ونصف بالغاً من العمر ٤٠ سنة وبعد وفاته تولى اريكه الخلافة الكبرى والسلطنة العظمى اخوه السلطان عبد العزيز



اوائل سلطنة السلطان عبدالعزيز

أول أماني السلطان الحسنة — الباب العالي والسراي — صدارة فوأد باشا الاولى — صدارة كامل باشا — زيارة السلطان لمصر — صدارة فوأد باشا الثانية — الاسراف في هذا العهد — صدارة محمد رشدي باشا — الثورات الداخلية

ولد السلطان عبد العزيز سنة ١٢٤٥ من التاريخ الهجري وكان عمره يوم وفاة السلطان محمود وجلوس أخيه الاكبر السلطان عبد المجيد عشر سنوات · فتربى على الاصول والقواعد المتبعة عند آل عثمان فى العهد الاخير وصرف حياته بين نساء السراى واغاواتهن الخصي فشب على حب عدم التداخل في شأن من شوءون الدولة وكان كلما كبر سنه احتجب عن أعين الناس كما هى عادة أولاد الاسرة المالكة · خصوصاً وان السلطان عبد المجيد كان يتركه حراً في اتيان ما يريد بحسب ما تسمح به الظروف والاحوال · وكان عبد العزيز لا يلتفت الى القرأة والكتابة وتحصيل العلوم والمعارف في صغره فلم يصرف جزأً من اوقات فراغه للاطلاع على احوال العالم والوقوف على الاحوال السياسية فاضاع وقت شبيبته الثمين في الصيد والرياضة في القصر

الفخيم الذي شاده في (قور بغه لي دره) وغير ذلك من الامور الدنيئة التي لا اهمية لها

حيث ان فقد ان تربيته التربية الحقه وقلة علومه ومعارفه كانت السبب الوحيد في ظهور مساوئ كثيرة في احواله واعماله مؤخراً . ولكن الانانية التي فطر عليها وسوء اخلاقه كانا اعظم مانع لعدم تحصيله وتربيته تربية ملوكية تؤهله للاستقلال في ما بعد . ومع كل هذه الاحوال فان السلطان عبد العزيز كان مكتسباً رضا الجميع قبل ان يتبوأ سرير الخلافة العظمى و كانت رقاب الكل مشرئبة اليه . وكان السلطان عبد المجيد اخوه الاكبر كريم النفس حسن الاخلاق لا يحب ضرر احد ولكن العجز والتساهل اللذان كانا رائده اوقعا الرعية في يأس شديد والدولة في ارتباك ما عليه من مزيد . اما عبد العزيز فكان بعكس ذلك مجبول على الكبر وعدم التساهل في امر من الامور حتى ان الشهامة وعلو الهمة اللذين كانا يبدوان على ملامحه اوجبت معظم الاهالي ان تأمل منه اشياء كثيرة في المستقبل . وعند جلوسه كان الكل يأمل منه ان يسير بالدولة سيراً حثيثاً في طريق التقدم واول خطوة خطاها في هذا السبيل

قوت هذه الامال عند الاهالي اذ لم يجلس على سرير الملك حتى اخذ يطرد بعض حشرات السراى الذين يأخذون من المرتبات باهظها بدون عمل يعملونه لمنفعة الدولة . وجعل همه وضع حد للاموال الكثيرة التي تذهب ضحية اسراف اهل السراى ومنع من ابتياع الاواني الذهبية والفضية والمجوهرات التى اعتاد اسلافه على ابتياعها ووضعها داخل السراى وعدا ذلك فانه اجرى تنقيحات مهمه في ما يأخذه موظفو النظارات وعلى الاخص نظارة الحربية

واظهر للعالم تقديمه المنافع العموميه على منفعته الخصوصيه باعلانه عزمه على ترك ثلث واردات الخزينة الخاصة الى بيت المال وعزل بعض الموظفين في الخدمات العمومية الذين لا يرجى منهم ادنى نفع والذين لا يعرفون من وظائفهم شيئاً سوى قبض المرتبات . كما انه طرد من السراى اصحاب المحسوبية على سلفه السلطان عبد المجيد الذين اضروا بتقربهم منه الدولة كثيراً بسوء استعمالهم ما كان لهم وقتئذ من النفوذ اذ لم يستفد منهم سوى الضرر المتمادي للدولة والامة كرضا باشا (محبوب السلطان عبد المجيد) ، وعثمان باشا ، وعمر افندي والحاج مصطفى افندي

وما شاكلهم ممن كانوا اعز الناس لدى السلطان السابق ·

ولكن هذه الاجراآت مع قلتها اثرت تاثيراً حسناً على الاحوال العمومية وازالت بعض المساوئ الموجودة وزادت الناس شغفاً عَلَى شغف بالسلطان وازداد به حسن ظنها وكثرت محبته عندها وعلت في اعينها درجته حتى صار موضوع بحث الخاص والعام والكل يهلل بذكره ويسبح بحمده

كان في جميع الاوقات شيئان يؤثران بصورة قطعية عَلى احوال ادارة الدولة احدهما السراي والآخر الباب العالي

وكان هذان على طرفي نقيض بخصوص التصرف في الدولة فقد ثبت بالتجارب العديدة ان وقوف كل منها عندحده وعدم خروجه عن دائرة تصرفه فيما هو مكلف اليه ومحافظته على شرفه عند اجراء وظيفته لمما ينتج ثروة البلاد وسعادة العباد وحصول الامن في داخل المملكة والعكس بالعكس فان الاهالي تنفر من هذه الادارة كما ان وقوع ثورات كثيرة لمما تفتح باب المداخلة للدول الاجنبية في شؤون الدولة

ولم تكد تنطفي اول جذوة من نار الارتقاء في عهد السلطان عبد العزيز الا وقامت قيامة الاختلال في الامور وصار كل من

الباب العالي والسراي على طرفي نقيض فوقع الشقاق بين ذوي النفوذ والاقتدار في الباب العالي من الوزراء وبين اهل السراي وهذا ما كان منتظرٌ وقوعه من المجادلات الشديدة والمشاغبات العديدة واتسع ميدان الجدال بينهما حتى خيل للناظر ان ادارة الملك في بني عثمان عبارة عن جدال بين السراي والباب العالي

ولكن تعاقب محمد رشدي باشا القبرصي وعالي باشا وقتئذ على منصب الصدارة بفاصل جزئي ووجود مناسبات عديدة بين السلطان وبينهم اخر وقوع هذه الاحوال الى حين

فكان الاول (اي محمد رشدي باشا) مفطور على ضعف القلب وعدم المقدرة على الاصرار في المقاومة . والثاني كفوءاً لان يوقف اهل السراي عند حدهم بماله من النفوذ والصفات التي تمكن من صد تيارهم ولكنه كان يرى من المناسب عدم التهور دفعة واحدة حتى لا يزعج السلطان الجديد فاتخذ التأني له رائداً وبناء عليه كان السلطان عبد العزيز حينئذٍ في موقف الغالب على خصمه فاساء استعمال هذه الفرصة الممنوحة له من طرف الباب العالي ولم يرتدع حتى عيل صبر الوزراء واجبرهم على ترك الحلم والسكون فازدادت منه شكاياتهم فتحروا

وسيلة يحافظون بها على حقوق الباب العالي التي كان يحاول نزعها و يسعى جهده لمحوها وعندئذ ظهر الاحتياج بعد كل هذه الافعال لوجود هيئة نظار تستقل في الامور وتكون المسئولة عما يحصل من سوء الافعال . فكان فؤاد باشا يؤيد هذا الفكر بكل قواه

اما فؤاد هذا فهو ابن رجل طبق صيته الخافقين على عهد السلطان محمود كما هو معلوم ومشهور عند الجميع وكان يلقب بكچه جي زاده « عزت ملاّ » وقد تربى هذا الباشا من صغره تربية حقة على عهد والده وكان وحيد عصره بالعلم والمعرفة كما انه كان نابغة عصره في الذكاء يمتاز بين اقرانه بسعة الاطلاع على امور الدولة ومعرفته ست لغات اوروپية كما يعرف لغة آبائه واجداده فاشتهر بطلاقة لسانه وقوّة جنانه ونبوغه في السياسة وقد اظهر هذه الخصال الحسنة جميعها اثناء هبوب رياح محاربة (سيواستوپول)

ومع كون المشار اليه من الحزب الذي يرى لزوم ادخال الارتقاء العصري والافكار الجديدة الى بلاد الدولة العثمانية وازدياد العمران وسعادة الاوطان . ولكنه كان ايضاً محباً لنفسه

ولكنه لم يكن ذا فكر صائب ومسلك مخصوص حتى ظهر عجزه عن اتخاذ طريق يسير فيه وراء تخليص الدولة مما هي عليه من الاضمحلال . فكان يسعى في استئصال شأفة هذا الخلل الظاهر سعيا ملؤه الكذب والرياء ليظهر للعالم حسن ادارته وسلامة طويته ومع هذا كله لم يتمكن من ايجاد منفذ تتمكن معه الدولة من ان تنجو مما هي عليه من السقوط السريع

وكان المشار اليه مفطوراً على حب استقلال الدولة وارتقائها ولكنه كان ايضاً يحب لنفسه الاستقلال والبقاء في منصب الصدارة اياماً طويلة واكتسابه الشهرة حباً يكاد يكون عبادة . ولم يكن في ذاك الوقت من رجل يستحق الصدارة غيره كي يحفظ للدولة استقلالها ويعلي بين الدول شأنها

وقد تقلد كثيراً من الوظائف العالية في الدولة قبل صدارته لكنه لم يلبث طويلاً في منصب الصدارة نظراً لعدم تحمله وقوع الهفوات الكثيرة التي كانت تصدر من اهل السراي بلا انقطاع

واضطر الى ترك منصب الصدارة ووقوفه على جانب الحياد بالرغم عما كان يخالج ضميره من الحب الشديد الى هذا المنصب

وكانت المطبوعات ذات الصوت المسموع عند الدولة والجرائد الاجنبيـة التي تظهر قوتها في كل آن ضربت جميعها على وتيرة واحدة وهي وجوب تسليم زمام الصدارة الى فوءاد باشا وان لا احد سواه يتمكن من ازالة هذه السيئات جميعها . ولكن كل هذا النداء لم يجد نفعاً الا بعد ان اعمل سفير الانكليز نفوذه في السراي وتداخل في الامر . وقد عين فوءاد باشا للصدارة بعد ان رأى السلطان أن لا مناص من تعيينه

والسبب في معارضته في تعيين فوءاد باشا واصراره عَلَى هذه المعارضة حتي اوجب تداخل سفير الانكليز هو خوفه من فوءاد باشا وصدارته لما بينهما من تناقض الرأي في تدبير امور الملك

ولم تدم صدارة فوءاد باشا زمناً طويلاً اذ لم يتولى المشار اليه مسند الصدارة حتى سعى لسد منافذ الظلم والاستبداد ولم ير من الجائز ترك اهل السراي تتحكم في ادارة الملك كما تشاء . فاتفق مع جميع الوزراء على محافظـة استقلال الباب العالي فاتخذوا أقل الامور سبباً وقدموا استعفائهم جميعاً . وكان مقصدهم من هذا الاستعفاء تهديد السراي بهذا الاتحاد المتين وقلع جذور مداخلات اهلهـا التي لا تجني الا اردأ الاثمار .

وان تكن مسئلة الاستعفاء فكراً مبتكراً يؤمل منه حصول اتفاق بين السراي والباب العالي ولكنه كان دون جدوي اذ ظهر استحالة الحصول على ما املوه . لان السلطان شدد النكير وقبل استعفائهم بكل سكوت وسكون ولم يبالِ بهم وباتحادهم وجعل نصب عينيه سلب حقوق الباب العالي تماماً فعين (نورس باشا) في منصب الصدارة لما يعهد فيه من التملق والاطاعة التامة للسراي . واتخذ تعيينه وسيلة لتأمين منافعها بدلاً من منفعة ادارة الدولة . ولكن مجاهرة عموم الاهالي في عدم رضائهم عن هذا الصدر اكره السلطان على ترك العناد والسير على الطريق الذي تبتغيه العباد فعزل نورس باشا وعين (كامل باشا) مكانه بعد ان أحس بسوء المنقلب

اما كامل باشا فظهر بادئ ذي بدء بمظهر رجل مطيع للسلطان متبع اهوائه مع انه كان من الذين يريدون ان يكون الباب العالي متمتعاً باستقلاله خلواً من مداخلة اهل السراي فلم يكن حريصاً على مسند الصدارة بل كان غاية ما يرمى اليه هو ان يتربع في دست هذا المنصب ولو برهة قصيرة ليلقب (بالصدر الاعظم الاسبق) ويستنتج مما قدمناه علَى وجه الاختصار ان السلطان

عبد العزيز لم يفكر في أمر الملك والامة حتى في أوائل سلطنته بل كان يسعى وراء منفعته الذاتية في كل مشكل وقعت فيه الدولة . فلم يترك بابًا من ابواب الحيل حتى ولجه ليكون له من الغنيمة النصيب الاوفر .

ولم تزد مدة صدارة كامل باشا عن سبعة أشهر ولم تأت هذه المدة بفائدة سوى انتقال الصدارة الى فوءاد باشا لمدة طويلة

مصر بلاد تحكمها العائلة الخديوية المحمدية العلوية منذ أيام محمد علي باشا الكبير . وهي مستقلة في ادارة امورها الداخلية بموجب امتيازات كثيرة منحت لها من طرف الباب العالي فكانت حقوق الدولة فيها عبارة عن أقوال بسيطة ولو كان هذا الحال منافيًا لمسلك الادارة المركزية ولكن عجز الباب العالي (نظرًا لما هو عليه من الاحوال الداعية للأسف) عن اجراء شيء لجبر هذا الصدع القديم اضطره ان يتخذ طريق السكوت احتياطًا وان يسعى باطنًا في اتخاذ الوسائل المناسبة لربط الخديوية المصرية بالخلافة الاسلاميه ربطًا قويًا محكمًا .

ففي أيام صدارة كامل باشا توثقت العلائق الوديه بين مصر ومركز الخلافة وظهرت فكرة زيارة السلطان لمصر . والسبب

في تعجيل زيارة السلطان عبد العزيز للديار المصرية وسرعة حصولها ناشيء عن رغبة فؤاد باشا في ابعاد السلطان عن بعض الذين كانوا يغوونه واقصائه عن دائرة نفوذهم ولولا مدقريب . وكان فؤاد باشا يقصد من جهة أخرى من ترغيب السلطان في هذه السياحة ابعاده عن هذه الزمرة ومرافقته في زيارته بصفته ناظراً للحربية والمحادثة معه ملياً في شؤون الدولة وفتح ميدان فسيح لنيل التقرب من الخليفة على قدر الامكان . وقد نال ما كان يتمناه في هذه الزيارة اذ تمكن من ازالة نفور السلطان منه واكتساب رضاه وتوطيد دعائم نفوذه بين أهل السراي فعين صدراً اعظم بعد العودة من مصر . وبقيت نظارة الحربية في عهدته ووجهت اليه رتبة مشيرية المابين ولنترك الآن تفصيل ما وقع من الحوادث في زمن صدارة فؤاد باشا التي دامت زمناً طويلاً لمقالاتنا الاتية ونكتفي ههنا بكتابة بعض الشيء عنها . لم يظهر جزء من مائة جزء مما كان ينتظر ظهوره من الاعمال المفيدة في عهد صدارة فؤاد باشا ولو قسنا الاصلاحات التي جرت في مدة الاربع سنوات بالمساوي الموجودة والمقتضى ازالتها لرأينا ان الفوائد التي حصلت للدولة من صدارة

فوءاد باشا اقل من القليل

والمسئلة التي جرت في عهده وجديرة بالذكر هي الاصلاحات المهمة التي تمت في ولاية الطونه ولكنها ناشئة عن سعي مدحت باشا المستمر الذي كان والياً عليها وقتئذ وقد ارادوا تعميم هذا الاصلاح في جميع الولايات وكأني بهم وقد ارادوا ان يظهروا للعالم سعيهم في سبيل نجاح الملك بافتتاحهم معرضاً بميدان السلطان احمد في الاستانة سنة ١٢٧٩ وتشكيل (صندوق رأس المال (في كل قضاء وقرية من بلاد الروم ايلي . وتأسيس البنك العثماني لاول مرة في دار السعادة برأس مال يربو على ثلاثة ملايين جنيه لمدة ثلاثين سنة . وقد اعلنت هذه الاصلاحات كلها في الجرائد الوطنية والاجنبية فعدت دليلاً على ارتقاء الدولة وتقدمها ولكن ما لبثت ان شهدت عليها آثارها بانها جعجعة فارغة وطنطنة كاذبة

كان المشار اليه يرى مركزه عرضة للزوال في كل زمان فهان عليه بيع وطنيته وتضحية مصلحة بلاده في سبيل تمكين دعائم مركزه فساعد السلطان على تبذير اموال الدولة واعانه على نيل مآربه السيئة التي فطر على حبها . حتى اوقع مالية الدولة

(التي هي لها بمثابة الروح للجسد) في ضنك شديد .

وان كان السلطان معتدل المشرب في بدء سلطنته ولكنه اتبع اخيراً اهواء أهل السراي وطاوعهم على الاسراف الكثير الذي ذهب بحياة الامة :

فبلغ عدد نساء السراي عدداً كبيراً ضاقت بهن السراي مع اتساعها المشهور وعلى رواية ان عددهن تجاوز التسعماية وازداد أيضاً عدد اغاواتهن الخصي زيادة نسبية فكان مجموع الحشرات في السراي الهمايوني الفان وخمسمائة نفس

ولو قلنا ان المطبخ الشاهانى كان يحضر ماية سفرة وفي كل سفرة اثنا عشر لوناً من الطعام لكان مجموع مايؤكل في كل اربع وعشرين ساعة يربو على الستة آلاف صحن وهو مقياس يمكن معه ادراك مقدار الاسراف والتبذير في عهده

والذي زاد في الطنبور نغمة تشييده قصر (چراغان) الفخيم وقصر (بكلربكى) وقصوراً كثيرة في جهات مختلفة ولو اغضينا النظر عن المصاريف الكبيرة التي لا بد من صرفها كالمبالغ التي بذلت في انشاء (الترسانه والطوبخانه) لكان مجموع ما صرف على قصر (چراغان) فقط نيفاً ومليون

ونصفاً من الجنيهات وهي حقيقة ثابتة بدفاتر وقيود ماموري الانشاآت و باضافة هذه المبالغ الى مصاريف المطبخ يظهر للقارىء باجلى بيان مقدار تلك الاسرافات الفاحشة ٠ ولم ينس فوءاد باشا نفسه بعد ان ساعد السلطان على هذا الاسراف كله بل انتهز الفرصة وشيد له قصراً كبيراً يعجز عن وصفه الواصفون (١) ولقد سرت هذه الروح الى صغار الموظفين في جميع شعبات الادارة بعد ان راوا بأم عينهم فعل اولياء الامور منهم

فراج سوق الاسراف بعدئذ في جميع ادارات الدولة وابتذل الارتشاء والارتكاب وتركوا الاجانب يتمتعون بثروة البلاد و يزاحمون في التجارة والصناعة والاستعمار أهل الوطن ٠

واتسع نطاق هذه الاحوال حتى باتت الدولة على شفا جرف هار من الاضمحلال ولم يأتوا بامر ينفع الامة من الامور اللازمة

اللهم الا تنظيم الجيوش البرية وايجاد قوة بحرية هائلة ولو نسب حصول ذلك الى الصدور الذين تولوا هذا المنصب بعد فوءاد

(١) هو الان دائرة نظارة المالية في الاستانة

باشا لكان اقرب للحقيقة كما لو عزي الى المشار اليه وسنفصل هذه الحقائق تفصيلا في الفصول الاتية وكانت علائقنا الخارجية حينذاك في فتور مع الدول واسنا ننكر مقدرة فؤادباشا وزكاءه وبعد نظره في عواقب الامور واشتهاره بين الساسة الاوربيين ولكن اختلال الامور الداخلية وعدم انتظامها اثرت اسوأ تأثير على علائقنا مع الدول الاجنبية وحالت دون الاستفادة من مقدرته وشهرته واضاعت حقوق الدولة في رومانيا والجبل الاسود وعلى الاخص في الصرب وهي الدولة التي كانت ولم تزل حتى تلك الساعة مستظلة بظل الدولة الموهوم · وقد انسحبت الجنود العثمانية التي كانت تحتل من قديم الزمان اهم النقط في بلاد الصرب ومنحت هذه استقلالاً سرياً · وكانت هذه كل نتائج صدارة فؤاد باشا التي دامت اربع سنوات حتى يمكننا ان نقول ان نتائج هذه السياسة الخرقاء اثرت على مستقبل دولتنا اسوأ تأثير

اذ كانت اعمال فؤاد باشا سبباً في ابتعاد جميع اصحابه عنه واتفاقهم على اسقاطه من منصب الصدارة · والذي عجل بسقوطه وعدم بقائه في منصب الصدارة مدة اخرى هو وفاة (بالمرستون) احد مشاهير وزراء الانكليز في ذاك الحين · حيث ان وزرائنا

قد اعتادوا جميعاً على ان يعتمدوا اثناء صدارتهم على احدى الدول العظمى ليقاوموا تيار السراي ويقضوا ايام صدارتهم آمنين جانب مداخلتها فكانوا ويسعون جهدهم في ازدياد نفوذ سفير الدولة المنتمين لها في الاستانة ليستفيدوا من ازدياد نفوذه في السراي وكان فؤاد باشا ينتمي للدولة البريطانية فلم يكن بقاؤه في منصب الصدارة زمناً طويلاً الانتيجة انتمائه لها وازدياد نفوذ « بالمرستون » في الاستانة وبعد سقوط صدارة فؤاد باشا تولى محمد رشدي باشا منصب الصدارة في ٢٤ مايوسنة ١٢٨٣ هـ

وكان رشدي باشا متوسط الحال بين الوزراء ولم يقدر على تنظيم الامور وايقاف دولاب دائرة السوء التي اشتد دورانه في المدة الاخيرة . وكانت هذه الصدارة مشكلة من رجال معروفين (ما عدا فؤاد باشا) بالحزم والتدبير وبينهم الصدر الاسبق عالي باشا . واول نقطة يقف عندها الناظر من اعمال هذه الصدارة هي ترك الميل لسياسة الانكليز التي كان فؤاد باشا متعلقاً باهدابها واتباعهم سياسة الفرنساويين كما هي العادة عند كل من تولى الصدارة في اتباع سياسة احدى الدول واتخاذها ملجأ له يلجأ اليها عند مسيس الحاجة

اما الاحوال الداخلية فكانت تزداد وخامة يوماً عن يوم ووصلت مالية الدولة الى حالة يندبها الصديق و يرثيها العدو لان اسراف اهل السراي وسوء تدبير الوزراء لم يبق ولم يذر على الملايين الكثيرة التي اقترضتها الدولة من متمولي الاجانب وعجزت الخزينة عن اداء فوائد الديون عند حلول المواعيد المضروبة اذ كانت خزينة الدولة أفرغ من فؤاد ام موسى فانزلت هذه الحال بمكانة الدولة عند الاجانب كما اسقطتها في عيون الوطنيين

فبحث اولياء الامور في ايجاد وسيلة يستندون بها على سلب الاموال فقر قرارهم « وبئس ذلك القرار » على ان يوضع مال البنك العثماني ضمانة للدائنين وان يترك دخل عدة ولايات للبنك المذكور وتمادوا في غيهم هذا حتي كانوا من اقوى العوامل على تشكيل الديون العمومية وهي كما ترى عبارة عن « حكومة في قلب حكومة »

ومن نوائب هذا الزمان التي تتفطر لها القلوب حزناً انتهاز الصرب والجبل الاسود ورومانيا هذه الفرصة السانحة لنيل امنية طالما كانوا يتمنونها ومما ساعدهم على بلوغ هذه الامنية

وقوع الدولة في احوال كهذه هم ينتظرونها بفروغ الصبر لخلع نير تلك التابعية التي كانوا مرتبطين بها مع الدولة ارتباطاً جزئياً ونيل الاستقلال التام او على الاقل زيادة الامتيازات التي يتمتعون بها من قبل وقد ظفروا بما املوا بعد جدال سياسي عنيف فانسحبت جنود الدولة من القلاع التي كانت تحتلها في بلاد الصرب وعلى الاخص قلعة بلغراد (١) بعد مخابرات دامت مدة طويلة ومنحت رومانيا والجبل الاسود ما طلبا من الامتيازات الكثيرة بعد حزف جزء منها

وبينما كانت نار هذه الاحوال تتأجج اذشق اهالي (كريد) عصا الطاعة فارخى عملهم ستار النسيان على ما تقدمه من المصائب والرزايا . فاجتهدت الدولة كثيراً في تسكين هذا العصيان ولكنها اخفقت سعياً ولم تتمكن من تسكينه الا بعد ان تولى عالي باشا منصب الصدارة فسكن بحسن سياسته ذلك العصيان بعد ان زاد امتيازات الجزيرة زيادة لم تكن في الحسبان . وكانت كل هذه الجروح من سوء التدبير التي انزلت بالدولة الي هوة الاضمحلال . فيستنتج من الملاحظات كلها ان رشدي باشا لم

(١) هي الان عاصمة الصرب

يتمكن من مداوات هذة العلل فاستعفى والخطب جلل

فجاهر الجميع بوجوب تسليم زمام الصدارة لفؤاد باشا فعارض السلطان في الامر اشد المعارضة لعدم محبته له وقلة ثقته به وعين اخيراً عالي باشا صدراً اعظم وفوءاد باشا ناظراً للخارجية ورشدي باشا ناظراً للحربية



اواسط سلطنة السلطان عبد العزيز

صدارة عالي باشا — زيارة السلطان عبد العزيز لاوربا = حسن ادارة الصدر الاعظم — وفاة عالي باشا — بعض الاصلاحات التي تمت في ذاك الحين = نظامنامة الولايات = تأسيس مجلس شورى الدولة = بعض التشبثات في الامور النافعة = الجهة العسكريه = الاحوال المالية ·

كان عالي باشا كأكثر وزراء زمانه من تلامذة الصدر الاسبق مصطفى رشيد باشا المشهور · فاستخدم نيفاً وعشرين سنة في شعبات الادارة حتى اصبح وليس من خافية تخفاه واخيراً عين في نظارة الخارجية وخدم الدولة خدمات مهمة وبالاخص في معاهدة باريز التى كانت نتيجة حرب سيواستوبول اذ كان مندوباً للدولة العثمانية فاظهر من ضروب المهارة السياسية ما اذاع اسمه في اوروبا · ومن خصائصه الممدوحة انه لم يكن كمن شغفوا بالمناصب والرتب وكانوا يبذلون كل مرتخص وغال في هذا السبيل سيما السعي في بلوغ رتبة الصدارة ومع انه كان في الدرجة الثانية من الوظائف ويرجح الاشتغال بما عهد اليه من الامور الخارجية ولكنه دعى لرتبة الصدارة بعد سقوط

وزارة رشدي باشا فقبلها مكرهاً

وكانت امور الدولة الداخلية كثيرة الاضطراب وطالما ادت هذه الاحوال الى مداخلات الدول الاجنبية ودعت فتح باب التعرض لدولة الروس عدوتنا الزرقاء منذ القديم . وكان عالي باشا قداستجلب محبة بعض الدول الاوروبية بما اكتسب من الشهرة والنفوذ وبالاخص عند نابوليون الثالث امبراطور فرنسا فهدأ ثورة كريد في مدة قصيرة بما استعمل من التدابير المؤثرة الفعالة ولما استتب الامن في كريد لم تتوفق روسيا من اشعال جذوة الثورة العظيمة التي ارادت ايقادها في بلغاريا بواسطة جمعيات «پان اسلاويزم» واستتب الامن هنالك في مدة قصيرة وعدت هذه الحالة فشل تام لساسة الروس اذ كانت هذه التوفيقات المهمة وتشبث السلطان عبدالعزيز لزيارة اوروپا مقدمة لاكتساب الدولة العثمانية موقعاً ممتازاً بين الدول

والعاقل البصير يدرك موافقة هذا التدبير الجليل للحالة الحاضره لانه لم ير في التاريخ العثماني حادثا مماثلاً لهذه السياحة الملوكية كما ان العلاقات القديمة بين دولتنا ودول اوروپا قدتغيرت منذ الواقعة الخيرية ولذا كان من الضروري لنا تأييد العلائق

الحبية بين سلطاننا وملوك أوروبا · حتى ان هذه الزيارة كانت السبب الوحيد في ازالة بعض ماطرأ من التغيير على أفكار ملوك الغرب وما كانوا يعتقدونه في الشرق والشرقيين وقدفتحت هذه الزيارة في بلادنا طرق الفوائد المدنية ودفعت بهم لزيارة مصر والاستانة ·

وكانت السبب الوحيد في توطيد دعائم العلائق بين ملوك أوروبا والاسرة المالكة في دار السعادة والغاية الوحيدة من تشويق عالي باشا للسلطان عبد العزيز لهذه السياحة ارائة الدول الاروبية دخول الدولة العثمانية في دور الارتقاء واستعدادها لاجراء الاصلاحات الجدية

ومحو تصورات الاعداء (على الاخص منهم دولة الروس) الذين كانوا يشيعون عن الدوله وسلاطينها اشاعات كلها كذب وافتراء

ومن جهة اخرى كان يود ان يرى السلطان عبد العزيز دول الغرب وملوكهم وما يعاملون به الرعية من الرفق والعدالة وما اثمرت افعالهم من الثمرات الحسنة من اعمار الملك وزيادة الثروة في البلاد لتكون له درس عبرة عساه يقتدي

بهم فيصلح الملك ويريح العباد وبناء عليه عزم السلطان على زيارة أوروبا فأخذ صحبته السلطان مراد (١) وعبد الحميد أفندي (٢) وكثير من كبار المملكة وبعض أتباعه وفي سنة ١٨٦٧م توجه الى پاريز والسبب في رحلته أولاً لباريس هو وجود نابوليون الثالث ايمبراطور فرانسا الذي له من الصيت والشهرة ما يغني عن البيان وقد أثرت اذ ذاك سياسة عالي باشا تأثيراً حسناً في هذه الزيارة اذ كان ينتمي للفرنساويين فاكرمت حكومة فرنسا مثوى السلطان واستقبلته استقبالا يليق بالملوك العظام وقد رأى الاكرام الزائد منها طول اقامته في باريس وتركها بعدئذ قاصداً لوندره ولما ان وصل اليها رأى من الاكرام ما لم يره في باريز اذ كان فيها ضيف الحكومة والاهالي معاً بينما كان في باريز ضيفاً للحكومة فقط فكانت جميع الاهالي ترحب به وتهتف له بالدعاء أينما حل وأدبت له بلدية لوندره مأدبة شائقة ولم يكن ذلك بالامر الكثير لما اعتادته هذه الامة من الشغف الزائد بدولة بني عثمان

---

(١) الذي كان ولياً للعهد حينئذ

(٢) هو السلطان عبد الحميد الخليع

وبعد ان مر على بعض الجهات عقب زيارته لوندره قفل راجعاً الى الاستانة وكان زمان صدارة عالي باشا من أحسن الايام وبهمته تأسس مجلس شورى الدولة في مركز السلطنة وأبتدأت آثار الارتقاء تظهر في جميع شعبات الادارة فسكن عصيان كريد بسياسته بعد ان كانت الحرب على قاب قوسين بين الدولة العثمانية واليونان نظراً للمعاونة الدائمة من الثانيه لثوار كريد وبعد ان اشتغل السردار عمر باشا مدة في تسكين العصيان بالقوة القاهرة ولم يجد عمله نفعاً . حصر عالي باشا فكره في اصلاح وتنظيم الامور الداخلية ولكن حال دون اتمام امنيته عدم وجود عمال اكفاء وما اعتادته حشرات السراى من المداخلات في امور الدولة . وقد كان الامران من اهم الاسباب لعدم وضع الاصلاح كما ينبغي ومما يذكر فيشكر تشكيل صندوق الامنية في الاستانة وادخال بعض الاصلاحات في الجيش كتنظيم الجيوش وتنسيقها على الطرز الجديد . وعلى العموم فان الاحوال الداخلية قد انتظمت انتظاماً يذكر بعد حادثة كريد . وفي ذاك الحين كان مدحت باشا واليًا على بغداد فاستطاع اخضاع اهالي ولايتي القطيف والاحسا ووجه همته الى توزيع

العدالة في تلك الديار واصلحها كما اصلح احوال الطونة واسس شركة بواخر عثمانية وكانت الغاية الوحيدة من هذه الشركة توسيع نطاق النقل بين بومباى و بغداد والاستانة ونشر تجارة البلاد ومما هو جدير بالذكر أيضاً تأليف معسكر في اليمن سنة ١٢٨٧ ه وادخال العرب المنتشرين في صنعا والعسير تحت لواء الطاعة وتأييد النفوذ العثماني في تلك الاصقاع النائية. وبعد تدبير هذه الامور بسنة من الزمان بدأت صحة عالي باشا بالانحطاط ثم اشتد عليه المرض وعلى رواية أخرى ان محاربة ١٨٧٠ التي وقعت بين فرنسا والمانيا واسر نابوليون الثالث واندحار فرنسا أثرت فيه وكانت سبباً في اشتداد مرضه فانتقل الى رحمة ربه تاركا من حسن السمعة ما خلد له اسما لا تمحوه كرور الايام

نعم ان عالي باشا لم يقم باصلاحات قطعية أيام صدارته ولكنه كان اعظم صدر أُتى حتى ذلك الوقت فان تشكيله لمجلس شورى الدولة وسعيه لصد تيار حشرات السراي من الامور التي تخلد له اطيب الذكر وتكفي بان تكون شهادة حسنة على حسن تدبيره وزد على ذلك انه كان رحمه الله حميد السيرة طيب السريرة عفيفاً مدبراً وخلاصة القول انه كان أصلح الوزراء

الذين وجدوا في عهده · وقد اشتهر بنفوذه لدى السلطان عبد العزيز ولذلك تمكن من انقاذ الملك من بين يدي هذا الملك المخرب وأخر حلول الايام المشئومة الى حين · وتربع في دست الصدارة العظمى بعد وفاته محمود نديم باشا في ١٢٨٨ هـ وكانت صدارة هذا الاخير تشكل دور المصائب والانقراض في عهد السلطان عبد العزيز · فلنترك هذه الحوادث للآتي ولنلخص ما تم من الاصلاحات في الدولة العثمانية من عهد جلوس السلطان عبد العزيز حتى صدارة محمود نديم باشا فنقول : ان الاهالي كانت تأمل من السلطان عبد العزيز اصلاح البلاد ولكن هيهات فقد ظهر في القريب العاجل استحالة حصول هذا الامل · ومع هذا فلا ينكر انه قد حصل في دور السلطان عبد العزيز من العمران واصلاح الملك اكثر مما حصل في عهد السلطان عبد المجيد

ولم تكن آثار هذا العمران والترقي نتيجة حب الوزراء وحشرات السراي للوطن أو تفانيهم في الاخلاص له بل كان ناشئا عن استعداد الامة وتقلبات الزمان · وعدم اقتدار وزراء ذاك الوقت « اللهم الا النفر اليسير منهم » وعدم غيرة من

تربعوا في دست الوظائف العالية دليل واضح على ان هذه الاعمال كانت قليلة جداً وفي الدرجة الثانية من الاهمية

وكانت أمور الولايات ملقاة على عاتق الولاة الذين يعينون من الاستانة رأساً وهؤلاء يعينون في وظائف الالوية والمديريات بعض خدمهم واتباعهم واصحاب المحسوبية عليهم . فكان هؤلاء الموظفون يضعون الرسوم عَلَى الاهالي بحسب نفوذهم وانصافهم و يعاملونهم بقدر ما يستطيعون من الجور والعسف حتى ان مصائب الوباء كانت دون هذه المصائب على الاهالي . والسبب في عدم خوف الظالمين الصغار هو اشتراك الولاة واصحاب النفوذ في الاستانة حتى أهل السراي وتقاسمهم الاموال المنهوبة على السواء . وكان الولاة يرسلون الهدايا الدائمه لاصحاب النفوذ في الاستانة ليحافظوا على مراكزهم ولم يدخل من الاموال الاميرية الى الخزينة الا الجزء اليسير . فاحس بعض العقلاء بعدم جواز هذه الاحوال وأرادوا ان يتلافوها قبل ان يتسع الخرق على الراقع ويحل القضاء حيث لا عاصم ولا مانع . فقر قرارهم على تغيير ادارة الحكومة وافراغها في قالب أنفع فجلب والي الطونه مدحت باشا الذي كان مشهوراً بشباته ونشاطه و حسن

درايته في الامور السياسية واكتسب شهرة عظيمة لاتمام هذا المشروع الجليل و بعد ان تذاكر الوزراء في هذا الامر ملياً وضعوا نظاماً جديداً يدعى بنظامنامة الولايات وكان ساعدهم الاقوى في اتمام أمنيتهم افكار ومطالعات مدحت باشا ثم بدأوا في تطبيق هذا النظام على ولاية الطونة فلما ان ظهرت ثمرته في مدة قصيرة قرروا تطبيقه أيضاً على جميع الولايات تدريجياً . ومما هو جدير بالذكر ان هذا النظام مهما كان موافقاً للمصلحة فلا بد له من رجال اكفاء يقومون بتنفيذه ولذا لم تقتطف ثمرة هذا النظام الجليل الا في ولاية الطونه حيث كان مدحت باشا واليها و بهمته انتج هذا النظام فوائداً عديدة فاحيى تلك الولاية واوصلها الى درجة ضاهت بالعمران أحسن بلاد اوروبا

ولكن مما يؤسف له انه بينما كان الحال في هذه الولاية كذلك لم يرَ لهذا النظام في غيرها ادنى تأثير . فبعد ان انتظمت تلك الولايات قليلاً أتى الدور للاستانة فجددت الاصلاحات في أمور مجلس شورى الدولة والفضل كل الفضل في ذلك عائد على مدحت باشا والدليل على ذلك تفويض اول رياسة لهذا المجلس الى عهدته . ثم تحولت انظار هذا المصلح العظيم

للحقانية (أي العدلية) فأجرى فيها بعض الاصلاحات ونظمها على قدر الامكان تنظيماً يناسب الوقت والزمان

فاصلح وضع هذا النظام جميع الدوائر وسد جزءاً مما تحتاج اليه الدولة من الاصلاح وعلى كل فان فائدة هذا الانقلاب ظهرت للعيان ظهور الشمس في رابعة النهار . وقد اصلح في مقدمة هذا الانقلاب بعضاً من الامور النافعة ولكن عدم وجود رجال اكفاء عندنا لادارة هذه الاعمال العظيمة بنفسنا أوجبت احالة هذه الامور بشرائط معلومة الى الاجانب كي نستفيد من ثروة بلادنا عملاً بالقول المأثور (ما لا يدرك كله لا يترك كله)

ولكن لم يحصل من تسليمها للاجانب سوى الاضرار البليغة لنا فكأني بالحكومة العثمانية وقد رأت بأم عينها ما نتج من الضرر العظيم بسبب اعطاء امتيازات الخطوط الحديدية للاجانب فشرعت في مد خط الاناضول على حسابها ولكن انتج انشاء هذا الخط من الاضرار المالية ما قدر باضعاف الخسائر التي نشأت عن مد الخطوط بواسطة الاجانب فبينما كانت النية موجهة الى مد الخط داخل الاناضول واقترض لهذا الغرض الملايين من الجنيهات من بنوكة اوروبا لم يتجاوز الخط ثغر

أزميد وعند الحساب تبين ان ما صرف على كل كيلو متر واحد يعادل ما صرف على خمسين كيلو متراً مما مدته الاجانب . ولولا تعبئة اكياس الخائنين لامكن على قول العارفين مد الخط الى البصرة بهذه المبالغ الجسيمة . ولم تقف احوال النافعة عند هذا الحد بل ألفت ايضاً في نهر الفرات شركة بواخر فنالها ما نال خط السكة الحديدية حيث ان المنفعة الخاصة قدمت على المصلحة العامة . حتى ان جهل الوزراء وحرصهم على المنفعة الذاتية أعمى قلوبهم عن الشركة الخيرية التى تشتغل داخل البوسفور وما تجره يومياً من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ولم ينظروا امامهم الى هذا الهيكل المجسم بل أعماهم عنه الغرض فلم يهبوا لتنظيم شركة البواخر العزيزية (١) اذ كانت هذه الشركة تدار بواسطة الحكومة تارة و بواسطة الاجانب اخرى . ومع هذا لم تأت باقل فائدة تذكر بل كانت دائماً مورداً عذباً للاجانب فتشبثوا أخيراً في اخراج المعادن المكنوزة في بلادنا ومنحوا الاجانب امتيازاتها فنال الخزينة من هذه ما نالها من الخطوط الحديدية وشركة البواخر العزيزية ولم ينتفع منها سوى الاجانب من

---

(١) تسمى الان بالادارة المخصوصة

مهندسين وعمال حيث امتلأت منها جيوبهم بالاموال ·
واجدرها بالذكر الحسن هو تمديد الخطوط التلغرافية بجميع انحاء
المملكة العثمانية فارتبطت بها البلاد ببعضها ·

هذه هي مجموع الاجراآت النافعة التي اردنا عرضها للقراء
ومع انه لم يستفد منها ادنى فائدة فجميع هذه المضرات لم تكن
شيئاً مذكوراً بالنسبة لما حصل من الاضرار بواسطة بناء القصور
الشاهقة ليتنعم بها جلالة السلطان ومقربوه اما ادارة العسكرية
فانها ارتقت ارتقاءً نسبياً ولكن مدرسة الحربية بقيت على ما كانت
عليه منذ تأسيسها في ايام السلطان محمود بينما ان المعسكرات
كثرت وازدادت حتى لم تعد المدرسة المذكورة كافية لاخراج
الضباط اللازمين من اصحاب المدارك وبناءً عليه كان يقتضي
في ذاك الحين وجود مدرستين للبيادة او ثلاثة ومدرسة
للسواري واخرى للهندسة ومع غض النظر عن عدم انشاء
احدها تجد انهم وضعوا بروغرام المدرسة الحربية بدون تروٍ
حيث كان المكلفون باصلاحه لا يعلمون عن اصول المدارس
شيئاً حتى بقيت هذه المدرسة دون مدارس اوروبا الحربية ولم
تستفد من الارتقاء الحديث شيئاً يذكر

وابتدأوا حينئذٍ في اجراء المناورات في المعسكر الخاص والثاني فارتقى العساكر وتوسعوا في التعليم حتى ظهرت اخيراً فوائده العظيمة ٠

اما السواري فانها كانت قبلاً تشكل الصنف الممتاز بين العساكر العثمانية وهي التي كانت مداراً لتأمين الانتصار ولكنها انحطت اخيراً حتى اصبحت لا تعد شيئاً بالنسبة الى الطوبجية والبيادة فانصرفت الهمة حينئذٍ لاصلاح هذا الصنف واكتفى بتسليحه ببنادق مانشستر والطبانجه والسيف وتجهيزه بالخيول السريعة العدو ٠ اما المالية فارتبكت ارتباكاً ما عليه من مزيد لان القروض الخارجية بدأت منذ ايام السلطان عبد المجيد وزادت في عهد عبد العزيز الى ان وصلت الى عشرة ملايين وسرت الى الداخل فنمت نمواً عظيماً حتى عادلت الديون الخارجية

ومن المحزنات ان هذه الديون التي استدانتها الدولة بعد كل عناء لم تصرف في سبيل الامور الجدية بل ذابت في زمان قليل بين ايدي الوزراء وحشرات السراي مما سنفصله تفصيلاً ٠



اوروبا والدولة العثمانية

بعض الملاحظات على الفتوحات العثمانية ٠— العناصر المسيحية في البلاد العثمانية ـ تذبذبات السلطان سليم الاول ضدهم ـ انحطاط الدولة العلية بعد معاهدة قارلوفچة — تعرض روسيا للشرق — احوال هذه الدولة التاريخية ـ بطرس الاكبر ومحارباته مع الدولة العثمانية — وصية بطرس السياسية — حماية الدول للدولة العلية ـ السعي في تجديد قوة الروس بعد محاربة القريم ـ جمعيات الاتحاد السلافي — الاتحاد السلافي ومبدأ ظهوره ـ حركة هذه الجمعية ـ

اثبت التاريخ ان اكتساب احدى الدول للقوة والعظمة يتوقف عَلَى اجتماع سلسلة حوادث ووقائع متعددة في وسط مناسب كما ان انقراض دولة قوية الشكيمة وصلت الاوج الاعلى من المجد الشامخ يتوقف على هذه الاحوال. ومع ان الحال الاخير بدأت امارته تظهر في التاريخ العثماني منذ ثلثماية سنة . فالدولة العثمانية زحفت عساكرها من آسيا الى اوروبا حين كانت فريدة عصرها بالقوة والسطوة ووصلت عساكرها الى اسوار ڤينا « عاصمة النمسا » في مدة قليلة والذي حدا بالعناصر المسيحية التي تقطن البلاد التي افتتحتها الدولة الى التزام السكون طول هذه المدة هو عدم مقدرتهم على مقاومة تلك القوة القاهرة وعجزهم عن اتخاذ ادنى الوسائل امامها .

ولكن العثمانيين اخطأوا خطأً فادحاً حيث انهم لم يصرفوا قسماً من مقدرتهم وذكائهم في ربط البلاد المفتوحة ربطاً قوياً محكماً . وهو خطأ سياسي عظيم حتى كان السبب في اضمحلال الدولة العثمانية . لان مجرد فتح البلاد لا ينتج ادنى فائدة في الاستقبال ان لم يبن على اساس متين كما ان بقاء النصارى على ما هم عليه ومحافظتهم على جنسيتهم القومية تمام المحافظة لما يترك لهم باب الامل مفتوحاً للتخلص من حكم الاتراك وبناء عليه فان عدم تجنيس النصارى بالجنسية العثمانية على قدر الامكان لهو خطأ عظيم وعدا هذا فانهم لم يهتموا في امر تكثير الاسلام بين اهالي قطعة اوروبا حتى ان كثرة المحاربات اوجبت انقراض الاسلام فيها تدريجاً وكانت الاحوال تزداد وخامة يوماً بعد يوم

ومع هذا فلا يذهب فكر القاريء الى ان العثمانيين الذين اظهروا من ضروب المهارة السياسية والادارية ما تعجز عنه اي امة من الامم الغربية لم يهتموا قطعاً بهذه المهالك المقبلة . بل ان السلطان سليم الاول الذي تفرد بالذكاء والفراسة وبعد النظر في عواقب الامور قد بذل جميع ما في وسعه لهذه الغاية حتى انه عرف ان الفتوحات للاستقبال لا للحال فاتخذ هذا الفكر

دليل اعماله · ولكن ما الفائدة اذ لم يبث فكره لاحد ولم يمكنه قصر الاجل من اظهار رأيه الى عالم العمل فتوفي ودفنت معه تلك الدرة اليتيمة ·

ولم يهتم من تولوا عرش الخلافة الاسلامية بعد ساكن الجنان بالمسئلة المبحوثة بل تركوها في زاوية الاهمال ولم تلبث حتى ظهرت نتائج تلك الافعال · فبمعاهدة « قارلوفچه » أمضت الدولة العثمانية عَلَى ترك الفتوحات وصفرت صفير الرجوع الى الوراء وزد على ذلك ازدياد الثورات الداخليـة زيادة عظيمـة حتى يئس الجميع من الاصلاحات · فالاعداء الذين تحملوا التابعية العثمانية بالرغم عن ارادتهم راوا حينئذ ان الفرصة سانحة لاظهار ما تكنه صدورهم من الغل ، والغل كمين في الصدر يخفيه الضعف وتظهره القوى · فتباين الاديان واختلاف الاجناس بين سكان اوروبا العثمانية لم يربِ في قلوبهم سوى التمسك باسترداد الاستقلال وخلع نير حكم بني عثمان عن عاتقهم كلما لاح لهم بارق من الأمل وطرد الاسلام من تلك الديار الذين هم القسم الجزئي فيها الى قطعة آسيا وطنهم الاصلي · فلم تخف على رجال الدولة العثمانية هذه الآمال ولكن الضعف كان حائلاً

بينهم وبين مجازات الخائنين

وكان اهل السراي وهم منبع الفساد الذين مضى عليهم حتى الآن من العمر ما يتجاوز الثلاثمائة سنة في ابان شبابهم فاوقعوا الدولة في حيص بيص من جراء افعالهم . وبناءً عليه كان يستبعد ظهور وزير من بين وزرائنا صاحب تدبير كالوزراء السابقين بينما كان الاعداء في الخارج والداخل وجدوا ميداناً واسعاً فكانوا يرجعون بالغنيمة كلما اغاروا علينا

وحينئذ ظهرت المسئلة الشرقية « اي طموح الدول الاجنبية في اقتسام تركية اوروبا وتهيؤ كل منهم لابتلاع اللقمة الكبيرة منها » وهي بلا شك نتيجة كثرة الاضطرابات الداخلية وعدم توزيع العدالة بين اهالي البلاد فكانت روسيا اكثر الدول المجاورة طمعاً في اقتسام الدولة العثمانية وابتلاعها بادعائها حق الشفعة في ارث بني عثمان . اذ آنست في نفسها الكفائة بعد ان اصلحت احوال داخليتها في عهد بطرس الاكبر فكانت تتخذ حماية المسيحيين وعلى الاخص السلافيين منهم في تلك الديار ذريعة تتوصل بها الى نيل مآربها حيث ان السلافيين يشكلون القسم الاعظم من اهالي بلاد الدولة العثمانية في اوروبا .

وعليه جعلت نفسها الوارث الشرعي لهذه الدولة وكانت توالى محارباتها معنا وتبذل كل نفس ونفيس في سبيل الوصول الى غايتها ·

ولنوجز شيئاً من تاريخ هذه الدولة عدوتنا الازلية كي يعلم القارئ تماماً ما كانت عليه وما آلت اخيراً اليه ولكل زمان دولة ورجال ·

لم تكتسب الروسيا هذا الموقع الممتاز التي هي عليه الان بين الدول مع ما اوتيت من كثرة العدد وسعة الاراضي في شرقي اوروبا الا منذ مايتي سنة اي بعد ان اعتلى بطرس الاكبر عرش قياصرة الروس · ولو انها تنسب الى العنصر السلافي ولكنها كانت اجهلهم جميعاً وكانت في اقصى درجات التعصب · ولم تختلط مع الامم الاوروبية الاخرى بل بقيت في حال التوحش الى عهد بطرس الاكبر · فقد كانت في مبدأ ظهورها تعبد الاصنام واعتنقت بعدئذ الديانة المسيحية وقبلت مذهب الارثوذكس بواسطة المبشرين الذين ارسلوا لها من قبل قيصر الروم الذي كان حاكم القسطنطينية وكان قبولهم هذا الدين في عهد « فولوديمتري » برنس روسيه فبعد وفاة المذكور انقسمت

المملكة بين اولاده وتشتت شمل ذاك الملك الواسع حتى عجزوا عن صد هجمات الاعداء الخارجين . وبينما هم على هذا الحال اذ ظهرت التاتار فاستولت عليها وبقيت تحت ربقة اسرهم مدة تنوف على مئتي سنة ولكن امراء الروس رأوا بعينهم النتائج الوخيمة التي نجت عن هذا الانقسام فاتحدوا جميعاً وصاروا يداً واحدة وسلكوا مسلك الخوف والرجاء تجاه اعدائهم حتى اذا ما تمكنوا من جمع شملهم اسسوا امارة مهمة تحت ادارة امير موسكو (١) بعد مائتي سنة اخرى فكان امير موسكو حينئذ « ايوان » الاول فصادف زمان سلطنته دور السلطان محمد الفاتح فلما افتتح الترك القسطنطينية وسقطت دولة القياصرة فرّ « ديمتري » اخو القيصر قسطنطين المقتول الى اوروبا

فتزوج ايوان الاول بابنته صوفيا وحول لقب الامارة الى لقب « قيصر » ودعى نفسه الوارث الشرعي لقيصر الروم ومع هذا كله فان الروس داموا علی ما هم عليه مئتى سنة اخرى وكانوا اقرب شبهاً لدول آسيا منهم الى دول الغرب ولكنهم

---

(١) مدينة روسية كانت عاصمة البلاد قديماً . ومشهورة بكثرة كنائسها وفيها تتوج القياصرة حتى اليوم

تمكنوا من توسيع حدودهم وعمران ملكهم بعد ان امنوا جانب التاتار الموجودين داخل بلادهم وخارجها وعلى الحدود الشرقية وكانت الروس في نظر اوروبا والدولة العثمانية كالعدم فلم يسمع لهم اسم الا بواسطة السفرآء الذين كانوا يرسلونهم الى الاستانة واوروبا بين كل آونة واخرى

وفي سنة ١٧٠٠ م توفى الكسي ميخاليويچ قيصر الروس تاركاً بنتاً وولدين وكانت البنت تسمى صوفيه وهي اكبر انجاله فتربعت في دست الملك وكانت حريصة عليه فسعت جهدها في محو أعقل اخويها حتى يخلولها الجو ولا يبقى لها في الملك معارض ولكن مريدي اخيها وقفوا بالمرصاد فاثاروا عليها جنود موسكو وحبسوها في دير هنالك وبايعوا اخاها الملك وهو في الثامن عشر ربيعاً من عمره . وهذا الذي نحن بصدده هو بطرس الاكبر بعينه .

ومن غرائب الصدف ان ظهوره كان في بدء انحطاط الدولة العثمانية . ومما لا ريب فيه ان بطرس الاكبر كان على جانب عظيم من الذكاء ففي زمن قصير غير احوال الروس وبدلها تبديلا وسعى جهده في ادخال المدنية الاوروبية الى بلاده

حتي تمكن من ايصال ملكه الى الأوج الأعلى من الرقي وادخلها في مصاف ارقى الدول مدة حكمه التي لم تزد على الثلاثين سنة . وحارب الدولة العثمانية مرتين ففي الاولي اشترك مع الدول الثلاث (النمسا و پولونيا والبنادقة) الذين كانوا وقتئذ اعلنوا الحرب علينا . ولما كان الاستيلاء على البحر الاسود مطمح انظاره هجم اولاً على قلعة آزوف فارتد عنها خاسراً ولكن لم تثن هذه الخسارة عزمه فاستجمع قوته واعاد الكرة عليها ثانياً فاستولى على هذه القلعة بعد حصار طويل واعطيت هذه بعدئذ للروس بموجب معاهدة قارلوفجة .

اما المحاربة الثانية : فهي ان ملك السويد شارل الثاني عشر حارب الروس زمناً طويلاً ولكنه التجأ الى الدولة العثمانية بعدان غلب في محاربة پولتاوا الشهيرة . فشوق السلطان على محاربتهم وعضده في هذا الفكر بعض الوزراء حتى اعلنت الدولة العثمانية الحرب على الروس . وكان قائد العساكر العثمانية حينئذ الصدر الاعظم محمد باشا البالطه جي فحاصر بطرس الاكبر وحصره على اطراف نهر البروت وسد عليه جميع الطرق حتى لم يبق له وجه للخلاص فلما ان تأكد سوء العاقبة ارسل زوجته القيصرة كاترينا

مع «شفيروف» احد ضباط معيته الى قائد المعسكر العثماني وبعد بذل كثير من الاموال للمقربين من القائد توفقوا لاقناعه على عقد الصلح . وحين ملاقاة القيصرة كاترينا بالصدر الاعظم تعلقت باذياله ووقعت على اقدامه قائلة : لا ابرح هذا المحل حتى ترضى بعقد الصلح وهذه خلاصة المحررات الموجودة الان من تلك المحاربة وهي اقوال المؤرخين الاجانب من روسيين وغير الروسيين ومهما كان الامر فان بطرس الأكبر خدم امته خدمةً لا يمكن لاعظم ملك محب لوطنه ان يأتي باكبر منها . فالاصول الذي وضعه في ادارة دولته والوصية التي اوصى بها بخصوص ما يجب عَلَى الروس ان تفعله في المستقبل هما للان دستور العمل عندهم اما ما كتبه في وصيته عن سياسة الروس الخارجية فهي تخصنا رأساً

قال في وصيته : ان دين الروس قد ظهر من الاستانة وابنة آخر قيصر للروم تزوجت بقيصر الروس وعليه فروسيا هي الوارث الوحيد لقيصر الروم . ولا بد من ضبط الاستانة وجميع الممالك العثمانية وعلى من يخلفه عَلَى سرير الملك ان يسعى في حصول هذه الامنية وان يضبط اولاً فاولاً سواحل البحر الاسود

والافروسيا لا يمكنها ان تملك حدودها الطبيعية وقد بين في وصيته التدابير اللازم اتخاذها ·

وهي : اعلان الحرب على الدولة العثمانية عند اول فرصة تسنح والتقدم داخل الحدود على قدر الامكان ·

تنظيم عساكر الروس وتدريبها على الفنون الحربية حتى يؤمن الغلبة على عساكر الترك ·

والاستفادة من الثورات التي تحدث قصداً او عرضاً داخل البلاد العثمانية وتشويق عناصر النصارى فيها على شق عصا الطاعة · وقال في وصيته ايضاً ان الجرأة وحسن الاخلاق اللذان يمتاز بهما العثمانيين اخذتا بالتدني والانحطاط ودخل النفاق بين وزرائهم وسرى بينهم كما يسرى الدم في العروق ولا بد من استمالتهم نحونا ببذل الاموال والهدايا وضبط البلاد العثمانية تدريجاً الخ ·

واوان ساسة الروس تحاول انكار وجود هذه الوصية التي نشرت مراراً في المطبوعات الاجنبية ولكن الخطة التي ساروا عليها تجاه دولتنا بعد وفاة بطرس الاكبر تؤيد كل التأييد وجودها مهما حاول الروس اخفاءها · وعلى كل حال فان فكر

استيلاء الروس عَلَى بلاد الدولة العثمانية بداء منذ اعتلاء بطرس الاكبر على سرير قياصرة الروس . وقد حاربنا الروس للآن ثماني مرات وكانت تدور الدائرة علينا في جميعها وأشدها هولاً وأعظمها مصيبة علينا هي المحاربة التي وقعت في عهد كاترينا الثانية ولذا انجلت عن معاهدة قاينارجه . حتى ان هذه القيصرة الزكية كانت أشد من تقدمها قياصرة الروس شغفاً في انفاذ وصية بطرس الاكبر فسمت حفيدها باسم قسطنطين تذكاراً لاسم آخر قيصر من قياصر الروم . وفي المحاربات التي وقعت بيننا وبينهم على عهد اسكندر الاول ونيقولا الاول أكرهنا على أمضاء معاهدات مجحفة بحقوقنا كل الاجحاف . ولكن المحاربة التي أعلنتها الروس في أواخر عهد نقولا الاول بدعوى مفاتيح كنائس القدس الشريف لم تأت لها بفائدة تذكر فدحرت اندحاراً مبيناً حيث ان فرنسا وانكلتره اتفقتا معنا في هذه المحاربة فعجز الروس عن اظهار مقاصدها من حيز القوة الى حيز الفعل ولم تتمكن من انفاذ وصية بطرس الاكبر

اذ لم يساعد الروس على قضاء أوطارهم منا الا اتحادهم مع النصارى التي تقطن بلاد الدولة في أوروبا جنساً وديانة

والحقيقة ان دولة الروس استفادت كثيراً من اغبرار خواطر النصارى العثمانيين . ولكننا نخطئ اذا قلنا ان اغبرار خواطر النصارى هو السبب الوحيد في استفادة الروس اذ ان فقدان الانتظام في ادارة أمور دولتنا والثورات الكثيرة التى يتوالى وقوعها داخل بلادنا منذ قرون عديدة لاكبر داع الى قضاء لبانة الروس منا فقد نظرت الروس الى أحوالنا هذه نظرة خبير مقتدر وشخصت أسباب هذا الداء كما يشخص الطبيب مرض عليله . ولنراجع ماضي التاريخ كي نوضح هذه النقط التاريخية تمام الايضاح:

قلنا قبلاً ان أول حجر وضع لبناء سياسة الروس تجاه الدولة العثمانية هو الحجر الذي وضعه بطرس الاكبر وكان أساساً لهذه السياسة ولو دققنا قليلاً لوجدنا بين أسطر وصيته هذه الجملة التى أجملناها قبلاً وهي قوله : ان المال اكبر وسيلة لاستمالة الوزراء العثمانيين نحو الروس ولابد للسعي ان أمكن وراء استمالة اهل السراي حتى السلطان ذاته بهذه الوسيلة وهذا القول الذي قاله هذا القيصر المشهور في حق دولتنا كما قالت كاترينا لاحد وزرائها البرنس «ربنين» في جواب أرسلته اليه

وهي القيصرة التي حاربتنا مرتين واكرهتنا على امضاء معاهدة قاينارجه . قالت « اني آسفة جداً على وفاة السلطان مصطفى الثالث حيث كان جاهلاً وبجهله خدمنا كثيراً حتى ان نفسي تحدثني بان أدعي لاستراحة روحه في جميع كنائس الروس . وهذا الجواب كانت أرسلته اثناء المحاربة الاولى

أما في اثناء المحاربة الثانية بينما كانت تبحث عن مواد متعددة في جواب ارسلته الى سفيرها في الاستانة اذ غيرت الموضوع بغتة وقالت نسيت ان أسألك عن شيء وهو انهم يشيعون عن السلطان الجديد (سليم الثالث) اشاعات كثيرة سواء كان في اوروبا او هنا . يقولون ان هذا السلطان يحب الاصلاح ويريد ان يفعل في ملكه ما فعل بطرس الأكبر في بلاده من جلب المعلمين الاجانب وتنظيم شوءن الملك فاذا صح ما يقال فاني اوءكد عليكم ان لا تتركوا وسيلة الا وتتخذونها لتهييج الترك ضد هذه الاصلاحات واقامة العقبات في وجه السلطان حتى لا يتم ما يبتغيه والا فاذا حصل عَلَى ما يريد فانها تكون الضربة القاضية من الروس وعلى ما يضمرونه نحو هذه الدولة وان كل ما فعلناه للان ضد هذه الدولة سيذهب ادراج الرياح بلا محالة انتظر منكم

الجواب السريع على هذا

وهذان الجوابان يدلاننا تماماً على سوء قصد الروس عدوتنا الازلية فالروس قد استفادت كثيراً من جهل امتنا. واختلال ادارتنا، وفساد طباع اهل سراي سلطاننا، ومسكنتنا وتبذرينا، ورزائلنا. ومساوئنا واكبر خوفهم من ارتقاء افكار العثمانيين ووصولهم بالعلوم والمعارف الى درجة يمكنهم معها من الوقوف على اغراضهم ولم تخف هذه النقطة عن افكار ساسة الروس فاجتهدوا اجتهاداً كبيراً في عدم ادخال الاصلاحات الى البلاد العثمانية وعاكسوها بما امكنهم من الوسائل

حتى ان اتخاذهم مفاتيح كنائس القدس الشريف حجة واعلانهم الحرب علينا منذ خمس واربعين سنة لم يكن الا نتيجة الخوف الذي خالج قلوبهم مما وصلت وستصل اليه الدولة العثمانية من الارتقاء بعد الواقعة الخيرية بواسطة الرجال الصادقين للدين والدولة وقناعة الروس قناعة تامة بحصول الاصلاحات داخل البلاد العثمانية فسعوا جهدهم في ابادة الدولة العثمانية من دفتر الوجود وساروا على الطريق التي سار عليها بطرس الاكبر. ومن اكبر الدواعي لاشتداد فكر ابادة الدولة عندهم هو ازدياد نفوذ

الدولة بين المسلمين مع انتشار نفوذ الخلافة الاسلامية في جميع انحاء العالم وتعلق الاسلام والمسلمين وتمسكهم بسدة الخلافة العثمانية لان الروس اكثر الدول الغربية علاقة مع المسلمين وعلى الاخص في المحاربات وهم يعلمون مقدار تأثير الخلافة وما هي عليه من النفوذ الديني والسياسي حتى انهم جربوا هذا الامر واختبروا هذه الاحوال تماماً ولذا تراهم يجتنبون دائماً مس حقوق الخلافة الاسلامية ويرون وجوب الاستيلاء على الاستانة حتى لا يبقى للاسلام الذين هم تحت سلطتهم نقطة استناد ينظرون اليها ومن جملة الاسباب الداعية لتعرضهم للشرق هو اعتقادهم انه اذا لم يكن البحر الاسود بحيرة روسيه فان احوال بلاد الروس الاقتصاديه والتجارية تبقى عرضة للاخطار وان دولة الروس مهما تعاظم امرها فان اهلها لا تنجو من العسر والضيق كما ان جنوب دولة الروس يبقي هدفاً لتعرض الاعداء ولا بد لدفع هذه المحاذير من الاستيلاء على الاستانة · فاذا تمعن حضرات القراء في الامر ظهرت لهم افكار الروس السيئة وما تكنه صدورهم للدولة العثمانية والطرق التي يسيرون عليها في الحال والتى سيسيرون عليها في الاستقبال حيال المسئلة الشرقية ·

وعلى كل حال فان عداوة الروس لنا ظاهرة للعيان لا تحتاج الى ادني برهان ولكن مهما كان من مقاصد الروس الظاهرة او المستترة فان بعض الدول الاوروپية ترى هذه السياسة منافية لمنافعها ومقاصدها الذاتية مهما بلغ من عداوتها لنا . ولو ان كل واحدة من هذه الدول لا تقوى وحدها على محاربة الروس ولكن اتفاق دولتين او اكثر عليها كافٍ لرد مطامعها الاشعبية . حتى ان اكثر الدول الغربية اتبعت هذه السياسة الاخيرة ضد الروس وتغيرت بتغير الزمان فلم تتخل احداها عن حماية دولتنا من مخالب الروس الا وحمتها دولة اخرى .

واول من قاوم مطامع الروس في المسئلة الشرقية هي فرنسا حين حملت كاترينا حملتها المشهورة على الدولة العثمانية في العصر السابق فحاربتها فرنسا اولا بالاتفاق مع النمسا ثم وحدها فردت الروس عَلَى أعقابهم وخلصتنا من ايدي استيلائهم بعد ان تحملت خسائراً كبيرة وقد ظهرت خدمة الفرنسا وبين لنا وعلى الاخص في بدء القرن التاسع عشر حين كانت فرنسا محور الدنيا وكان نابوليون الاول قابضاً علي زمام الامور فيها فحارب الروس مراراً عديدة وتركها ولا قدرة لها عَلَى تحريك ساكن

في المسألة الشرقية بعد ان قلب عاليها سافلها . فبقيت على هذه الحال خمس عشرة عاماً في شغل دائم عن المسألة الشرقية وتركتها مدة طويلة ولكن تركها لم يكن الا اضطراراً وامراً موقتاً حيث ان الروس تعتبر المسألة الشرقية من المسائل الحيوية وهي تأمل دائماً حلها حلاً يوافق منفعتها الذاتية

حتى انها لم تسترح من متاعب الحروب الاولية الا واعلنت علينا المحاربة التي انجلت عن معاهدة ادرنه . وفي هذه المحاربة خدمت فرنسا والنمسا ايضاً دولتنا وحافظتا على تمام ملكيتها وتداخلت انكلتره ايضاً لمنفعتنا في هذه المسئلة بعد ان وقفت زمناً طويلاً على الحياد واخذت هذه المسئلة شكلاً خصوصياً بين الروس والانكليز ولم نخطئ اذا قلنا ان اختلاف هاتين الدولتين في هذه المسئلة صان ما بقي من املاكنا بعد تلك الخسائر الكثيرة . ففي محاربة القريم لم تقف الروس امام قوى الدول الثلاث المتفقة (تركيا وفرنسا وانكلترة .) بل هزمت شر هزيمة ووقعت على معاهدة باريس الذي لم ير مثل أجحافها في حقوق امة من الامم الغابره . فكان هذا الحال داعياً لتزعزع اركان تلك الدولة من

اميرها الى حقيرها تزعزعاً كاد يقوض اساسها · فبحثوا عن اسباب هذه المغلوبية بعد عقد الصلح فوجدوا اسباباً كثيرة في امور داخليتهم فاهتموا باجراء اصلاحات جديه وصرفوا همتهم في تلافي ما فات والتهيؤ الى ما هو آت ·

فاصلحوا مختل الامور وداووا معتلها في مدة عشرين سنة ونظموا جميع شعبات ادارة ملكهم وكان قيصر الروس حينئذ اسكندر الثاني رجلٌ عادل محب للاصلاح فلم تثن عزائمه كثرة العقبات التي اقامها اعدائه له في سبيل ما ابتغاه من الاصلاح وخلص اهالي بلاده البالغ عددهم خمس وسبعون مليوناً من ذل الاسارة والاستبداد وشكل نظارات الحقانية والنافعة والصناعه والتجاره داخل البلاد ودأب وراء اصلاح ملكه ولم يترك باباً الاولجه لنيل مقاصده الشريفة واسس مدارس الملكية والعسكرية من ابتدائية وعالية ووضع اساس «الاعتدال» الذي لم يسبق له في قوانين الروس مثال حتى عهده وجدد بناء العسكرية على اساس متين وسعى كثيراً في تعميم الفنون الحربية عند ضباطه والغى الامتيازات الممنوحة قبلاً للاغنياء من الاهالي واعلن المساواة بين افراد الرعية حتى احيا

بهذه الافعال ملكه ونظم ادارة الامور الداخلية احسن تنظيم فاستجمعت الروس بعد هذه الاصلاحات قواها وصوبت الى المسئلة الشرقية سهامها · فيستفاد من هذه الاحوال ان المسئلة الشرقية هي جل آمال الروس منذ عهد بطرس الاكبر الى الآن

والمسئلة الشرقيـة هي ضبط الاستانـة واتخاذها عاصمة ملكهم وضبط جميع البلاد العثمانية فرسخت هذه المسئلة في اذهانهم حتى دخلت عندهم في عداد المسائل المليه · وكلما ارتقت معارفهم وتدربت على الفنون العسكرية الحديثة جنودهم وتنورت عقول افرادهم ازدادت هذه المسئلة رسوخاً حتى في ذهن العوام منهم

ولكن عقلاء الروس الذين نشأوا سنـة ١٨٤٠ افرغوا المسئلة في قالب ابسط من الاول اذ شكلوا جمعية تدعى عندهم بجمعية « بان اسلاويزم » وهذه الجمعية لم تترك المسئلة الشرقية على حالها القديم بل فكرت في جمع شتات السلافيين وجعلهم جميعاً تحت سلطة الروس فسعت في تعميم الادبيات الروسية بينهم حتى يسهل استمالة قلوبهم نحوها كما سعت في تخليص السلافيين الذين تربطهم بها رابطة الدين والجنسيـة كالبلغار

والصرب والبوسنه والهرسك والجبل الاسود من حكم الاتراك

ولكن الروس لم تتمادى في زمن القيصر نقولا في تشويق السلافيين على شق عصا الطاعة حذر الوقوع في مشكلات خارجية ولكنها تحققت بعد محاربة القريم استحالة وقوع ما كانت تخشاه وحصولها بالهين اللين على مقصدها بواسطة هذه الجمعية فامطرت عليها من الاموال مطراً غزيراً حتى اذا ما صار لديها كثيرٌ من المال والرجال باشرت في وضع اساس الاعمال واسست جمعية أخرى في موسكو وفرقت رجالها خفية وجهاراً داخل البلاد العثمانية وما جاورها من الايالات الممتازة فكانوا يرسلون اطفال السلافيين وبعض من الرعايا العثمانيين الى بلاد الروس على نفقتهم ويعلمونهم في مدارس هذه الجمعية حتى اذا تعلموا ما يلزم لهم من العلوم لبث هذه الروح الخبيثة عادوا الى بلادهم ولدى عودتهم يؤسسون المدارس وينشرون افكار هذه الجمعية بين الاهالي فانتشرت اعضاء هذه الجمعية في جميع بلاد البلقان وكانوا يبشرون الاهالي بقرب انقاذهم من حكم الترك ويفهمونهم ان الجمعية وحكومة الروس ساعيان جهدهما في خلاصهم وان لا بد لهم من تدارك السلاح اشق

عصا الطاعة عند اللزوم وكانوا يعاونونهم ويسهلون لهم السبل في تدارك الذخائر الحربية حتى اصبحت جميع نصارى البلقان تحت امر هذه الجمعية تنتظر اقل اشاره منها لتتميم معالم الثورة في جميع الانحاء · ولهذه الجمعية جريدة كبيرة مهمة وادارة مكملة وبريد منتظم في موسكو ·

ولو ان هذه الجمعية مستقلة في امورها ولكنها كانت تستشير الحكومة عند اللزوم وتعمل باوامرها فالتحق بها كثير من كبار موظفي الحكومة الروسية وكان رؤسائها في الظاهر قاتقوف واقساقوف وجرنايف قوماندان عموم محاربة الصرب وكان اغناتيف سفير الروس في الاستانة من اعضائها وان لم يكن ظاهراً بل كان الركن الاقوى بين اركانها · وهذه اجمال احوال الدولة الروسية في اواخر سلطنة عبد العزيز بينما كانت الدولة علَى ما قدمنا قبلاً من العجز والتقصير · وكانت هذه الاحوال المتناقضة تدل دلالة واضحة على قرب حصول محاربة اشدهولاً من محاربة القريم واوخم عاقبة منها ·

سوء الادارة في اواخر عهد السلطان عبد العزيز

آل عثمان — بعض الملاحظات على تربية اولاد الاسرة المالكة — مقام الصدارة في اواخر عهد السلطان عبد العزيز — صدارة محمود نديم باشا — صدارة مدحت باشا — حسين عوني باشا وخدماته للعسكرية — احوال المالية

المعنا قبلاً ان عالي باشا توفي سنة ١٢٨٠ هجرية ويعد هذا التاريخ دوراً مهماً في عهد السلطان عبد العزيز حتى ان ظهور الحركات المغايرة من السلطان في هذا العهد كانت السبب الوحيد في وقوع فاجعة لم يرَ لها مثيل بين وقائع التاريخ العثماني من عهد بعيد وتذكير الامة بحوادث نسيت من اذهانها وسنفصل هذه الفاجعة تفصيلاً في فصل مخصوص ولكن لا بد لنا من الاتيان على سبب هذه الفاجعة ونشأتها كما انه لا بد لنا من ذكر كلمة عن تربية اولاد الاسرة الملوكية .

فنقول : ان اولاد الملوك يلقنهم الاساتذة والمعلمون منذ صغرهم انهم سيصيرون ملوكاً في المستقبل وعلى زعمهم ان الرعية التي يربو عددها على الملايين تسير تبع ارادتهم وطوع اشارتهم فلهم الامر في طرد من لا يريدون وتقريب من يحبون

وان الله خلق هذا الشعب عبيداً لهم · وبمثل هذه الخرافات وسواها كانوا يغرزون في عقول ابناء السلاطين فزادت انانيتهم وهو داء مضيع للبلاد واصبحوا ولا يخطر لهم على بال انهم انما خلقوا عبيداً امناء على الامة وانهم منتخبون منها وللافراد الحق في تولية من يريدون منهم وحرمان من لا يريدون

وكان اكثر الجميع تقرباً في هذا العصر من سلاطين آل عثمان اصحاب المحسوبية عليهم ومن عرفوهم ايام شبيبتهم من الخدم وبعض العبيد حتى ان الرجال الاكثر خدمة للدولة العثمانية ذهبوا ضحية أغراض هؤلاء الزعانف وضف الى هذا كله ان اكثر الكل تضرراً من احوال الملوك المعروفة هي شعبات ادارة الدولة ومقام الصدارة

لان رجالها كانوا اقرب الكل اختلاطاً بحكم الظروف السياسية والادارية مع السراي الملوكية

وكانت ارزاء السراي الملوكية الآنفة البيان ظاهرة تأثيراتها الوخيمة في اوائل سلطنة عبد العزيز ولكن هذا الضرر زاد زيادة لم ير لها مثيل في التاريخ حتى ذاك الحين

وفي سنة ١٢٨٨ تولى الصدارة بعد وفاة عالي باشا محمود نديم باشا المشهور ثم عزل بعد احد عشر شهراً وتولى الصدارة بعده مدحت باشا و بعد واحد وثمانين يوماً عزل المشار اليه واستلم رشدي باشا زمام الامور

ولكن ما عتم ان عزل بعد سبعة عشر يوماً وتولى اسعد باشا مهام الامور فلم يلبث ان عزل بعد واحد وستين يوماً من توليته وتربع في دستها شيرواني زاده رشدي باشا وما مكث حتى عزل بعد بضع ايام وخلفه حسين عوني باشا الذي عزل بعد ايام فعقبه اسعد باشا ثانياً فلم يلبث الا عشية او ضحاها حتى عزل وعين مكانه محمود نديم باشا ثانياً وهكذا كان السلطان يقيم في كل يوم وزارة ويسقط اخرى كما يلبس ثوباً ويقلع آخر فتقلب على منصب الصدارة ثمانية او تسعة من كبار الرجال كل منهم مرة او مرتين في مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات وشهر وايام معدودة . مع استحالة وقوع هذه الاحوال السيئة في دولة غير دولة بني عثمان

ولا خفاء ان وقوع مثل هذه الامور في ادارة الدولة ناشيء كما قدمنا من سوء تدبير من يعلّمون ملوكنا في من صغرهم كلية

«انا ملك» والملك لي ومن يعارضني فيه؟ وخرافات كهذه لا تنطبق على احكام الشرع الشريف وهي بلا شك نتيجة تلك الاعتقادات الباطلة . فبينما كان مسند الصدارة لا يعهد الا لمن يكون قادراً عَلَى القيام بخدمات مهمة من اصحاب الحمية في ايام كانت انوار العظمة تنتشر من حول هلال دولتنا الى جميع اطراف الدنيا اذ ترى هذا المنصب آل الان الى عروس تتجلى لمن يكتسب رضاء السلطان و يتخذ الحيلة وسيلة للوصول اليها من الزعانف وليس بمستغرب ان هؤلاء الكبار لم يتحملوا اصحاب الكفاءة من الموظفين فكانوا يسعون جهدهم في ابعادهم عن مركزهم فتوفقوا لقضاء مآربهم في اكثر الاوقات .

نعم انه كان يوجد كعالي باشا كثيرون من ذوي المكانة نشأوا في وظائف الدولة في ايام السلطان محمود وكذلك كان يوجد حين وفاته من هم على شاكلته في الاقتدار السياسي والاداري ومن كانت لهم رغبة شديدة في اجراء الاصلاح في امور الدولة والقادرون على اداء هذه الوظيفة . ولكن هيهات . فان السلطان عبد العزيز لم يكن هنالك ولم يبغ اعطاء هذا المنصب

لاهله بل كان يبحث عن رجل يوافق عقله و يسعى في اخراج تصوراته من حيز القول الى حيز العمل · وقد توصل الى ضالته المنشودة بتعيين محمود نديم باشا صدراً اعظماً · وكان هذا الباشا ابن رجل نال اكبر منصب في خدمات الدولة ومما يؤثر عن هذا الصدر تداخله في امور الدولة منذ الصغر ولكنه كان قصير النظر في العواقب وكانت اخلاقه وعاداته تدل على عدم اهليته لاصغر الوظائف والرتب · ولم يكن عنده من الغيرة الوطنية مقدار ذرة كما انه لم يكن ليفكر بان يحترم رأي احد بل كان بعكس ذلك لا يفكر الا في منفعته الذاتية ونيل رضى السلطان ولو كان من وراء ذلك خراب الدولة وضياع الاوطان · وخلاصة القول ان سياسته كانت مبنية على هذا الاساس وكما انه كان يشوب سمعته شيء من الكدورة كان لا يفتر ساعة عن تشويق السلطان الى سلوك هذا السبيل

وكذلك عرف باتباعه طريقة الدراويش البكتاشية في الميل الى معاشرة الخلان ومعاقرة بنت الحان · حتى ان مساوىء الامور التي حصلت في آخر عهد السلطان عبد العزيز بدأت مع تولي هذا الصدر مقام الصدارة العظمى ·

وفي عهد صدارته تمت التنقيحات العمومية التي هي عبارة عن سلم يصعد اليه للتوصل الى غاياته فطرد من ادارة الدولة بحق و بغير حق جماً غفيراً كان طردهم لمآرب شخصية في اكثر الاحوال وكان بين من طردوا رجالاً خدموا الدولة بالصدق والامانة مدة تزيد عن ثلاثين او اربعين سنة و بينهم جماعة عاجزون عن بلوغ قوتهم بدون التوظف ولو ان نتيجة هذه التنقيحات كانت عائدة الى الخزينة بفائدة لما حق لنا ان نقول شيئاً ولكن نتيجة التنقيحات المالية أعطيت في الحال الى المقربين من اهل السراي الذين تربو رواتبهم على الكثيرين من الموظفين . فكان مقدار ما زيد عَلى رواتبهم يربو على رواتب اولئك الذين عزلوا بقصد التوفير .

ومن جملة مساوىء صدارة محمود باشا اعطاء امتياز سكة حديد الروملي (للبارون هرش) السرسي النمساوي الشهير بشروط مجحفة بحقوق الدولة كل الاجحاف و بصورة لم يسبق لها مثيل وبهذه الوسيلة أخذ الصدر الاعظم وحشرات السراي وتوابعهم من الشركة الالوف المؤلفة من الدراهم بصفة رشوة ومهما كان عليه السلطان عبد العزيز من محبته لمحمود باشا حيث

كان اطوع له من بنانه ولم يتعرض لتسفيه رأيه في امر من الامور ولكن بغض الاهالي له وعدم ملائمة الظروف اضطرت السلطان عبد العزيز الى عزله وتعيين مدحت باشا المشهور مكانه وهو تعيين لم يكن اختيارياً بل كان اضطراراً بعد ان بلغ السيل الربى

وكان مدحت باشا لا يتجاوز الخمسين سنة من سنيه وقد أرتقى من اصغر وظيفة في الدولة الى أعلاها بجده واجتهاده وبلا التماس ارتقى الى رتبة الوزراء في اوائل عهد السلطان عبد العزيز. وكانت الاصلاحات التي اجراها في ولاية الطونه اثناء توليته عليها باعثة الى اشتهاره ودليلاً كافياً على كفاءته وقد اوضحنا قبلاً ان الروس لم يتركوا فرصة الا وانتهزوها ليستفيدوا من اختلال الاحوال في داخلية الدولة العثمانية وكان لهم في أغلب الاوقات الحظ الاوفر في تحريك سواكن الفتن . فلما كان مدحت باشا والياً في الروم ايلي كان الروس يزرعون بذور الشقاق بين العناصر المختلفة القاطنة هنالك وكانت على الاخص تحرض البلغار على شق عصا الطاعة كي تستثمر من هذا الحال رطباً جنياً . وبعد ان اخذ مدحت باشا على عاتقه تلك الوظيفة المهمة

اظهر في بادئ الامر للروس انه كمن سبقه من الولاة الاتراك لا يبدي اقل حراكاً ولا يملك ادنى ادراك ولكنه كان في ذاك الحين يبحث خفية عن منبع الفساد وكل من لهم علاقة به

وقد ظفر بما امل فأظهر مخبئات الامور بصورة لم يبق معها للروس اقل انكار و بعد ان حاكم جواسيس الروس وارباب الفساد منهم محاكمة اصولية وعاقبهم عقاباً جعلهم عبرة لمن اعتبر انتقل الى اعضاء جمعية الفساد من البلغار فحاكمهم ايضاً محاكمة اصولية وشنق بعضهم على مرأى من قناصل الروس والدول الاخرى حتى ان جميع مطبوعات اوروبا رقصت عجباً وصفقت طرباً لجرأة هذا الرجل الغيور والبطل الجسور وقد ضرب الامن اطنابه في جميع انحاء الولاية ببرهة قصيرة

ولما رأى الروس عجزهم عن اتمام امانيهم لوجود مدحت باشا والياً على الطونه سعوا وراء عزله من هذه الولاية وتداخلوا مع السراي و بعد بذل الجهد توفقوا لعزل المشار اليه و بعد ايام عين مدحت باشا والياً على بغداد وكانت امور تلك الولايـة حينذاك في اختباط لا مزيد عليه ولكنه تمكن من اعادة نظامها

وقطع دابر الاشياء منها في مدة قصيرة وادب قبائل العرب النازلين فيها واجبرهم على الرضوخ والطاعة واسس شركة بواخر تسير في نهر الفرات واوجد طرق التجارة في هذه الولاية الخصبة وخلاصة القول انه غير احوالها العمومية ورقاها من كل وجه وكان مدحت باشا زهرة وزراء ذاك الزمان بمقدرته الغريبه ولذا كان الكل ينتظر منه أعظم الخدم للأمة والدولة

ولا شك في انه كان عارفاً هذه الجهة اكثر من الجميع حتى انه كان يستنشق اخبار الاحوال الجارية في عاصمة الملك بينما كان والياً في بغداد · ولم يطرق اذنه خبر وفاة عالي باشا حتى وضع نصب عينيه الذهاب الى الاستانة ولكن سبق السيف العذل وعين محمود نديم باشا صدراً اعظماً · ولما كان مدحت باشا عالماً باحوال هذا الرجل موقناً انه لو بقي مدة في منصب الصدارة لآلت احوال الدولة الى ما لا تحمد عقباه فبذل كل جهده في عزل محمود نديم باشا وبعد ان خبر الاحوال العمومية جيداً قصد الاستانة بدون استئذان ولم يثنه عن عزمه صدور الاوامر العالية برجوعه الى بغداد ولم يعبأ بها بل ظل سائراً بعد ان ابدى معذرة كبيرة وعند وصوله الاستانة ذهب

توًا الى المابين وفعل ما فعل حتى عين في منصب الصدارة بعد
احد عشر شهرًا من وفاة عالي باشا وهكذا صار مدحت باشا
صدراً اعظماً ولكن ما الفائدة اذ لم تدم صدارته كثيراً لان
وزراء ذلك الزمان جميعهم يخافونه ويخشون بطشه ويحسدونه على ماله
من النفوذ والمقدره ولذا كانوا يسعون جهدهم وراء اسقاطه
من هذا المنصب ويشون به للمابين حتى تمكنوا من عزله بعد
واحد وثمانين يوماً ولم يروا من الصواب ابقاءه في الاستانه
فابعدوه عنها ولكن لم تدم مدة هذا النفي كثيراً حتى عاد اليها
ولم يكن من خلفه في الصدارة كرشدي واسعد باشا عديمي
الكفاءة والمقدرة حتى انهم لو منحوا حرية التصرف في الامور لخدموا
الدولة والملة خدمات كبيرة ولكن لم يسع احدهم في اجراء شيء
حتى كنت ترى الواحد منهم كما قدمنا يسقط من صدارته في
اقل من لمح البصر بارادة تصدر من السراي حتى انه كثيراً ما كان
النفي نصيبهم دون ان يجنوا ذنباً سوى انهم ارادوا خدمة الدولة
واصلاح الملك وهكذا كانت تدور دائرة المساوئ في الدولة ولم
يقدر احد ان يفوه ببنت شفه

ولم يكن عدم اتمام شيء من امور النافعة (١) في الدولة ناشئاً عن ندرة وجود ذوي الكفاءة او قلتهم بين الوزراء بل كان ناشئاً عن سوء تصرف اهل السراي والامر واضح للعيان لا يحتاج الى دليل او برهان حتى ان قبض حسين عوني باشا على زمام نظارة الحربية في اكثر الاوقات وسعيه في تنظيم الجندية اكبر دليل على ما قدمناه ٠ اما حسين عوني باشا فولد في اسبارطه وتعلم العلوم الشرعية والعربية فيها ودخل المدرسة الحربية في بدء تأسيسها وبعد دخوله فيها بسنوات قليلة تخرج منها حائزاً لرتبة يوزباشي من صنف الاركان حرب وهو في الثلاثين من عمره وعين في المعسكر الخاص ٠ وارتقى تدريجاً حتى نال بجده واجتهاده وفرط ذكائه رتبة المشيرية في زمن قليل وعند ظهور الثورة في كريد سنة ١٨٦٥ عين المشار اليه في معية السردار عمر باشا اولاً ثم استقل بالامر واظهر في اخماد الثورة من ضروب الكفائة ما اوصله

---

(١) النافعة كلمة تشمل مصلحة اصلاح الطرق ومد الخطوط الحديدية في بلاد الدولة العثمانية ولها نظارة مخصوصة تسمى بنظارة النافعة

الى رتبة ناظر الحربية · ولكنه نفي بعد وفاة عالي باشا عقاباً على معارضته لاعمال صدارة محمود نديم فاتخذ اهل السراى عليه لما لهم من العلائق مع هذا الصدر ونفوه الى اسپارطه ولم يمض زمن حتي عزل محمود نديم باشا وتولى الصدارة اسعد باشا ولعلمه بشدة الحاجة الى حسين عوني باشا اعاده الى الاستانة وادناه منه وعينه ناظراً للحربية وبعد برهة قصيرة عين للصدارة العظمى

ولم يثبت هذا زمناً طويلاً حتى عزل منها كما عزل من نظارة الحربية بما استعمل سفير الروس « اغناتيف » من الوسائل المؤثرة ضد هذا الرجل الغيور اذ كان لهذا السفير في ادارة الدولة نفوذ كبير · فابعد عن الاستانة وعين والياً على بروسه وبعد زمن عين ناظراً للحربية بعد ان رأوا شدة الحاجة اليه ولنترك الان تفصيل احوال عوني باشا ونتكلم قليلا عما اتاه من الخدم الجلية في ادارة الجندية العثمانية مدة تقلبه في مراتب الوزارة :

اول سعي سعته الحكومة في اصلاح الجندية هو اهتمامها بتحسين احوال الطوبجية فجهزتها بمدافع كروب من الطراز

الاخير وانتقت لها احسن الخيول واكثرها صبراً على تحمل عبئها الثقيل كما انتقت لها احسن الضباط علماً واقدرهم عملا

وارتقى صنف الاستحكام كما ارتقت الطوبجية واسست عدة مستشفيات في مراكز المعسكرات ولكن ظهور بعض النواقص فيها (كعدم وجود المستشفيات السيارة) نشأ عنها حصول اضرار عديدة اثناء حرب الروس الاخير وانتقت للبس العساكر احسن لباس اذ استبدلت الجاكت القصير والبانطلون الواسع بستره وبانطلون ضيق حتى صار جندنا يشبهون جند اوروبا زيا وهنداما . ومن اكبر اصلاحات هذا الزمان تسليح افراد الجنود ببنادق مارتين التى كانت اشهر سلاح في الدنيا والتي كانت تصنع في ذاك العصر في معامل اميركا .
واحدثوا ايضا صندوق التقاعد العسكري بقصد اعانة ايتام وارامل الضباط الذين يستشهدون في الوقائع ومن اعتل منهم اوعجز عن كسب قوته ولم تكن هذه المحسنات التى ذكرناها الان عبارة عن كل الخدم التي اجراها بل انتقى من ضباط الجيش (انما من يعرف الفضل ذووه) كل من حباه الله بالذكاء المفرط ورقاه اعلى المراتب وهكذا

اعطى القوس باريها وفتح طريق الارتقاء لذوي الاستحقاق حتى
نشأ بين ضباطنا كثير من الرجال الذين يعرفون كيف يخدمون
اوطانهم فابلوا في محاربة الروس بلاء حسناً حتى انهم كانو سبباً
في انتصار جنود الدولة على الاعداء في عدة مواقع فحافظت
بها الدولة على مكانتها وشرفها العسكري . ومع هذا فان الاصلاح
في قسم واحد من اقسام ادارة الدولة لا يفيد شيئاً مهما بلغت
درجته بل كان يجب تعميمه في جميع دوائر الدولة وتنظيم
امور كل منها وتعيين الطرق التي يجب ان تسير عليها وراء
الاصلاح والا ذهبت كل هذه الاتعاب ادراج الرياح . ولم تات
باقل ثمرة ونظارة البحرية العثمانية اكبر شاهد على صحة ما نقول .
فان وجد شيء التفت اليه تمام الالتفات في اواخر عهد السلطان
عبد العزيز فهو اعلاء شأن البحرية وايصالها الى درجة تضاهي بها
احسن قوة بحرية من الدرجة الثالثة في الاستعداد بين قوات
الدول البحرية فكان مجموع ما عندنا من القوة البحرية خمس وعشرين
مدرعة بين كبيرة وصغيرة عدا ما كان لدينا من السفن النقالة
الكثيرة العدد ، فكانت هذه القوة كافية الى دول كثيرة
اخصها بحرية دولة الروس ولكن هذه القوة لا تفي بالغرض

المقصود طالما انها لم تبن علَى اسس متينه وكانت محرومة من رجال اكفاء يديرون حركتها لان القوة البحرية مهما كانت عليه من كثرة العدد والعدد فما هي الا طيف زائل ان لم يكن لها من القوة الادبية ما يضمن لها البقاء ودوام الارتقاء ولو صرف في سبيل تحصيل الفنون البحرية ما صرف على احدى هذه الدوارع من المبالغ الجسيمة لكانت فوائدها اعم ونتائجها اهم ولأَبلت في محاربة الروس البلاء الحسن بدلاً من ان تبقى بمثابة العوبة .

اما المالية وما ادراك ما المالية ان هي الا صناديق خالية خاوية وقد قدمنا قبلا ان القروض قد بدأَت منذ عهد السلطان عبد المجيد فوصلت في هذا العهد الديون الخارجية الى العشر ملايين وكانت الديون الداخلية ايضاً بهذا المقدار فكان مجموع القروض يزيد يوماً عن يوم في ايام سلطنة السلطان عبد العزيز حتى انهم كانوا لا يفكرون في سد العجز ولا يرون وسيلة لها احسن من القرض حتى صار هذا العمل عندهم دواء لكل داء

وعند مطالعة الميزانية التي سنأتي عليها يظهر صدق قولنا

باجلى بيان نخين وفاة السلطان عبدالمجيد كان مجموع الديون ثلثمائة وخمسة وسبعين مليوناً من الفرنكات وفوائدها خمسة عشر مليوناً من الفرنكات وقسط الدين السنوي ثمانية ملايين فرنك وهذا هو جدول المبالغ التي اقترضتها الدولة في عهد السلطان عبد العزيز

فرنك	تاريخ القرض
٢٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٧٩
١٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٨٠
٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٨١
٩٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٨٢
١٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٨٣
١٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٨٥
٥٥٥ر٦٠٠ر٠٠٠	١٢٨٦
٧٩٣ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٨٧
١٤٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٨٨
٢٧٨ر٢٠٠ر٠٠٠	١٢٨٩
٦٩٤ر٨٠٠ر٠٠٠	١٢٩٠
٤ر٥٧١ر٨٠٠ر٠٠٠	مجموع القروض في ظرف احدي عشر سنة

وهذا المجموع هو عبارة عن المقادير المقيدة في الاوراق التي اعطتها الدولة العلية للاجانب وان لم تكن جميع ما اخذ منهم . والسبب في ذلك هو انهم كانوا اذا عقدوا قرضاً بعشرين مليون جنيه ينزلون منه مبلغاً كبيراً بعد حساب كثير ولم يدخل الخزينة منه الا نصف القيمة المأخوذة او ربعها . ومن هذا يستفاد ان الدولة العلية لم تمر عليها سنة دون ان تعقد فيها قرضاً طول مدة سلطنة السلطان عبد العزيز وقد هال امر هذا المجموع المتمولين من الاجانب فامتنعوا عن اعطاء الدولة ما تحتاجه من الاموال بلا ضمانة اليها . ولما لم يبق اخيراً شيء يعطى لهم كضمانة لسلب اموالهم سدت ابواب القروض في وجه الدولة فعمد اولياء الامور لايجاد وسائل لعقد القروض فتوفقوا اخيراً لحل هذه العقدة باقناع المتمولين انهم سينشئون السكك الحديدية في جميع انحاء السلطنة وان الاموال ستنفق عليها فظفروا اخيراً بما املوا اذ خدع الاجانب بهذه الظواهر وعقدوا مع الدولة عدة قروض اخر . ولكن ذهبت هذه الاموال كما ذهب غيرها هدراً ولم يظهر لها وجود ولا اثر اللهم الا ما اشتروه من بنادق مارتين التي تصنع في اميركا فقد

ابتاعوا منها بضع مئات الوف ومدوا تسعين كيلو متراً من السكة الحديدية بين حيدر باشا وازميد ولم يقصدوا منها الا ذر الرماد في اعين المتمولين من اجانب ووطنيين وقد اعلنت جرائد اوروبا هذه الحيلة ونادت بالويل والثبور حتى لم يبق للدولة اقل ثقة عند الاجانب وامتنع الكل عن اعطائها المال فقل اعتبارها ودخل في عداد اهل القبور ففي سنة ١٢٩١ ﻫ كانت ديون الدولة الخارجية تتراوح بين المائتي وخمسين مليون جنيه عثماني وكانت قيمة الاوراق الماليه بهذا المقدار حتى كانت واردات خزينة الدولة تصرف على فوائد هذه الديون

وفي سنة ١٢٩٢ تولى سعيد باشا منصب الصدارة وعقد مجلسا خاصاً للاستشارة في ما ستئول اليه عاقبة هذه الاحوال فلم ينتج من عقد هذا المجلس الا زياده الخلل في الامور ولكنهم اعلنوا بعدئذ عزمهم على دفع نصف قيمة الاوراق المالية والقروض فاخفقوا سعياً وباتت خزينة الدولة علَى وشك الافلاس بعد ان رأوا ان ليس لهم عن الدفع مناص . هذا ملخص ما كانت عليه الدولة في اواخر سلطنة السلطان عبد العزيز ولا بد من عطف النظر على الجهات

الاخرى كي لا يبقى شيء مختبئ تحت ستار الخفاء وسنفصل هذه الاحوال فيما بعد تفصيلاً ٠

ـ ٠ السراي وسفارة الروس ٠ ـ

الوزراء العثمانيون في دور الانحطاط — الجنرال اغناتيف سفير الروس — اختلاط محمود نديم باشا به = ميل السلطان عبد العزيز الى سياسة الروس — مسئلة تبديل الوراثة — بعض آراء السلطان بها — علاقة الجنرال اغناتيف بمسئلة الوراثة — دسائس الجنرال اغناتيف — كنائس الروم والبلغار ٠ ـ

اول ما يقف النظر عنده حائراً وجود امرين متناقضين في الطبقات العليا من ادارة الدولة في زمن كهذا توالت علينا نكباته واودت بحياتنا مصائبه وضرباته نظراً لمساوئ اعمال رجالنا وقلة تدبيرهم واختلافهم في الراي فالامر الاول الجنوح الى اتباع راي الانكليز والفرنساويين « الذين ثبت بالتوالي شدة ميلهم الينا وتخليصهم ملكنا من مخالب اعدائنا » والسير بنا في طريق اصلاح الملك وتنظيمه ونشر اعلام العدالة داخل اقاليمه ٠

والامر الثاني مغاير للاول تماماً اذ يقضي باتباع سياسة الروس بعدم ادخال الاصلاحات في البلاد العثمانية وحرمان اهليها

من نور العلوم والمعارف والاعتراف للروس بالسيادة « باطناً ان لم تكن ظاهراً » على دولة آل عثمان والاعتماد عليها عند مسيس الحاجة

ومن الجلي الواضح ان الاول يحي الدولة وينهض بها من حضيض الذل والهوان والثاني يحتم عليها بالتغافل عن اجراء الاصلاحات والتزام التكاسل والاستسلام للاعداء وقد بدأت هذه الافكار تظهر في اواخر سلطنة السلطان عبد العزيز فبعد الواقعة الخيرية بدأت منافع الملك تناقض منافع الملوك عندنا وابتعادهما عن بعضهما بالرغم عن رجوع هذه الفروع الى اصل واحد وقد اظهر كل من رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا الوزراء الصادقون ضرورة اصلاح الملك واتباع خطة الدول المتمدنة فيه وان لا بد من تضحية مصالح الملوك مهما كانت درجتها واصروا على هذا الامر فأبى اهل السراي الا ان يستبدوا بادارة الملك حتى بعد الواقعة الخيرية التي كانت حداً فاصلاً بين الاستبداد والعدل والانصاف . وقد اخذ حب الكبر والعظمة والمباهات بمجامع قلوب سلاطيننا حتى اصبحوا لا يفكرون في المحافظة على ملك ورثوه عن اجدادهم والذي سفكت

عليه دماء جنودهم وافرغت في الاستيلاء عليه خزائن اموالهم كما لم يفكروا في مستقبل الدولة والأمة واصلاح شأن الاسلام بل حصروا جل عنايتهم في مقاومة الوزراء القادرين ومنعهم من اظهار آرائهم الحسنة فكانوا يصبون عليهم العذاب الاليم كي لا تنتقل العدوى وتعم البلوى . وقد صان هوءلاء الرجال اصحاب الهمم العالية حقوق الدولة مدة حياتهم حتى عجز الروس عن اظهار مقاصدهم الى خير العمل ولكن ما الفائدة اذ لم تأفل شمس حياة هوءلاء الاعاظم الذين ارسلوا لحفظ الملك كملائكة موكلين بحفظه حتى اخذت دسائس الروس كل مأخذ من داخلية الدولة فدسوا الدسائس واخذوا يداهمون بخيلهم ورجلهم بلادنا التي بقيت امامهم بلا صاحب ومن جهة اخرى لم يدخروا وسعاً في اتخاذ الوسائل الموثرة لاستمالة الوزراء العثمانيين نحوهم فاظهروا براعتهم في هذا الوقت المناسب اذ كان لهم ميدان فسيح يجولون به جولة الاسد الغالب فاستمالوا محمود نديموف [1]

---

(١) يضاف الى آخر كل اسم من اسماء الروس حرفي (وف) فاذا كان اسمه حسن يكتب باللغة الروسية (حسنوف) او نديم نديموف وقول حضرة المؤلف نديموف عبارة عن اظهار شدة تمسك هذا الرجل بسياسة الروس

وشركاءه من اهل السراي بما بذلوه من الدراهم في هذا السبيل كما تزلفوا للسلطان واشبعوا اذنيه الصاغيتين باقوال ملؤها التملق والتزلف وهي التي امكن بها ان يستميلوه نحوهم وكلها تطرب آذان ذوي التيجان بسماعها كقولهم له :

ان هذا الملك حق سيف آل عثمان ، وحقوق الملوك مقدسة ، فصدور الخطأ منهم امر محال ، وما الرعايا الاخدم ارادتهم يطيعون ما يشيرون به ، هكذا الملوك والا فاصلاح الملك ونشر المعارف بين الاهالي لا ينتج الا ادراك الاهالي معنى حقوقهم ولا يلبث ان تظهر عواقبه الوخيمة ، ولا يغرنكم سعى وزرائكم المشهورون ، كرشيد وفؤاد وعالي باشا ، اذ لم يكن سعيهم الا للامة وليس لذاتكم فهؤلاء اتخذوا خدمتهم للوطن سلماً يتوصلون به الى اعلاء نفوذهم في الخارج والداخل ، وهو امر يحط بقدر جلالتكم ، فلا يغيب عن ذاكرة جلالتكم ان الملوك لا يقبلون شريكاً في ملكهم ، فاذا منعكم مانع عن اجراء ما تبتغونه فروسيا التي هي الصديق الحميم لآل عثمان تعد معاونتها لهم من اقدس الوظائف عندها –

وبهذه الاقوال تمكنوا من دس السم في الدسم للدولة

ونالوا ما يبتغونه من الآمال الدنيئة · اما تفصيل الاحوال : فهي ان كل من الدول الكبرى كانت تدير امور الدولة كما تشتهي منذ أخذت دولتنا بالانحطاط اسيء منذ عقدت معاهدة ، قارلوفجه ، فكانوا يفعلون ما يريدون بواسطة سفرائهم المقيمين في الاستانة ولا راد لامرهم ولا من يناقشهم حساباً او يرد لهم جواباً فالامر امرهم والراي رايهم في كل مصيبة ألمت بالدولة فكانت هذه الاحوال داعية لسقوط الدولة وكل وزرائنا ينظرون اليها ولا يجرأون على التفوه ببنت شفه · فأخذ النفاق والفساد وسوق الاخلاق مأخذه من الدولة في هذا الدور الاخير حتى عدت ولا ترى كبيراً او صغيراً اميراً او حقيراً سلطاناً او وزيراً الا وقد جعل هذه السخافات منتهى آماله ومطمح انظاره مع ان كلاً من هذه الامور كان يكفي لاسقاط اقوى دولة من قمة مجدها وتشتيت شمل اكبر أمة مهما عظم شأنها فهذا الانحطاط الممتزج بفساد الاخلاق انسى مأموري الدولة حقوق وظائفهم فكانوا لا يفكرون في سوى منافعهم الذاتية ولو كان من ورائها محو الدولة واضمحلالها الى ان وصل الذل ودنائة النفس عندهم الى درجة كانوا لا يستحقون معها من

مد يدهم الى الاجانب وتناول الرشوة منهم اثناء معاملاتنا مع الدول الاجنبية فكانوا يعدون بيع حقوق الدولة ومنافعها للاجانب على رؤوس الاشهاد من الامور العادية وبمثل هذه الاحوال اوقعوا الدولة في حفرة الذل والهوان

ولو قلبت التاريخ العثماني من مبدأه الى منتهاه لما رأيت حرفاً واحداً مما كتبناه بل هو مأخوذ عن التقارير الرسمية التي حفظت عند الدول ذات العلائق الكبرى مع الدولة العثمانية وبعد ان بقيت زمناً طويلاً في عالم الخفاء والكتمان ٠ أظهرتها تلك الدول اذ لم تر من حفظها ادنى فائدة وهذه الاوراق وحدها كافية لأثبات تلك الجرائم وكان للروس مداخلة كبيرة مع كل من عرف من رجال الدولة بسعيه في بيع حقوقها اذ كان لها من عهد بطرس الاكبر بين وزرائنا اصدقاء واحباء مستترون تحت ذيل الخفاء وكان لهم عليها رواتباً معلومة واثبات هذا الامر لا يحتاج الى بحث وعناء حتى ان بطرس الاكبر أوصى رجاله باتباع هذه الخطة في وصيته المشهورة اذ لم يتخلص من تلك المحاصرة المشئومة التي حاصره بها « البالطه جي محمد باشا » على نهر « البروت » الا بالاصفر الرنان بعد ان يئس

من النجاة من بحدالسنان ولا بد ان هـذه الواقعة هي التي كانت سببًا في توصية اخلافه استعمال الدرهم عند الوزراء العثمانيين ·

وعليه جعل الروس اس سياستهم من ذاك الحين بـذل الدرهم سواء كان في الامور السياسية او اثناء المحاربات ولنأتي لك ببرهان عَلَى صحة اقوالنا هذه وهو ان الروس انفسهم لا ينكرون انهم لم يستولوا عَلَى قلعة «وارنه» في محاربة ١٨٢٨ الا بقوة الدينار · وصفوة القول ان نفوذ الدول قد ازداد في الاستانة زيادة تذكر بعد الواقعة الخيرية بينما كانت احوال الدولة سائرة من رديء الى اردأ · ولكن الروس لم يكسبوا شيئًا من النفوذ داخل الدولة حتى اواخر سلطنة السلطان عبد العزيز حيث كان يشغل منصب الصدارة اذ ذاك رجال عرفوا آماني الروس ودخائلهم حق المعرفة كرشيد باشا ، وعلي باشا ، وفؤاد باشا وهم رجال قلّ ان يأتي الزمان بمثلهم · رجال عرفوا كيف يخدمون اوطانهم ويصونون حقوق دولتهم ولم يكونوا ممن يرتكبون جريمة بيع الوطن الى اعدائهم بابخس الاثمان فحافظوا عَلَى ولاء الانكليز والفرنساويين الذين لا هم لهم الا بقاء دولتنا مشيدة الاركان وقد توصلوا بمحافظتهم على ولائهما لدفع غائلة محاربة القريم ولكن

من يطالع الاوراق السياسية في ذاك الحين ير ان اللورد، رادقليف، سفير الانكليز كان يعامل الوزراء العثمانيين معاملة لا تقلّ عن معاملة السيد لخادمه بعد هذه المحاربة كما ازداد نفوذ فرنسا في الاستانة ايضاً على عهد نابوليون الثالث اذ كان عالي باشا وسيلة في ازدياد هذا النفوذ ودام هذا الحال حتى سقوط نابوليون المذكور

عين الجنرال اغناتيف سفيراً للروس في الاستانة قبل وفاة عالي باشا بعدة سنولت وكان المشار اليه سليلاً لاحدى العائلات الشهيرة وقد بلغ ابواه أعلى المراتب في دولة الروس ورأس المجلس مراراً فتقلد ، اغناتيف ، وظائف سياسية مهمة وهو في سن الشبوبة لما عرف عنه من الذكاء المفرط . فكان قبل وفاة عالي باشا باربع سنوات سفيراً للروس في « پكين » [1] ثم عين سفيراً هنا في الاستانة وهو سياسي محنك لا يختلف في دربته اثنان كيف لا وهو الذي كان من اكبر العوامل على ترويج سياسة الروس في الشرق الادنى وكان لا يجتنب اتخاذ ادنى الوسائل في سبيل الوصول لهذه الغاية ولكنه لم يجرأ على اظهار ما يكنه

---

(١) عاصمة الصين

صدره من سوء النية وعالي باشا قابض على زمام الامور . فبقي ساكناً لا يبدي اقل حراك ومع هذا كان طول هذه المدة يتعقب اخبار الدولة والامعان في احوالها الداخلية وعلى الاخص منها أحوال السراي فحكم بعد طول البحث والتنقيب على قرب وقوع الدولة في ارتباك كبير والذي أيد هذا الحكم عنده سوء أحوال السلطان وعدم اهتمامه بالدولة والدين وقد تاكد السفير ان انقياد السلطان لعالي باشا وخوفه من تهديده له بعض الاوقات هو اكبر رادع لجلالة السلطان عن اظهار مساويه وانه لو قبض على دفة سياسة الدولة لسطا عليها سطوة تقل بجانبها سطوة العدد ولمزق شملها كل ممزق فداء غاياته الدنيئة فلما توفى عالي باشا في سنة ١٢٨٧ هـ وتولى محمود نديم باشا منصب الصدارة كان السلطان كطفل تخلص من ربق نظارة أب شديد النفوذ عليه فانقاد الى اهوائه الذميمة بكل قواه وحيئذٍ علم «اغناتيف» اصابته كبد الصواب في ما ظنه بالسلطان وعلم ان الوقت لانتهاز الفرصة قد حان

اما محمود نديم باشا فهو رجل لا يجتنب ارتكاب اعظم الرذائل التي لا يتدانى لارتكابها اخس الناس طينة وأدناهم

طبيعة ولو ان اعظم قاتل في الدنيا سيق الى احدى الامور التي يرتكبها لما طاوعه ضميره على ارتكاب ادناها ولهان عليه الموت دون اجراها فلم يكن عنده من حب الوطن مقدار ذرة ولذا لم يتردد في تسليم امور الملك الى سفير دولة الروس التي هي الد الاعداء لنا مقابل منفعته الشخصية بدون ان يحس باقل عذاب وجداني بعد ارتكابه جناية عظيمة كهذه حتى خيل للرائي ان سفارة الروس هي الباب العالي او نقل اليها

قلنا سابقاً ان جميع من تولوا الصدارة عندنا لم ينتهجوا منهجاً خاصاً بل كان لكل منهم وجهة تتجه نحو سياسة احدى الدول فبناء عليه لا يعد ميل محمود نديم باشا من غرائب الامور ولكن لم يرَ التاريخ العثماني في جميع ادواره رجلاً كنديم باشا جعل نفسه اسيراً لدولة من الدول اذ كان هذا شاذاً بينهم فعدَّ نفسه مأموراً روسيا واسيراً لسفيرها وحكومته حكومة القيصر لا حكومة السلطان وهو امر لا يمكن تصوره ولم يكن لهذه الخيانة مثيل عند وزير من الوزراء او دنيء من الادنياء في اي زمان كان . حتى كانت امور الادارة الداخلية كعزل المأمورين وتعيينهم برأي « اغناتيف » فبلغ من مداخلة هذا السفير

١٢ ولو اردت ارسها ب في محاكمة هذه القول
لوجدت الجمل متشابهاً وحسبه انه استشهد
بقول المؤلف انه مثل امثاله

انه كان يعزل من لا يريد ويعين من يريد وهي قوة لم يبلغ شأوها احد من السفراء حتى الآن

ومن ارذل الرذائل ان السلطان كان لا يسمع في محمود نديم باشا قولاً بالرغم عن بلوغ شكوى الاهالي منه عنان السماء ولا يخشى في حبه لومة لائم . فكان يعزله كلما ضجت الاهالي منه ولم يلبث حتى يعينه ثانياً في (السفارة) الصدارة بعد ان يسكن ضجيجهم . فهذه النقطة كافية لاثبات اشتراك السلطان معه في هذه الجنايات وهي ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار بل هي الحقيقة بعينها فلولا اشتراك السلطان مع هذا اللئيم الغدار لما تمكن من اجراء جزء من هذه الخبائث مهما بلغت درجة خيانته ولما اقدم عليها والا نال العقاب الشديد قبل ان يتمكن من احداث احدى هذه الجرائم وضرب على يده بعصا من حديد . وكان اغناتيف قد خابر حكومته بعد وفاة عالي باشا بلزوم المال ليصرف على ما يلزم اجراؤه في الاستانة اذا كان هناك ثمت من امر واجب الاجراء مظهراً لها لزوم فتح اعتماد غير محدود ليصرف الاموال جزافاً في هذا السبيل فنال بغيته

اما طريق صرف هذه الاموال فهو ينحصر في استخدام عدد من الجراسيس واعطاء رواتب وهدايا كافية وافية لنديم باشا ورضا باشا ومن كان على شاكلتهم من الوزراء مقابل استيلائهم عَلَى البلاد العثمانية · واظهاره هذه الاسباب الداعية لصرفه الاموال تظهر درجة تلاعب هوءلاء الخبثاء ومقدار دنائتهم التي سودوا بها صحائف التاريخ العثماني · والذي يخجل القلم عن كتابته ان هذا الوغد لوث معه سمعة ربة الصون والعفاف من نحترم ذكر اسمها ونجله بافعاله فكانت (والقلب ينفطر حزناً عند كتابة هذه الامور) تعرف غاية الروس من هذه الهدايا الثمينة والاموال الطائلة الذين كانوا يقدمونها لها بواسطة نديموف وتأخذها عن انشراح صدر وطيب خاطر · وهكذا استمال « اغناتيف » صاحبة النفوذ الاكبر في السراي لسياسة الروس بهذه الهدايا ولكن خدمة ما دام « اغناتيف » في هذه الموفقيات كبيرة حتى ان علائق هذه السيدة معها زادت زيادة عظيمة [1]

---

(١) وهو الامر الذي نوه به حضرة الموءلف في مقدمته من عدم وجود معلومات رسمية في اسفار التاريخ العثماني يستعان بها على تدوين هذه الواقعة تدوينا خاليا عن كل غلط وشطط ولا نخطيء اذا

وكان السلطان عبد العزيز حريصاً على سرير الملك حرصه على حياته فاراد ان يبدل اصول الوراثة ليجعل نجله ، يوسف عز الدين ، خلفاً له ووارثاً لسرير آل عثمان ولم تكن توليته لمحمود نديم باشا منصب الصداره مراراً عديدة الا لثقته به وعلمه علم اليقين اجتهاد المذكور معه في اتمام هذه الامنية وموافقته لرأيه كل الموافقة . ولما كانت مسئلة الوراثة مسئلة خطيرة وجب علينا ان نعلق عليها بعض ملاحظاتنا :

قلنا انها السبب الوحيد في بقاء التقارير التي رفعتها سفراء الدول في الاستانة الى حكوماتهم محفوظة طي الخفاء وعدم ظهورها يورث المؤرخ كثيراً من التعب والعناء فالدسائس التي دسها اغناتيف في بلاد الروم ايلى والاستانة ونجمت عنها محاربة الروس مع الدولة العلية وانحلت عن معاهدة برلين بعد ان مزقت الدول معاهدة (سان استفانو) اغاظت الروس وكدرت كاس صفوهم بعد ان جعلت انتصارهم في خبر كان . فكانوا ساخطين على من كان سبباً في هذه المحاربة وانزلوا عليه اللعنات كالوابل الهطال وكان اغناتيف اكثر الكل هدفاً لسهام تنديد قومه فباء بغضب منهم حتى اصبح لا يقدر على مقابلة اقل فرد من ابناء جنسه فشنعت عليه أعداؤه وتمادوا في اتهامه بسرقة الاموال الطائلة التي خصصت للوزراء العثمانيين قصد استمالتهم واتخذوا سوء المنقلب هذا دليلا على خيانته ففرغت جعبة صبره « ينسب اغناتيف لعائلة روسية من اغنى عائلات الروس » فطلب من القيصر اسكندر

منبعث هذا الفكر جماعة الحريم فسعين جهدهن في
اخراجه الى حيز الفعل منذ عهد عالي باشا ولكن عالي باشا
وبعض الوزراء أبوا على السلطان ان يكونوا آلة لتنفيذ مآربه
اما السلطان فكانت مسئلة الوراثة عنده من اقصى الامال وزد
ذلك انه كان يكاد يطير فرحاً كلما تفوه محمود نديم باشا بكلمة
تؤيد افكاره او اشار إشارة تدل على استحسانه وكان محمود نديم
باشا لا يتردد في الاباحة بافكاره للسلطان مظهراً له سهولة حل

راجياً محاكمته ولكن القيصر ابي ان يحاكمه لاسباب خفية ولكنه ابى
الا ان يبرئ ذمته امام الرأي العام الروسي فكتب مقالة بالروسية
طارت شهرتها وان لم تطبع ولكن نسخت منها عدة نسخ ووزعت خفية
على المراكز اللازمة اما هذا العاجز فانه لم يرَ هذه الرسالة بعينه بل
سمعها من بعض الذين قرأوها ولذا فاني لا اكتبها . لانني آليت على نفسي
ان لا اكتب الا ما رأيته او قرأته ومع هذا فانهم يقولون والعهدة على من
قال ان حكومة الروس خصصت لسفارتها في الاستانة مليوني روبله
اي مائتي الف جنيه في كل سنة وان ما كان يأخذه محمود نديم باشا
وعائلته سنوياً من نقود وهدايا « من فرى وخيول روسية » تربو قيمته
على العشر آلاف جنيه وكان بعض الذوات يأخذون اموالا وهدايا
ولكن معظم الاموال كان يصرف على محلات اخرى «مسكين عبد العزيز
تجري المياه تحته ولا يحس بها ولا يعلم ما يدس له الاعداء الدسائس
حتى في بيته وهو الامر الذي نثق بصحته بين سطور هذه الاوراق

هذه المسئلة واتخذ ترويجه مقاصد السلطان ومطامعه ذريعة للتأمين عَلَى منافعه والمحافظة عَلَى منصبه مع انه من اعلم الناس باستياء الوزراء وجميع الاهالي من هذه المسئلة استياء عظيماً يدعوا الى حصول ما لا تحمد عقباه ولكنه اكتسب من السلطان محبة « بترويجه هذا الفكر » لاتقاس بمحبة الوالد للولد ولم يكن من ذوى الفكر الرزين او من الرجال الذين يخلصون الحب لسلطانهم حتى يطلع السلطان على استياء الامة وسوء مغبة هذه الفعال اذ خلق لئيم الطبع لا يفكر الا بما تأتيه من ورائه طائل الاموال . فاجتمع السلطان بوزيره وتشاوروا في الامر وبعد مذاكرات طويلة وجدوا ان لا بد لحل المسئلة من الاتكال على احد سفراء الدول العظمى ولما فتشوا في دفتر اسماء السفراء وقع نظرهم عَلَى « اغناتيف » سفير الروس وقرروا فيما بينهم ان يكون رابطة عقدهم في حل هذه المسئلة . فابلغ النديم هذا القرار لاغناتيف فما طرق اذانه حتى كاد يطير فرحاً فقبله بكل سرور وارتياح ووعد النديم بانه سيجتهد معهم بكل قواه وامنه على حصول الامر الذي يتعلق الخليفة به ويهواه والحقيقة التي لا ريب فيها هي ان سفير الروس وجد له ميداناً واسعاً

لتنفيذ مآربه بواسطة افكار السلطان اذ يعلم هذا السفير المحنك ان السلطان لا يرى نتيجة عمله هذا من الاهالي سوى معارضة ملئها الذل والهوان وان الساعة التي ينزع فيها لاظهار فكره يحدث بين الامة الاسلامية في داخلية الدولة ثورة عظيمة يرجع منها الروس ظافرين باشهر غنيمة فينالون من هذه الثورة ما يبتغونه من الاماني والآمال بدون حرب ولا جدال او ترميل نساء وتيتيم اطفال .

وهكذا تم الاتفاق بين كل من السلطان عبد العزيز ومحمود نديم باشا ، والجنرال اغناتيف علَى ان تحل هذه المسئلة حلاً يوافق اغراض الجميع و بدأوا مجدين مجتهدين ولكن لم ينتج اجتهادهم مدة الخمس سنوات المتوالية سوى زيادة المعضلات بدلاً من حل المسئلة التي كانت لهم اعظم شاغل . وكلما طال بهم الزمان كشف ستارهم وازداد الهيجان والتحفت هذه المسئلة التي هي اشهى من العسل على قلب السلطان بلحاف الاستحالة ودخلت في خبر كان . وكان من اكبر الموانع واولها ما جبل عليه السلطان عبد العزيز من الجبن والثاني شيوع هذا الخبر بين اصحاب الحمية من الوزراء والاهالي فبدأت تتداول بادئ بدء على ألسنة الخلق من خواص وعوام في النوادي الخصوصية ولكنهم

جاهروا في شكاياتهم مع مرور الايام اما السلطان عبد العزيز فقد عمل بوصية اغناتيف في اتخاذه بعض التدابير رغماً عن جميع هذه الموانع فمنح خديوي مصر اسماعيل باشا فرماناً تنتقل بموجبه الخديوية الى اكبر الانجال كي يعتاد الاهالي على هذا الحال بعد ان اعتادوا انتقالها الى الارشد فالارشد من الاسرة الخديوية ورقى ابنه يوسف عز الدين افندي سريعاً حتى اوصله الى رتبة المشيرية ونصبه قائداً على المعسكر الخاص وهو في العشرين ربيعاً من عمره تذرعاً لاستمالة قلوب الاهالي وعلى الاخص العساكر نحوه ومن جهة اخرى اوصى نجله يوسف عز الدين افندي بان يبذل الاموال على ضباط الجند وامرائهم ليتمكن من ارضائهم وجلب محبتهم ·

وبعد ان قضى بضع سنوات في هذه التدابير وجه نظره لاظهار ما يكنه صدره حتى كان كلما صمم على اعلان قصده يعود فيرتدع عن غيه ثانياً بعد ان يرى تلك الموانع الكثيرة والمانع لاعلانه هو الجبن الذي فطر عليه مع انه كان ينوي اعلان قصده يوم عيد الجلوس او الميلاد · واكبر مانع له هو معارضة سفير الانكليز الذي كان وقتئذ يعضد ولي عهد السلطان مراد اشد

المعاضدة وضف الي ذلك امتناع شيخ الاسلام عن اعطاء فتوي في هذا الشأن ومن جهة اخرى ازدياد القيل والقال بين الاهالي وشدة ما حصل عندهم من البغض له ، وقد نشر بعض ارباب الغلب والقلم مقالات في الجرائد حرضوا فيها الاهالي على عدم موافقة السلطان على هذا الامر كما حرضوهم على التزام طرف السلطان مراد كي لا تخرب من جراء افعال عبدالعزيز البلاد ·
فلما رأى السلطان ان لا ثمرة ترتجي بعد كل هذه التدابير التي كان يأمل منها حل المسئلة حلاً يوافق مآربه عمد الى حيلة اخرى فحاول اقناع السلطان مراد على التنازل عن سلطنته فنصحه كثيراً ثم زاد لديه بكاءً وعويلاً فلم يرَ منه جواباً سوى السلب وعدم الاطاعة ، فلما فرغت جعبة صبره واعيته الحيل عمد الى اتباع راي اغناتيف سفير الروس مفضلاً قبول تلك الجناية العظمى على رجوعه عن قصده خائباً وهو اعلان انتقال ولاية العهد لنجله يوسف عز الدين افندي قبل الاهالي او لم يقبلوا وانه اذا رأى معارضة او مقاومة من الوزراء او الجند استدعى اربعين الف جندي من جنود الروس الى الاستانة واكره الاهالي على قبول نجله ولياً للعهد · اذ كان اغناتيف سفير الروس

وعده بجلب اربعين الفاً من اوده سا في خلال اربع وعشرين ساعة وانهم على قدم الاهبة ينتظرون اشارة جلالة السلطان فيظهر من هذا التدبير الذي قبله كل من السلطان ووزيره بطيب خاطر وانشراح صدر ما تكن صدورهم من الخيانة للدين والدولة حيال منافعهم وما هو عليه من الدنائة التي قل ان يأتي مثلها قطاع الطريق ومع علم هذا الصدر الاعظم الخائن عدم امكان حصول هذا التدبير واستحالته هان عليه فداء سلطنته في سبيل منافعه الشخصية فكان لا يجتنب ايقاع السلطنة والوطن في هاوية السقوط والاضمحلال كي لا يعتريه داء سكوت المنفعة الذاتية بل كان يشوق السلطان لطلب الاربعين الف جندي من الروس ويزين له سهولة الحصول على مآربه بواسطتهم اذ كان السلطان حينئذ لم يفكر في عواقب المهالك الموجودة واصر على عناده اصراراً اشبه بالجنون . اما اغناتيف فقد لعب بالسلطان ووزيره لعبة الاولاد بالاكر ولم يدخر وسعاً في تحسين لعبته فاتخذ هذه الفرصة السانحة واسطة لقضاء وطر دولته من ملك بني عثمان

فكان يجتمع السلطان ووزيره عند اول اشارة من السفير

ويفترقان حسب ارادته وهكذا كان السفير لا يألوا جهداً في ترتيب فصل لعب السلطان ووزيره مع الامة العثمانية ليجمع من وراء هذا الفصل المضحك لدولته نموط المتفرجين ولم يشتغل اغناتيف بمسئلة الوراثة وحدها اذ كان غاية ما ترمى اليه الروس تمزيق شمل الدولة العثمانية واضمحلالها حتى لا تقوم لها قائمة · فبعد ان دس للدولة السم في الدسم وبعد ان كان يوجد في كل ساعة الف وسيلة ووسيلة للسلطان ووزيره لحل هذه المسئلة سعى في نزع سلطة بطريك الروم الروحانيـة عن البلغار وتوصل الى تصديق الباب العالي على نزعها وتشييد كنيسة خاصة بالبلغار ونصب رئيساً روحانياً لهم حتى توفق بعد قليل من ايقاد نار الثورة في تركية اوروبا وايقاع الدولة في مشاكل كبيرة اذ قد ثبتت مؤخراً ان كنائس البلغار لم تشيد الا لتكون مأوى الثوار والجمعية السلافية ولو ان خيانة البلغار للدولة العثمانية وصداقتها للروس ليست من الامور التي يصعب فهمها ولكنهم لم يقدروا قبلا على فعل ما فعلوا من ادخال الثوار داخل كنائس الروم الذين هم اصدق الطوائف للدولة العثمانيـة واشاع اغناتيف حينذاك شدة افتقار خزينة الدولة في اوروبا واراد اثبات

دعواه في عدم كفاية واردات الخزينة لفوائد الديون واثبات افلاسها فهاج افكار الدائنين الاجانب والراي العام في اوروپا على الاتراك واقنع بذلك الاجانب غير الواقفين على احوال الشرق بما اتى لهم من البينات وهكذا قضى اغناتيف مدة سفارته في الاستانة في تحريك سواكن الفتن على الدولة بعد ان وزن الاحوال العمومية والخصوصية فيها فسهل سبل الانتصار لدولته على الترك في المحاربة القابلة (محاربة الروس والترك) هكذا فلتكن الرجال الصادقون لدولتهم واوطانهم والا فلا ·

ظهر من كل كلام المؤلف بهذا الباب ان الباعث للذم قصد السلطان تبديل طريقة وراثة وولاية العهد وقد البس هذه القضية لباس الاعظام والتهويل على انه يمكن ان نحكم بحسن قصد السلطان رحمه الله بهذه القضية للمحافظة على ابناء آل السلطان ومنع الدسائس والفتن بسبب اختيار الارشد واذا رجعنا الى التاريخ نجد ان سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعين خليفة له والصديق رضي الله عنه اختار الفاروق رضي الله عنه وحصر انتخاب الخليفة الى نخبة من الاصحاب رضي الله عنهم . وكم حصل من بني العباس وبني عثمان ايضا من الفتن وسفك الدماء بسبب الارشد فحصر الامر

ارتقاء الافكار في الممالك المحروسة

تأثير الواقعة الخيرية على المعارف والاديبات العثمانية — تأسيس المدارس المتنوعة — اول جريدة انشئت في البلاد العثمانية — ازدياد المطابع — وضع نظامنامة المطبوعات — تأثير النظامنامة على المطبوعات — مصطفى فاضل باشا واول الاحرار العثمانيين في باريس — عودة الاحرار الى بلاد الدولة العلية — ضيا باشا — نامق كمال بك — علي سعاوي افندي والذوات الآخرون .

هذه هي ايها القارئ الكريم مساوئ اواخر سلطنة السلطان عبد العزيز التي كانت في اعلى طبقات ادارة الملك ولكن لا بد لنا من تعريف احوال الاهالي وعلى الاخص المتنورين منهم واي مركز اخذوه حيال هذه السيئات حتى لا يفوت القارئ فصل من فصول هذا الدور المحزن فيقف عليه تمام الوقوف

لا يخفى على كل من طالع اسفار التاريخ العثماني ان الواقعة الخيرية كانت اعظم مؤثر على احوال الدولة العثمانية ولو درسناها من اي وجهة لرأيناها بلا شك اكبر عامل على تنظيم المعيشة العمومية وتوسيع معلومات قسم من اهالي الممالك المحروسة ووضع اساس المعارف والاديبات العثمانية من جديد ولو تأملنا بعد حدوث هذه الواقعة لرأينا بين رجالنا ووزرائنا قوما مهما

يكن بالتفكر اسلم عاقبة واقرب لمقتضيات
الزمان والمعول على الخطوة الاولى وبعدها
السلام والنجاح اذا احسن التفكر بالامر

قل عديدهم يقدرون مركزهم حق قدره ويقومون بواجباتهم خير قيام ولهم من الخبرة في امور الدولة والاطلاع على الارتقاء العصري ما يكفي لاحتياجاتنا ولوجدنا بين شعرائنا وكتابنا رجالاً بلغوا اعلا درجة من الرقي في الادبيات الغربية عدا الادبيات الشرقية وتفننوا في أساليب الكتابة وتعلموا الفنون الحديثة التي هي اداس الادبيات . ومع هذا فان ارتقاء الأدبيات عندنا سارت سيراً بطيئاً بالنسبة الى اليابان مثلاً والسبب في ذلك هو ميل اهل بلادنا منذ القديم الى الشر اكثر من الخير مع عدم مبالاة الذين يشغلون اعلا طبقات الوظائف في ادارة الدولة العثمانية بهذا الامر او بالحري عدم تقديرهم هذا الامر المهم حق قدره وعلى الاخص عدم الفة الاهالي الذين تعودوا الاصول القديم ورغبتهم فيها عن الجديد . ولكن روح هذا الأرتقاء الحديث سرت بين الافراد بالرغم عن هذه المشاكل الكثيرة حيث كانت ادبياتنا قبل الواقعة الخيرية عبارة عن تعليم الديانة وقسم من اصول الانشاء وكانوا يتبعون في تدريسهم المبادئ القديمة الذي وضع اساسها منذ عهد العباسيين كما انهم كانوا ينتهجون في تحصيلهم طريقاً غير معقول وغير كاف لتوسيع

معارف التلاميذ فكان الاديب منهم قبل بضع سنين يحصر همته في مطالعة المؤلفات المخطوطة دون ان يعير الفنون الحديثة او بالحري المعارف الغربية جانب الالتفات . حتى ان المطبعة التي انشئت في الاستانة سنة ١١٣١ ﻫ دخلت بعد زمن قليل في خبر كان نظراً لرغبة علمائنا عنها ونفرتهم من الاختراعات الجديدة ولم يهتم اولياء الامور منا بترويج هذه الصنعة التي هي مدار توسيع المعارف وانتشارها قبل الواقعة الخيرية حتى بعد حصولها بزمن قليل .

ومن هذا الحين فصاعداً اي بعد الواقعة الخيرية بدأ اصحاب الحمية الوطنية في تعميم المعارف (ولو لم يكن في الدرجة المطلوبة) وما يتعلق بها من الامور ففي سنة ١٢٤٢ ﻫ انشئت مدرسة الطب العسكري واصلحت مدرسة الطوبجية التي وضع اساسها على عهد السلطان سليم الثالث واكملت بعض نواقصها . وانشئت المدرسة الحربية في اوائل سلطنة السلطان عبد المجيد وعقبها انشاء مدرسة البحرية وفي اواخر سلطنته انشئت مدرسة المعادن وكلها من المدارس العليا كما انشئت ايضاً مدارس الاعدادية (تجهيزية) في عدة مواقع مهمة وعدة مدارس

للرشدية (ابتدائيه) وهكذا وفت هـذه المـدارس بعض احتياجاتنا العلمية . والمدارس التي انشئت على عهد السلطان عبد العزيز لم تكن اقل فائـدة من المدارس التي انشئت على عهد عبد المجيد . ففي ابان سلطنته انشئت مدرسة الفنون الملكية بهمة محمد باشا القبرصلي وفي اواسطها انشئت المدرسة السلطانية وهذه المدرسة انشئت بهمة وحث سفير فرنسا الذي كان نافـذ الكلمة في ذاك الحين وهي من المدارس التي يضرب بانتظامها المثل كبقية المدارس العالية في الاستانة فتخرج فيها تلامذة خدموا الوطن خدمات صحيحة كما خدمه تلامذة المدارس الاخرى وقد جعل التدريس فيها باللغة الفرنساوية ولكن الغي هذا اللسان من مدرسة الطب العسكري اذ كان التدريس به قبلاً وابتدأ التلامذة يتعلمون الطب بلسان آبائهم وانشأ في ذاك التاريخ ايضاً مدرسة الطب الملكية وهي مستقلة عن الاولى ولم تقف الهمة بتشييد المدارس وتعميم المعارفِ على عهد السلطان عبد العزيز عند هذا الحد بل كانت جميع الهمة منصرفة الى انشاء المدارس الاعدادية والرشدية فكانت هذه اغزر فائدة من المدارس العليا نظراً لخدمتها في تعميم المعارف

بين ابناء الطبقة العامة وكان سليمان باشا المشهور اعظم عامل على انشاء هذه المدارس ٠

ومع هذا فلم تكن المدارس وحدها هي التي نشأ عنها انتشار المعارف بين الاهالي على اواخر عهد السلطان عبد المجيد واوائل عهد السلطان عبدالعزيز بل كان شوق الاهالي للمطبوعات يزداد يوماً عن يوم فالمطابع لا تقل خدمة عن المدارس في تنوير افكار العامة وتشكيل رأي عام بينهم فاول جريدة انشئت عندنا هي الجريدة التي انشأها (Alexandre Blacque) الكساندر بلاق الفرنساوي الشهير سنة ١٢٤١ هجرية في ثغر ازمير وكانت تصدر باللغة الفرنساوية وليست هي باول جريدة انشئت بل انشىء قبلها جريدة علَى عهد السلطان سليم الثالث بسفارة فرنسا في الاستانة وكان يديرها رجل فرنساوي ارسلته حكومة فرنسا ولكن مواضيعها لم تخرج عن حد اذاعة اخبار انتصار الفرنساويين في محارباتهم وتفصيلها تفصيلاً ولكن عدم كفاية وارداتها للصرف عليها بالرغم عن سعي صاحبها المتواصل اضطره الى تعطيلها وقد تشبث الكثيرون في انشاء المطابع فاخفقوا سعياً ولم تدم جريدة مدة طويلة غير التي كانت تصدر في ازمير وهذه الجريدة كانت

تدعى (Spectateur de l'orient) مرآة الشرق ولكن غير اسمها اخيراً ودعيت (Courrier de Smyrue) باخبار ازمير وكانت مباحثها توافق الزمان والمكان وكانت تأتي بالاخبار الصحيحة واشتغلت في هذه الآونة بنقل اخبار الثورة اليونانية التى كانت تتأجج نارها فكانت تأتي بالانباء الصحيحة من ميادين الحرب بسرعة عجيبة مما اذاع صيتها واعلى كلمتها حتى في اوربا نفسها وفي سنة ١٢٤٦ هجرية احضر السلطان محمود محررها الى الاستانة واحسن عليه بالاعانة اللازمة وساعده على اصدار جريدة فيها تسمى (Moniteur Ottoman) (الرائد العثماني) وبعد سنة امر السلطان محمود باصدار جريدة تركية في الاستانة تسمى (تقويم الوقائع) وجعلها تحت ادارة محرر الرقيب العثماني . ومع ان هاتين الجريدتين كانتا لسان حال الحكومة ولكن فقد كانت محتوياتها تختلف عن بعضها في بادئ الامر اذ كانت جريدة تقويم الوقائع لاتنشر سوى اوامر الحكومة الرسمية ولا تقبل المقالات الاخرى اما الثانية وهي الرقيب العثماني فكانت تنشر مقالات وابحاث شتى عن الاحوال الخارجية والداخلية حتى عدتها اوروبا لسان حال الباب العالي وهكذا دامت هاتين الجريدتين على

هذا المنوال عدة سنوات ثم انشئت في الاستانة سنة ١١٥٩ ه جريده اخرى تدعى (جريدة الحوادث) وكان بين مندرجاتها حوادث خصوصية عدا الاخبار الرسمية والوقائع المتنوعه ولذا راجت رواجاً باهراً في زمن قليل وعدت من الجرائد الرسمية المحكومة العثمانية وظهر اخيراً رجال ليس لهم ادنى علاقة بالحكومة وانشأوا في الاستانة وفي بعض الولايات المهمة جرائد غير رسمية فكثرت الصحف وتنوعت في اواخر سلطنة عبد المجيد واوائل سلطنة عبد العزيز حتى كان عدد الجرائد المنتشرة في القطعات المختلفة من بلاد الدولة العثمانية بحسب الاحصاء الاخير الذي عمل في اواخر هذا العهد يزيد على ثلاثين نسخة وكان بينها اربع مجلات فنية بين شهرية ونصف شهرية واسبوعية وهذا الحال يدلنا دلالة قطعية على ان الرغبة في انتشار المعارف التي هي من ضروريات المدنية الحاضرة كانت تزداد يوماً عن يوم عند اهالي البلاد العثمانية كافة حتى ان بعض رجال الدولة على اواخر عهد السلطان عبد العزيز بين ملكيين وعسكريين ضباط كانوا اوامراء من الذين تعلموا في المدارس وذاقوا حلاوة ثمر التعليم سعوا جهدهم في تعميم المعارف بين ابناء وطنهم ليذيقوهم ماذاقوا

و يمتطفوا ما اقتطفوا من اشهى ثمار التعليم

ولكن الحالة لم تبق على ما كانت عليه بعد الواقعة الخيرية في الاكتفاء بتقليد المأمورين العثمانيين للاجانب في اللباس فان كبار الموظفين العثمانيين كانوا بعد الواقعة الخيرية يقلدون الاجانب في ازيائهم فقط ولا يعرفون كيف يخدمون الوطن او كيف يسعون في اعلاء شأنه بل كثر بينهم من يعرف قيمة الاصلاحات في الدولة وقدر الانتظام في دوائر الحكومة كما عرفوا منبع الثورات في داخل البلاد العثمانية ولم نحكم على صحة قولنا هذا اي تنور عقول المأمورين بما اتينا عليه من قبل بل ان تعدد آثارهم ومؤلفاتهم العلمية والادبية لهو اكبر شاهد واصدق برهان على صحة قولنا وقد بدأت المطبوعات تزداد عندنا منذ عهد السلطان عبد المجيد وكان اكثرها خاص بشؤن العالم الاسلامي ولكن كان يوجد بين هذه المطبوعات ما هو مترجم عن اشهر المؤلفات الغربية و بقطع النظر عن الترجمة فقد ظهرت في هذا الوقت مؤلفات نافعة غاية في الاهمية باقلام بعض مشاهير الكتاب العثمانيين الذين جمعوا بين المعارف الشرقية والفنون الحديثة الغربية كاحمدوفيق

باشا وجودت ، ومن شاكلهم من الكتاب الذين أبدعوا أصول التحرير والبلاغة في الادبيات التركية وأحيوها من جديد وقد شجع هؤلاء بمؤلفاتهم «وعلى الاخص جودت باشا بالتاريخ الذي وضعه» الادباء على ان يسيروا في كتابتهم على النمط الذي يوافق الزمان والمكان وان يتبعوا الارتقاء العصري وهو مما يدل على مقدرتهم وحسن درايتهم وقد وقع هذا التغيير لدى المحررين العثمانيين موقع القبول وسعوا في تعميمه وهكذا اتسع نطاق فوائده حتى كان اكبر مساعد على تنوير أفكار الاهالي ولكن ما الفائدة منه وقد سقط من اول درجة عند صعوده على سلم الارتقاء بما وضعت له يد الظلم من العقبات في سبيل تقدمه وقد دامت هذه الاحوال الداعية للاسف حتى زماننا هذا وازدادت الآن زيادة كبيره جعلته في خبر كان اذ كانت مطبوعاتنا في بادئ الامر حرة بلا قيد ولا قانون معين بل كانت حرية المطبوعات بالغة منتهاها والكل حر في اصدار أي جريدة شاء أوانشاء أي مطبعة أراد لايعارضه في أمره معارض فلما زاد عدد الجرائد أخذت المطبوعات شكلاً آخر وصارت تنشر الاخبار المحلية والمقالات الخاصة بالامور الداخلية

وتنتقد أحياناً أفعال الموظفين في اكبر وظائف الدولة فكدرت هذه الاحوال كأس صفاء اولياء الامور وأوجبت استيائهم وجلبت نحوها عداءهم فعملوا على ايجاد الوسائل الكافية لايقاف المطبوعات عند حدها ونزع حريتها اذ كانت على زعمهم تضر بالصالح العام فقرروا استعمال أصول مراقبة الجرائد وهي التي كان ولا يزال يعمل بها حتى الان في بعض الممالك الغربية وبناء عليه وضع نظام خاص بالجرائد في سنة ١٢٨٢ هجرية وهو أول قانون وضع للجرائد في البلاد العثمانية وابتدأُوا في تطبيقه بكل شدة وصرامة وشددوا النكير على الجرائد واحكام هذا النظام عبارة عن الزام كل من يريد اصدار جريدة باخذ رخصة من الحكومة كما حصرت مباحث الجرائد في دائرة لا تتمكن معها ان تتكلم في ما تريد وتبحث عن ما تريد وان تكون مباحثها تحت مراقبة الحكومة الدائمة وعليه انشىء من ذاك الحين قلماً خاصاً بمراقبة المطبوعات الداخلية في الباب العالي واحيل عليه هذه المهمة ولا يزال الى الآن مفتوح الابواب ينزل على كل من شذ عن هذه القاعدة من اصحاب الجرائد اليم العذاب ولو طالعنا هذا القانون من أي وجهة لرأينا خطة الحكومة منافية لمنافع ادارة

الملك والاهالي معاً مجحفة بحقوقهم أشد الاجحاف لان وضع هذه المراقبة لم يكن الا نتيجة خوف الحكومة من انتقاد الجرائد أعمالها وهو عيب يحط بقدر الحكومة وادارتها ويدل دلالة واضحة على قلة ثقتها بنفسها .

ثانياً : ان الحكومة أظهرت بهذه الوسيلة اشتراكها في ما يحدث داخل البلاد من الامور المباينة لقانون العدل والانصاف وسدت في وجه الجرائد منافذ الانتقاد وحرمت عليها ولوج باب الصدق في نشر ما يقع من الحوادث داخل الممالك العثمانية وهكذا هدمت ركن ما بني من قصور آمال الاصلاح في الوزراء

ثالثاً: ان هذا النظام زرع بذور الخصومة والعداوة الشديدة في قلوب اصحاب الحمية الوطنية والغيرة الملية من رجال الدولة ووكلائها وقد ظهر هذا الحال بعد بضع سنوات من وضع هذا النظام حيث كان سبباً في تشكيل فرقة الاحرار العثمانيين في أواسط سلطنة السلطان عبد العزيز

أول مؤسس لهذا الحزب (١) هو مصطفى فاضل باشا

---

(١) حزب تركيا الفتاة

المصري أحد أعضاء عائلة محمد علي باشا الكبير موسس بنيان الخديوية المصرية .

وقد ربي منذ نشأته تربية حقة وتلقى من مبادئ العلوم والفنون ما يناسب زمانه ومركزه ونمف الى هذا انه كان ذكيا لبيبًا ذا ثروة طائلة كأكثر أفراد عائلته ولكن لم يمتزج باسماعيل باشا بعد ان تولى أريكة الخديوية فاتى الاستانة ودخل في عداد الوكلاء ولكنه لم يلبث في دار السعادة طويلا لعدم اتفاقه مع المشهورين بالاقتدار كعالي باشا وفوءاد باشا فترك الاستانة وذهب الى باريز ليظهر ما لديه من الاعتراضات عَلَى القواعد المتبعة في ادارة الدولة ولكشف الغطاء عن معائبهم في بلاد الحرية والتف حوله اصحاب الاقلام الذين نفروا من ادارة عالي باشا وأصدروا جرائد كثيرة باللغة التركية وأخذت تكتب المقالات الشديدة اللهجة على مساوئ الدولة في ذاك الحين وفند هذه السفاسف واحدة بعد اخرى واضعا نصب عينيه أعمال فوءاد وعالي باشا الشخصية كعدم صرف المبالغ التي جمعت من طريق الاعانة لتوزع على من احترقت منازلهم في الحريق الكبير الذي حصل في دار السعادة على الغرض الذي وضعت اليه وضياع

حقوق الدولة في تسليم القلاع العثمانية التي أقيمت في بلاد الصرب لحكومتها وأخذ الاموال لاخماد حادثة الشام من الخزينة بصورة باهظة والتساهل في أمر اخماد ثورة كريد وسوء استعمال أموال القروض العديدة وما شاكلها من الاحوال .

هكذا ظهرت جمعية الاحرار لاول مرة في البلاد العثمانية ولم تظهر الا بعد ان عيل صبر هؤلاء الرجال وبعدان احتملوا ما لا يطاق من الاهوال لان حصول الارتقاء في المعارف العمومية «ولو قليلاً» كما قدمنا بعد الواقعة الخيرية كان أقوى عامل على بلوغ هذه الحالة ولكن وضع قانون المراقبة أوجب سرعة نموها وحصولها قبل أوانها . ومهما كان الامر فان الرجال الذين لم يرق في عيونهم سير احوال الادارة الداخلية في الدولة على عهد صدارة عالي باشا اجتمعوا في باريز وأنزلوا من هنالك نور الحرية عَلَى البلاد العثمانية وهيجوا الافكار العمومية فكان اقبال الاهالي على منشورات الاحرار أعظم من ان يذكر حتى يبعث في الاستانة نسخة واحدة من جريدة « حريت » التي طبعت في باريز ودخلت البلاد العثمانية سراً بجنيه عثماني ومع هذا فلم يثابر هؤلاء الرجال على أعمالهم مدة طويلة

فعاد اكثرهم الى اوطانهم بعد وفاة عالي باشا اذ شملهم العفو الشاهاني في ذاك الحين ومع انهم يكونوا حائزين الحرية التامة في بلاد الدولة وكانت الحكومة ترقبهم بطرف خفي على الدوام فقد شكلوا فرقة الاصلاح فصارت الحكومة تهتم بكل قول فاه به احدهم وتعيره اذناً صاغية وازدادت شهرتهم يوماً عن يوم وعدوا في مقدمة الاحرار العثمانيين سواء كانوا من الذين عادوا الى الاستانة او من الذين لم يغادروا اوطانهم وكان ضيا باشا اشهر شعراء العثمانيين يشغل مركزاً ممتازاً بين افراد هذا الحزب فنادى بالنظم والنثر على قدر ما استطاع من القوة وسعى في اعلاء شأن الوطن كثيراً حتى ترك له في قلوب امته اسم يمجده اعضاؤها حتى اخر نفس من حياتها . وكان نامق كمال بك (١) اشهر رؤساء هذه الجمعية وهو رجل شريف العواطف والاميال رزين العقل واسع القريحة محب لوطنه ، مشغوف برقيه ، مجتنب للرياء والمداهنة ، عاشق للحرية وبالجملة فانه كان من نوادر الناس في زمانه واشعر شعراء عصره واوانه ، ولكن المامه بالسياسة كان سطحياً فاتحد مع شناسي احد ادباء الترك المشهورين وعملا

---

(١) هو نامق كمال بك الشهير اشعر شعراء الترك

يداً واحدة على استئصال شأفة التحرير القديم وغرسا مكانه بذور اصول جديدة وسعيا في تعميمها حتى احيا كلاهما الادبيات التركية من جديد فحرك هذا النابغة باشعاره البليغة ومقالاته الرائقة حسيات امته وعواطف ابناء وطنه حتى استحق لقب استاذ اهل الفكر والقلم من العثمانيين . وقد بدأت شهرته بالظهور في عهد عالي باشا واخيراً صاهر مصطفى فاضل باشا وكان محرراً لجريدة «حريت» التي صدرت في باريز وقد نفي مراراً بعد عودته الى الوطن حيث كان دائباً على اظهار حميته وصداقته حتى داخل الممالك العثمانية وكان في هذه الفترة مديراً لادارة جريدة «عبرت» التركية التي كانت تصدر في الاستانة .

وثاني مشاهير الاحرار هو المرحوم علي سعاوي افندي كان في باديء امره من طلبة العلم فبعد ان تعلم العلوم الفقهية في الاستانة قصد باريز واقام فيها بضع سنوات تعلم في خلالها اللغة الفرنساوية واطلع على الادبيات الاوربية ووقف على احوال السياسة العمومية

وذهب بعدئذٍ الى لوندره ونشر كتباً تختص بالاسلام والعثمانيين واصدر جريدة باللغة التركية تسمى «مخبر» وهو

آخر من رجع الى الاستانة من الاحرار العثمانيين فكان يخطب في الجوامع والمحافل الخصوصية ويسعى جهده في تنوير افكار الاهالي وحضهم على المعارف ومع ان بعض اعدائه كانوا ينسبون اليه بعض النواقص ولكن لم يجرأ احد على انكار محبته لامته ووطنه وشغفه الزائد بهما حتى انه ذهب ضحية الوطن كما هو معلوم ومشهور عند الجميع

وكان احمد مدحت افندي الموجود الآن في الاستانة معدوداً من الاحرار العثمانيين الذين تحوم حولهم الابصار ولا ينكر احد خدماته للمطبوعات العثمانية وتدريب الاهالي على الكتابة والمطالعة فقد اشتغل زمناً بالتأليف والترجمة ولا نغالي اذا قلنا انه اكثر اسلافه ترجمة وتأليفاً . وقد طالع آثاره اكثر الناشئة الجديدة من الكتاب الذين كثر ولله الحمد عددهم وتلقى اكثرهم درس التحرير عليه ولكنه مع ذلك كله كان مشهوراً بعدم ثباته واتباعه هبوب الرياح حتى نفسه لا ينكر هذه النقيصة ويصادق عليها

ومن الذين لا يزالون أحياء يرزقون حتى هذه الساعة والذين يعدون في مقدمة احرار ذلك الوقت أبو الضيا توفيق بك

ولا أحد ينكر فضله على المطبوعات العثمانية فاشتهر في هذا الخصوص امره وزاع خبره .

هؤلاء هم مجموع احرار ذاك العهد ولكن كان يوجد أيضاً بين الضباط المتخرجين في المدارس رجال آخرون يعدون من حزب الاحرار «المتفقة الافكار» كما كان يوجد كثيرون من تلامذة المدارس العالية حتى الاعدادية من عضدوا هذا الحزب بكل قواهم و يميلون اليه ميل الرجال الى غادة حسناء وكلهم كانوا يبتغون الاصلاحات الاساسية والانقلاب الجدي لتخليص وطنهم و يسعون وراء سعادة الملك والامة وسعادة انفسهم .



مساوىء السلطان عبد العزيز

المساوىء العمومية في احوال البلاد العثمانية = البلاد التي تحكمها الحكومة الاستبدادية = السلاطين في دور الارتقاء ودور الانحطاط = السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز = العظمة والكبرياء عند السلطان عبد العزيز = نساء السراي = ميل السلطان للاسراف = مصر وسوء استعمال الامتيازات التي منحت لها = الخزينة الخاصة وميزانيتها =

لا بد وانه يوجد بين قرائنا من طالع الكتب التي طبعت في اوروپا خلال الخمسين سنة الاخيرة والتى تبحث عن الشرق وعلى الاخص عن احوال الدولة العلية والذي يقرأها لا بد وان يرى بين سطور هذه الكتب « الجغرافية والتاريخ والسياحات » فقرات كثيرة تبحث عن مظالم الترك وهمجيتهم فانك لو تصفحت اي صحيفة منها لا يمكن ان تجدها خالية عن نسبة الاتراك الى الظلم والتوحش وعدم الاستعداد للمدنية الغربية وترى في الكلام عن ادارة الامور الداخلية ان هوءلاء المحررين والسائحين يرون بلادنا في اقصى درجات الخصوبة مع استعدادها للرقي والعمران فينسبون وهم معذورون حالة بلادنا الحاضرة وما آلت اليه من الخراب الى عدم قابلية الامة الحاكمة « اي الاتراك » للتمدن والحضارة ·

ويرون افعال الحكومة وما تعامل به الاهالي من صنوف الجور والعسف فينسبونها الى استعداد الاتراك فطرياً للظلم والاستبداد وعدا ذلك فانهم يرون الثورات التي توالت أخيراً في الجهات المختلفة من بلادنا فيلقون تبعتها على الترك ولا يعتقدون غير انها ناشئة عن اعتيادهم بسفك الدماء البشرية ويضعون اصابعهم في اذانهم حذر سماع غير هذه الاقوال ونحن لا نجحد وجود ما يشيرون اليه في كتبهم من المساوي داخل بلادنا وانهم لم يغالوا في اقوالهم عنها كما لم ينقصوا شيئاً في وصف ما تستحقه من الاوصاف

ولكن مع صحة اقوال المؤلفين الاجانب عن هذه الامة نقول انهم مخطوءن خطأ فاحشاً في معرفتهم منشأ هذه السيئآت وان خطأهم هذا دليل واضح على عدم وقوفهم تمام الوقوف على احوال الدولة التي وقعت فيها من قديم الزمان . ولدى التدقيق في ملاحظاتنا الآتية تظهر هذه المسئلة بشكل لا يبقى معه ادنى ريب ولا اشتباه :

لو ألقينا نظرة على احوال حكومات الكرة الارضية باسرها لوجدنا كل حكومة منها تسعى في تدبير امور ملكها

وتأمين سعادة رعيتها بشكل يناقض الاخرى وذلك تبعاً لاختلاف الملل والنحل فكل حكومة تضع نظامها على ما يوافق مركزها الطبيعي والتقليدي وما يوافق عادات قومها واخلاقهم فالدولة العثمانية تتبع اصول ادارة الحكومة الفرديه منذ ستة قرون

فالامة التي تحكمها حكومة مطلقة يتوقف فيها حفظ العرض والناموس وسلامة الملك وعمرانه وجميع احوالها الخصوصية على مقدرة ملكها وحسن ادارته فاذا كان الملك الحاكم على مثل هذه البلاد متصفاً بالاخلاق الحسنة وكانت تربيته واخلاقه تؤهله الى هذا المنصب الجليل فلا بد ان تسعد رعيته ويضرب الامن في البلاد اطنابه والا فلا حظ لها من نعيم الدنيا بل تبقى مقهورة مظلومة حتى يأتي يوم تنقرض فيه عن بكرة ابيها وتصبح البلاد قاعاً صفصفاً لا خلق يسكنها ولا طير يأوى بها . والشواهد في تاريخ كل امة من الامم اكثر من ان تعد وعلى الخصوص في تاريخ الاسلام وتراها ظاهرة بشكل اجلى في التاريخ العثماني اكثر من غيره

وليس يخفى على من طالع التاريخ ان الدوله العثمانية التي مر عليها ما ينيف على ستة قرون من بدء تأسيسها حتى الان

ان تاريخها ينقسم بالنظر الى مقدرة سلاطينها الذين تولوا عرش الخلافة وعدم مقدرتهم الى قسمين

القسم الاول وهو دور الارتقاء يبدأ منذ تأسيس المملكة العثمانية حتى سنة الالف هجريـه فالملوك الذين تولوا عرشها وهم مؤسسو بنيانها الحقيقيون قاموا بوظائفهم نحو الدولة احسن قيام بما تقتضيه تربيتهم وحسن اخلاقهم وعرفوا ارتباط منافعهم الذاتية بمنافع الدولة فالتزموا العدالة بين الاهالي واتخذوها دليلاً لاعمالهم جاعلين التدبير والشورى رائدهم فوسعوا حدود ملكهم ولم يتركوا فرصة حتى انتهزوها لتنظيم ادارة بلادهم الداخليـة وتحملوا متاعب الحروب ومشاقها حتى تركوا الامة المحمدية تثني عليهم وتشكر فضلهم وهي اقصى سعادة ينالهـا الملوك

اما الدور الثاني فهو يبدأ في غرة القرن الحادي عشر من الهجرة فالملوك الذين ظهروا في هذا الوقت ساروا جميعهم على طريق مخالف لما سار عليه ابائهم واجدادهم فلم يهتموا بوظيفتهم و كبر مسئوليتها بل كانوا يتخذون سلطتهم وسيلة لفائدتهم الشخصيـة وقضاء شهواتهم النفسانيـة فهذا الشكل الاخير يظهر لنا جلياً قدر الافعال التي كانت في دور الارتقاء ومنبع الانحطاط واسبابه :

وجد بين السلاطين العثمانيين الذين نشأوا في الدور الثاني من يميل الى اصلاح حال الملك موقتاً ولكن اساس المسئلة كما قدمنا قبلاً هو عدم لياقة الملوك واهليتهم الامر الذي اوجب عدم جريان الامور في مجراها الطبيعي ونجم عنه انحطاط الممالك المحروسة يوماً عن يوم وتقهقرها الى الوراء بعد ان كانت احسن الممالك ادارة في الخارج والداخل ولا حاجة بنا لتقليب صفحات اسفار التاريخ البعيدة لاثبات قولنا هذا فلو اوضحنا احوال السلطان عبد العزيز في اواخر سلطنته لظهرت هذه المسئلة بحذافيرها

كان السلطان عبد المجيد مع ما هو عليه من بعض الاخلاق التي لا توافق امور الدولة كما قدمنا قد تربى على عهد والده تربية حسنه توافق عصره على قدر الامكان وكان يتكلم الفرنساوية ويطالع المصنفات التي نشرت في اوروبا ايام سلطنته ويقف على افكار ارباب الحجى ولكنه كان ميالاً للملذات الدنيوية ولا يدخر وسعاً في الاستفادة من ضروب لذائذ الشرق والغرب حتى انه بنى في قصره غرفة خاصة للتشخيص وهو امر لم يسبقه فيه احد من اسلافه وكان يأتي بكل جوقة جاءت من

اوروبا و يتفرج عليها في قصره . اما اخلاق السلطان عبد العزيز فكانت تناقض اخلاق اخيه كل المناقضه بهذا الخصوص فلا يسر من التمثيل وغيره من اللذائذ الفكرية والادبية بل كان يقضي اوقاته في الامور الماديـة كالصراع ومقاتلة الديوك وما شاكلها وهي اكثر ما كان يهواه من امور الدنيا فما تولى الملك حتى حول مرسح التمثيل الذي بناه اخوه في القصر الملوكي الى اصطبل وشيد بناء جديداً في القصر خاصاً بالديوك وكلاب الصيد لكنه لا يؤاخذ على هذه الامور حيث ان السلطان مخلوق وله ما للمخلوقات من الحق في ترجيح اي شيء تشتهيه نفسه من الملذات الدنيويه على غيره ولكن مما لا مشاحة فيه ان السلطان لا بـد من ضنه باظهار احواله الخصوصية واخفاء ما لا يوافق اخلاق الرعية منها ولكن السلطان عبد العزيز لم يهتم بهذه النقطة بل جمع في برهة قصيرة كثيراً من مهرة المصارعين كما جمع عدداً كبيراً من الحيوانات في قصره وبـدأ في قضاء وقته بالفرجة عليها

فشاعت هذه الامور في الخارج وكان بـين الاشاعات فقرات تضحك الثكلى كتعليق السلطان عبد العزيز في

رقبة ديك تفرد في المضاربة بين اقرانه قطعة من النشان المجيدي من الدرجة الاولى ولاكت هذه الاشاعة السن الخلق بالمجالس الخصوصية المختلفة بصورة لم يشتبه في صحتها احد حتى نشأ عنها استهزاء عامة الناس واستخفافهم بعقل السلطان . ومع هذا كله فان السلطان كان ذا كبرياء وغرور لا مزيد عليهما ولو ان اخلاقه وعوائده السيئة لم تتجاوز حدودها في اوائل سلطنته ولكنها اخذت تشتد يوماً عن يوم بعد وفاة عالي باشا (*) ولنضرب لك مثلاً عدم رغبته في تسمية احد باسم « عزيز » كما انه قد عود كل من يتشرف بلقاه تقبيل الارض حتى اوشك ان يقول « انا ربكم الاعلى » وبالجملة فانه غالي في العظمة والكبرياء حتى كان يعد كل من ينظر في وجهه مخالفاً للآداب التي فرضها السلطان على عبيده . فكان كل من ينظر الى وجهه لا يأمن عواقب هذه النظرة وكل من يريد تقديم عريضة بطلب احسان او في اي شأن آخر يوقع على العريضة التي يقدمها للاعتاب « بعزت » او ينتحل اسماً آخر اذا كان اسمه عزيز ومهما كانت عليه مواد العرائض من البساطة فلا بد من مزجها

(*) اس الانقلاب احمد مدحت افندي

بالدعاء للذات الشاهانية حتى تحوز القبول والا فلا ينالها سوى الاعراض عنها والقائها في زاوية الاهمال . ومن الغريب ان عالي باشا جعل يرغب السلطان في زيارة اوروبا لعلمه بما يتصف به ملوك الغرب من التواضع ظناً منه ان السلطان متى راى منهم هذه الاحوال يستبدل اخلاق الكبر والغرور بالاخلاق الحسنة ولكن جاء الامر على عكس ذلك اذ زاد في كبريائه وغروره واعتداده بالنفس كما ازداد عنده الميل الى الاستبداد وهو قول منقول عن مقربيه في ذاك الحين . فكان في هذا الوقت يدعي الانانية في كل امر ولا يريد تقديم رأى احد على رأيه في امر من الامور ولا يقبل اعتراضاً على رأية من احد وكل من تجرأ على الاعتراض لا ينال الا اشد العقاب

ومما يؤثر عنه انه كان ذات يوم يلعب بالشطرنج مع ابراهام باشا [1] فعارضه الباشا في امر جزئي فلم يسعه الا ان ضرب رأسه بمائدة الشطرنج ومع هذا كله فان السلطان كان امام من نالوا ثقته كالخشب المسندة او كلعبة في يد طفل يلعبون به كيفما شاؤوا

---

(١) احد سراة اليهود في الاستانة وعضو في مجلس شورى الدولة الآن

فاستفاد من بالسراي من المقربين من احواله هذه وعلى الاخص منهم جماعة المماليك الذين لا تخلو من جراثيمهم قصور ملوكنا حتى الآن فكانوا يفعلون ما يريدون ويقضون اوطارهم بدون ان يعارضهم معارض ولهم من ادارة الملك ما يشتهون ولم يبق السلطان في ربق المماليك فقط بل كانت نساء السراي ايضاً يلعبن به ويوجهنه اي جهة شئن وخلاصة القول انه كان اطوع لهن من بنانهن · فيبدد أموال الخزينة في شراء الجواهر المتنوعة ويصرف الاموال الطائلة في شراء الهدايا الثمينة ليقدمها لهن · وازداد ميل السلطان للاسراف زيادة عظيمة ولم تنحصر شهرة اسرافه العظيم في داخل البلاد العثمانية بل شاعت احواله هذه في اوروبا فتهافت مشاهير الرسامين والنقاشين على باب تبذيره فكانوا يبيعون سلعهم لهذا السلطان الذي لا يعرف عنها شيئاً باغلى الاثمان حيث لا تعب ولا نصب في ما بين يديه من قناطير الذهب ومع هذا كله فاذا كان للسلطان امل او ارب فهو بلا شك انشاء قصور شاهقة مزينة من الخارج والداخل زينة لا يقدر احد ان يأتي بمثلها · ففي اوائل حكمه بنى ما بنى من القصور متبعاً فيها قواعد الاقتصاد ولكنه شذ اخيراً عن

هذه القواعد وجن في حب الاسراف فكان يفرش مثلا قصراً شاده من جديد او اصلحه في عهد غير بعيد · فرشاً وزينة يصرف عليها طائل الاموال حتى اذا ما تم ترتيب احد القصور يصدر ارادته فيجدد مرة اخرى و بعد ان توضع هذه الارادة الاخيرة موضع العمل لا يعجبه فرشه او يرى نقيصة في اثاثه فيأمر بتأثيثه تارة اخرى وقد دام الحال على هذا المنوال حتى آخر عهد سلطنته

فمن هذه البينات يعرف القاريء قيمة اخلاق سلطان آخر الزمان وشدة وطأته على الخزينة المالية وما بدد من اموال عباد الله في سبيل غاياته النفسانية · بل هي الحقيقة بعينها · حيث ان احواله هذه اعجزت من تولوا في عهده منصب الصدارة من فحول الرجال وتركت بعدهم للمائلين الاداني في مقام الصدارة واسع الامال

ولم تكن محبة السلطان عبد العزيز لمحمود نديم باشا وشغفه به الا لموافقته على اي راي رآه وارتآه اذ كان يوجد السلطان عبد العزيز وسائلاً عديدة ليتوصل بها الى نيل بغيته وهي سلب الاموال ومنها التنسيقات التي اشرنا اليها قبلاً وسوء

صرف اموال سكة حديد الروم ايلي ولم تقف هذه السيئات عند حد معلوم بل كانت قبل هذا الدور و بعده تزيد في احوال الدولة وخامة يوماً عن يوم وتنزل بها الى منتهى هوة الذل والهوان . ومن جملة مساوئ اوائل سلطنة عبد العزيز هي اتخاذه جميع الوسائل في سلب الاموال ولو كان من ورائها اشد الاهوال ليملأ بها يداً تعودت على التبذير والاسراف الكثير ولم يرتدع عن غيه هذا بعد ان طبع على هذه الاخلاق بالرغم عن خوفه الشديد من عالي باشا « ولن يلين اذا قومته الخشب » حتى كان بين الوسائل التي يستعملها اموراً تنافى وقار الملوك وحيثياتهم وتناقض منافع الملك كل المناقضة ومع هذا كان لا يدخر وسعاً في استعمالها وكانت حشرات السراي يتهن طرباً و يرقصن عجباً كلما راين تمسك السلطان بهذه الافعال فيشوقنه على اجرائها لينلن القسط الاوفر مما يسلبه من الاموال . وقد كشفت مسئلة الامتيازات المصرية المشهورة عن احوال السلطان واهل السراي الحجاب فظهر من ورائها ما لم يكن في الحساب . نعم ان ارض الفراعنة منحت امتيازات عديدة تقضي بحرية التصرف في امورها الداخلية منذ عهد السلطان

عبد المجيد وعهد ابيه السلطان محمود العادل · ومع ان هذه الامتيازات تقضي بعدم مداخلة الحكومة العثمانيــة في امورها الداخلية ولكنها حفظت حقوق الخلافة ونفوذها عليها وقد دام الحال على هذا المنوال مدة من الزمان · ففي سنة ١٨٦٣ ه اعتلى اريكة الخديوية المصرية اسماعيل باشا المشهور بعد وفاة سعيد باشا وكلاهما من عائلة محمد علي باشا الكبير · وكان اسماعيل باشا مع ذكائــه المفرط محباً لعظمتــه حريصاً على استقلاله فــي امور بلاده فلم يعتل اريكة الخديوية حتى بدأ يعارض الاستانة في مداخلتها بامور مصر الخارجية ومعاملاتها مع الدول الاجنبية بقطع النظر عن الامور الداخلية . ولكن ما الفائدة من معارضته ويداه مغلولتان بالامتيازات الممنوحة لاسلافه من ولاة مصر اذ كانت هذه الامتيازات تحتم على الحكومة المصريــة عدم اجراء شيء مع الدول الاجنبية كعقد معاهدات وما اشبه ذلك الا بواسطة الحكومة العثمانية وكان اسماعيل باشا اعلم الكل بهذا الامر ولكنه لم يكن ممن تثني عزائمهم كثرة العقبات التي وقفت في سبيل اخراج تصوره لحيز الفعل فبذل جهد استطاعته في تحري الاسباب اللازمة لازالتها وعدها من اقدس الوظائف

عنده . حتى كانت هذه النقطة هي الشغل الشاغل له مدة حكمه على مصر وضف الى ذلك ان الرجل لشدة فطانته وذكائه وقف على احوال الاستانة تمام الوقوف وعرف اخلاق واوصاف جميع ذوي الحل والعقد الذين يشغلون اعلى المناصب فيها ولذا علم امكان حصوله على غايته بواسطة ما يحللونه هوءلاء الذوات من المحرمات وبناء عليه لم يتول اريكة الخديوية حتى بدأ في اظهار مآربه الفاسدة فارسل بعض اتباعه الى الاستانة مثقلاً جيوبهم بالاصفر الرنان ليوزعوها هنالك على اصحاب النفوذ والمكانة العالية اذ كان غاية ما يرمي اليه هو توسيع دائرة الامتيازات التي منحت للأسرة الخديوية من قبل الدولة حتى يكون مستقلا في امور الادارة الداخلية والخارجية تمام الاستقلال ويفعل ما يريد بدون رقيب ولا ممانع . فكان للوسيلة التي استعملها المشار اليه في سبيل الحصول على بغيته احسن تأثير عند اهل السراي واولياء الامور في الدولة العثمانية ولكن لا بد لأظهار الحقيقة بدون تحيز فنقول ان اسماعيل باشا لم ينل مآربه ايام صدارة فؤاد باشا وعلى الاخص على عهد عالي باشا ولم يحصل على بغيته تماماً اذ كان عالي باشا وقتئذ واقفاً له بالمرصاد ولكن

لم يأفل نجم هذا الوطني العظيم حتى فتح في وجه اسماعيل باشا باب الطريق الذي يوصله الى ما يريده واخذت الفرمانات تترى ولسنا نقصد كتابة تاريخ فرمانات الامتيازات المصرية او ايضاح المسألة بحذافيرها ولكن الذي لا بد لنا من قوله هو ان اسماعيل باشا صار بمرة حلوب للمابين حينما قبض محمود نديم باشا لاول مرة على زمام امور الصدارة فكان اسماعيل باشا يعطي على كل فرمان منح للحكومة المصرية مئات اوف من الجنيهات رشوة لذوي الحل والعقد في ادارة امور الدولة .

ولا مشاحة في ان اهل السراي كان لهم النصيب الاوفر من الاموال المنهوبة لعظيم مركزهم بين الناهبين فما قدمه اسماعيل باشا لمركز الخلافة من الرشوة لا يدخل تحت حصر وحساب اذ شمل هذا المال جميع اهل السراي ومن انتمى اليهم من الرجال حتى وصل الحال باسماعيل باشا في بذل الاموال الى درجة انه اعطى من اتى له بتحية من خليفة الزمان ثمانين الف جنيه وهي حقيقة معلومة عند جميع المصريين

وهكذا اضر السلطان بولاية تستظل بظل الخلافة

الاسلامية ان لم تكن تحت ادارته · فمنها يستنتج مقدار الخراب والضرر البليغ الذي يلحق بولاية يحكمها حكماً ادارياً

وفي الحقيقة ان ما لحق بالبلاد من المظالم والمغارم قبل هذا العهد لا يعد شيئاً بالنسبة لما لحقها من الخراب عن ايدي اهل السراي عَلَى عهد السلطان عبد العزيز · ولا بد لنا لكشف غوامض هذه المسألة واظهار مخبآتها من عطف النظر على معيشة واسراف اهل السراي وعددهم الذين هم منبع الخلل واساس العلل واليك جدولا يظهر هذه المسئلة باجلى بيان وهو مأخوذ عن ميزانية مستخرجة عن دفاتر ادارة الخزينة الخاصة كما ياتي

كان عدد من يعيشون من السراي لا يقل عن خمسة الآف وخمسمائة شخص ، والف ومائتي امرأة ، وثلثمائة وخمسين طباخ ، واربعمائة سائس وخدمة اصطبل ، واربعمائة نوتي ، واربعمائه من خدمة الموسيقى الخاصة ، ومايتي مصارع وملاعب للديوك ، والفي خادم وما يزيد على الثلاثمائة ياور وكتاب وتشريفاتية وما بينجية ، مع قطع النظر عن القهوجية والدخاخنية والغسالين وماشا كلهم · كما ان عدد الاغاوات الخصي لاينقص عن الثلثمائة

نفس وكان في معية اصحاب النفوذ من الخدم خلق كثير حتى كان عدد من يأكل من مطبخ السراي يربو على الستة آلاف شخص حالة كون اكثر هؤلاء من المتأهلين اصحاب العائلات وكانوا جميعهم يعتاشون من السراي

فمجموع ما كان يحضره المطبخ العامر يومياً من الاطعمة المتنوعة ما يكفي لسبعة او ثمانية آلاف نفس فيظهر للقارئ من هذه الميزانية السطحية مقدار ما انفق على هذه القصور من اموال العثمانيين ولا بد للقارئ من الوقوف على مقدار مايؤخذ من بيت مال المسلمين ويصرف على حشرات السراى حتى ترتسم امام عينيه حقيقة هذه الاقوال :

كانت ادارة الدولة العثمانية في دور الارتقاء وعلى الاخص شئوون المالية منها منظمة احسن تنظيم اذ كانت مخصصات السلاطين محصورة بقوانين لا يمكن معها ان يزاد على رواتبهم بارة واحدة ولو وقع شيء من هذا القبيل فهو نادر والنادر لا حكم له ولكن احوال السلاطين تغيرت منذ اخذت الدولة في الانحطاط وبقيت هذه القوانين لا حكم لها حيث صار سلاطيننا يعدون خزينة الدولة ما لهم او ثروة ورثوها عن

اجدادهم اذ يعتقدون ان الدولة ملكهم والشعب خدمهم ولا احد يملك فيها شيئاً · ولكن الوزراء ذوي الغيرة الذين ظهروا في اواخر سلطنة السلطان عبد المجيد وعلى الاخص منهم المرحوم رشيد باشا وضعوا للدولة ميزانية منظمة وافهموا السلطان وجوب تعيين المخصصات التي تأخذها الاسرة المالكة واقنعوه على تعيينها وبعد اخذ رايه حددت مخصصات السلطان وجعلت عشرين الف كيس اي ماية الف جنيه شهرياً وادخلت في الميزانية بموجب الاراد السلطانية الصادرة في السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ١٢٧١ ﻫ وجعلت مخصصات اولاد الاسرة المالكة من ذكور واناث خمسة وعشرون الف كيس وخمسون كيساً سنوياً فعلى هذا الحساب يكون مجموع ما يعطى للعائلة المالكة نيف ومليون ونصف من الجنيهات لا مقطوعة ولا ممنوعة ·

ولو قلنا ان واردات الخزينة كانت لا تزيد سنوياً عن عشرين مليون جنيه يظهر للقاريء هذا الغبن الفاحش ولا يصدق وقوعه في احدى ممالك الدنيا حتى عند المتوحشين ومع كل ذلك فان هذه التخصيصات وان كانت رسمية ولكنها

بعيدة عن الحقيقة بمراحل لان حشرات السراى كانوا يسحبون من الخزينة على عهد السلطان عبد المجيد في كل سنة ما يدنو من المليوني جنيه وكانوا يتجاوزون هذا الحد في أغلب الاحيان وليست اقوالنا هذه رجماً بالغيب أو محض اختلاق بل هي مأخوذة عما نشره الموظفون الاجانب بنظارة المالية في ذاك العهد مع مرور الايام . وبالجملة فان الاحوال في اواخر عهد السلطان عبد المجيد كانت عند هذا الحد . اما في اواخر عهد السلطان عبد العزيز فيستنتج مما نشره احد الموظفين الاجانب في اوروبا عن تسلط حشرات السراى على مالية الدولة وما تأخذه منها سنوياً وهو [1]

ان ما يتناوله السلطان عبد العزيز من خزينة الدولة سنوياً يبلغ نيفاً ومليون ونصف من الجنيهات وزد على ذلك انه أخذ في ظرف اربعة عشر سنة لانشاء القصور الشاهقة ما يربو على السبع ملايين جنيه ولم يدخل هذه الميزانية ما أنفق من الاموال على شراء المفروشات والحيوانات والجواهر وغيرها كما لم يدخل الميزانية ما أخذته الحشرات من اموال القروض

1 L'economiste Sranҫais

التي عقدت مع الاجانب ولم يدخلها أيضاً واردات الخزينة الخاصة الغنية ولو جمعت كل هذه الاموال لكان ما اخذه السلطان من خزينة حكومته جزاء خدمة لها يربو على الخمسين مليون جنيه وهو حساب لا يحتاج لدقيق فحص او عميق بحث هذا هو حال السلطان عبد العزيز في اواخر عهده وما اضربه حكومته وهذا الحال ناشيء بلا ريب عن عدم لياقته لهذا المقام الجليل وعدم اتصافه بالاوصاف التي يتصف بها الملوك. فاضطر بفعاله هذه مأموري الحكومة على ان يدوسوا بارجلهم القوانين والنظامات وحقوق الدولة والوطن حتى جهل كل من الموظفين في اعلى طبقات الحكومة قدر وظائفهم ومسئوليتها وهذا السلوك اي نتيجة اطوار الوارث المبذر كانت تنذر الجميع بقرب وقوع الدولة العثمانية في هوة لا نجاة لها منها (١)



(١) نحمد الله ان جميع تلك السيئات ابادتها حسنات الدستور

احوال الوكلاء وخطة مدحت باشا

مركز الحكومة في أواخر سلطنة السلطان عبد العزيز—خطة الوكلاء العثمانيين السقيمه — مدحت باشا—شيوع خبر مؤامرة حسين عوني باشا وشيرواني زاده رشدي باشا ومدحت باشا على خلع السلطان لاول مرة ـ اختلاط مدحت باشا بالعلماء — انتظار المستقبل

لابد لنا من ايضاح الهفوات التي وقعت من الموظفين في اعلى طبقات ادارة الدولة على أواخر عهد السلطان عبدالعزيز في الاستانة التي هي مركز ادارة البلاد العثمانية والمحور الذي تدور عليه كافة أمور الدولة العثمانية بما يلي :

كان السلطان عبد العزيز ومحمود نديم باشا يفعلان في الاستانة ما يريدان بدون معارض واتحدا معاً حتى أوصلا حالة البلاد العثمانية الى درجة لم يبق لها في الخارج ذرة من الاعتبار ولا في الداخل شيئاً من الراحة والامن . فالسلطان لم ير من الدنيا سوى اللهو والمسرات كما غرق نديم باشا في بحار الاموال التي يبذلها عليه اغناتيف وبقي امام تلك السفراء الروسية كالتمثال حتى اصبح الباب العالي وامور الحكومة جميعها آلة صماء في قبضة اغناتيف يديرها كيفما يشاء ويوجهها اي جهة

شاء وهكذا كانت احوال الدولة تزداد وخامة يوماً عن يوم ولكن..

أهل عدمت الاستانة اهلها في ذاك الحين ، أليس من مشتك هذه الفعال ، اما من واحد يتألم لهذه الاحوال ، اما من احد يسأل عنها ؟

فان كانت الاهالي عبارة عن المسلمين الذين يقطنون مقاطعات الاناطول ، والروم ايلي فهوءلاء يقدسون ذاك التمثال الذي تنبعث عنه عوامل الظلم والاستبداد حيث قد اسدل على عيونهم برقع الجهل الذين هم غارقون في بحر سيئاته منذ قرون . هم اعتادوا على تحمل انواع الذل والهوان حتى أصبحوا يعدون مجاهرتهم بطلب حقوقهم المهضومة « خروجاً على السلطان »

فالاهالي اعتادوا على تحمل عبء الظلم الثقيل حيث لم يذوقوا مدة حياتهم لذة العدل والانصاف . فلو طالعت تاريخ هذه الامة الاسلامية في عهد الدولة العثمانية لما رأيتها انصفت في دور من ادواره فالاستبداد مثقل كواهلها منذ القديم . ومع مغايرته للشرع المبين المحمدي ترى الحكومة نفسها

آمنة سوء المغبة ولذا لا تفتر عن إتيان المظالم والمغارم · اما اهالي الاستانة فان معظمهم يستخدم في دوائر الحكومة واقلامها ويرتقون في مناصبهم ومعائشهم من وراء استبدادها وعليه تجد اكثرهم يرجون دوام هذا الحال في ادارة الدولة لئلا تسلب منهم نعمهم حيث يعلمون انهم اكثر الكل استفادة من وراء هذا الاستبداد فالحكومة تراها لهذا السبب آمنة ايضاً جانب اهالي الاستانة ·

وهكذا كان لا يوجد بين الاهالي من يشكو مظالم السلطان عبد العزيز جهاراً او يتأفف منها في بدء هذه الاحوال ولكنه وجد اخيراً بين الاهالي من يجرأ على اظهار عدم رضائه عن هذه الافعال

وهذه الفئة تنحصر في بعض رجال الدولة واركانها ولكن ما السبب في عدم رضائهم ؟ لنفحص اولاً هذه الجهة ولا بد لمعرفتنا هذا السبب من تقسيم الوزراء المعارضين لسير الاعمال في ادارة الدولة حينذاك الى قسمين ·

فالقسم الاول هم اصحاب الافكار القديمة وهؤلاء كانوا اكثر الناس كدراً من هذه الفعال فحكموا بعد ان شاهدوا

بعينهم مجرى الاحوال في ادارة الدولة على ان الامة ستقع قريباً في ورطة هلاك قل ان تنجو منها وطفقوا يعدون دفع هذه المحاذير من اقدس الفرائض عندهم طالما هم اصحاب الحل والعقد في ادارة الدولة فكانوا يتمنون من صميم فؤادهم ازالة هذه المنكرات . ومع هذا فان هؤلاء الرجال كانوا لا يعلمون ضالتهم المنشودة من هذا الانقلاب الذين يسعون وراء حصوله ولم يدركوا مدلوله بل كان جل غايتهم ازالة تلك المساوئ التي يرونها باعينهم وكانت شغلهم الشاغل ومنتهى آمالهم . فانهم لم يكونوا يقدرون الامور الضرورية التي هي نتيجة احوال هذا العصر العمومية كما لم يدر بخلدهم المباشرة في اصلاحات حقيقية او بالحري فهم لا يقربون هذه الجهة ولا يريدونها . وزد على ذلك ان اكثرهم كان من الجهلاء الذين لا يدركون معنى المدنية الحديثة ولا وقوف لهم على احوال العالم حتى انهم كانوا يعتقدون ان تبديل أحوال الدولة على حسب مايقتضيه الزمان من الامور المستحيلة . فتراهم يتمسكون بالقديم قائلين « هذا ما كانت عليه آباؤنا » ولا يتركونه ما دام فيهم رمق من الحياة .

ولذا نرى وكلائنا لم يهتموا حينئذٍ بانتهاج محجة الاصلاحات

التي وضعت على عهد السلطان محمود خان تدريجياً وتعميم العلوم والمعارف وهي اكبر سلاح يتقلده الاوروبيون للذود عن حقوقهم بيننا مهما بلغت شدة الاحتياج اليها بل ذهبوا مذهب التمسك بالقديم ولم يعلموا ان سلامة الامة والدولة تتوقف على تعميم المعارف وكان اكثرهم يعد هذا الامر مروقاً عن طاعة الله وتقليداً للنصرانية و يعارض فيه اشد المعارضة فعلى زعم هوءلاء ان استئصال شأفة هذه المساوىء التي عمت بلادنا وفتكت بالاهالي فتك الوباء لا يمكن الا باعطاء الوظائف العالية لمن يعدون من محبي خير الدولة وصوالحها من الوكلاء وهي اقصى ما كانت ترمي اليه افكارهم وغاية ما تدركه عقولهم . وصفوة القول ان هوءلاء الوكلاء الذين نوهنا عنهم لا تنكر محبتهم لاوطانهم وسعيهم وراء منفعة بلادهم واصلاح ما اختل من أمور دولتهم ولكن مع هذا كله فان اعتقادهم هذا لم يكن من الامور التي تخرج بالدولة الى ساحل السلامة أو تنجيها من امواج بحر ذاك الاضمحلال المتلاطمة وهو امر لا ريب في صحته

وكان بين هوءلاء الوكلاء الذين هم من القسم الاول رجال يكرهون بعض الذين تولوا الوظائف العالية في ادارة

الدولة وازداد نفوذهم وطارت شهرتهم وعلى الاخص منهم محمود نديم باشا كرهاً لا مزيد عليه حتى اصبحوا وفي قلبهم نار تتأجج لاخذ الثار منهم ولو كانوا في برج مشيد .

أما القسم الثاني من الوكلاء : فكان افراده عبارة عن شخص واحد الا وهو الغني عن الوصف والتعبير ذاك الشهم الاداري الحازم من يستحق كل مدح واطراء مدحت باشا شهيد الأمة والوطن فأفكار هذا الرجل وذكاؤه المفرط بعيد عن وصف الواصفين واقواله المؤثرة ونفوذه واقتداره اعظم من ان يدرك حتى اذا سمع احد اسمه وخداماته للدولة ، ومصيبته الاخيرة لا يتمكن من عدم الانفعال معها مهما كان السامع عديم الاحساس فمدحت باشا أوتي من الذكاء والعقل وسعة الاطلاع على عواقب الامور اقصى درجة يوهبها الباري لقليل من الناس حتى ان ألد أعدائه يعترفون له بهذه الخصائل والفضائل عدا عما كان له من الشغف الزائد بالوطن وعدم التداني لارتكاب ما كان يرتكبه غيره من الرشوة او بيع الوطن كما تباع السلع او سقط المتاع

وكان مالكاً من الكمالات العلمية ما تؤهله احراز اعلى طبقة في اي وسط عاش او بين اي قوم وجد كما انه كان مفطوراً على

الجرأة وحب الشهرة الحقيقية محبة عظيمة فلا يرجع عن شيء عزم على اجرائه مرة ولو حال دون مبتغاه الف حائل وحائل اذ عنده ان الرجوع الى الوراء ضرب من المحال فلا ترهب اعينه العثرات العظيمة التي تقف امامه حجر عثرة بل يظهر المعجزات في ايجاد التدابير قصد الوصول الى ما يريده ويهواه . غني القريحة : لا يتأخر ولا يعجز عن اختراع الحيل والدسائس السياسية .

ذو نطق مؤثر : وفي تدبير امور ادارة الدولة قدير وماهر . اوتي « داهية الترك » هذا من سعة العقل وشدة الذكاء ما يمكنه من اجتياز العقبات التي يعذر معها كل حديث في سلكه كعدم حصول التوفيق او نقصان الممارسة ولو وجد في اي شعبة من ادارة الدولة العثمانية . فقد خلق شاذاً بين الوزراء العثمانيين اذ لا يخلو الامر من حدوث بعض الهفوات منهم وهي اعذار مقبولة لغيره ولكنها معدومة عنده

كان هذا الرجل احد المعارضين لمجرى السياسة الخرقاء في اواخر عهد السلطان عبد العزيز فأفكار مدحت باشا في هذا الامر وماله من الآمال العالية التي كانت مغروسة في عقله واحواله

ومشربه تخالف كل المخالفة آمال وافكار الوكلاء الذين ذكرناهم قبلاً حيث ان المشار اليه يعلم حق العلم سوء عاقبة الاحوال الجارية واستحالة ازالتها بعزل الوكلاء المضرين من ادارة الدولة وتعيين النافعين فيها كما كان يعلم تماماً ان لا بد للمحافظة على سلامة الدولة والامة من احداث تغيير في اصول ادارة الدولة وافراغه في قالب اتم وانفع وحصول انقلاب جدي داخل البلاد العثمانية

وكان كما قدمنا قبلاً قد تقلب في وظائف عديدة بجميع اقسام ادارة الدولة منذ زمن شبوبيته ووقف على دخائل الامور والاسباب المانعة لادارة الاحكام على محور الشريعة والعدالة وقد شخص منشأ الداء وعلم اسبابه فرأى ان الداء الوحيد في اضمحلال الدولة ومصيرها الى الخراب هو الاستبداد الذي اخذ يزداد عندنا منذ ثلاث قرون بصورة تخالف العقل والشرع وبصورة لم يرَ لها مثيل في جميع انحاء المعمور وهو تشخيص حكيم حاذق لا ريب في مقدرته فقد شخص الداء وعرف له احسن دواء وصحة هذا التشخيص ومقارنته للحقيقة زاد يوماً عن يوم حتى اصبح لا يشتبه في صحته كل من ذاق

طعم الظلم الذي نحن فيه الآن فقد بلغ درجة لم يصل اليها في قديم الزمان . فمدحت باشا قد ذاع صيته بما اتاه من الخدم العديدة في ما تقلده من الوظائف جميعها وبما اظهر فيها من ضروب اللياقة والاستعداد الفطري وكان قبل هذا التاريخ بثلاث سنوات قد ارتقى حتى بلغ منصب الصدارة ولكنه لم يلبث في هذا المنصب كثيراً اذ كان الوكلاء الذين يرجون الفائده والبقاء في مناصبهم من وراء تملقهم لاهل السراي والتفافهم حولهم يحسدون المشار اليه ولا يحبونه او بالحري يخافون شره وسطوته ولذا لم يكتفوا باسقاطه عن منصب الصدارة ولم يأَمنوا جانبه بعد عزله فسعوا جهدهم في ابعاده عن الاستانة واتحدوا مع حشرات السراي حتى نفوه ولكنه تمكن من العودة اليها بعد زمن غير طويل وفي اثناء هذه الفترة التي نحن بصددها كان في الاستانة وله فيها عدة سنوات بعد عودته من منفاه . وكان مدحت باشا نابغة وزراء عصره واقدرهم اطلاعاً على عواقب الامور وذا مبدء مخصوص والادلة كثيرة على حسن صفاته هذه ويمكن اثباتها بما كان يدور في خلده من التصورات والآمال الكثيرة التي كان يتصورها لتخليص وطنه مما كان

عليه من الذل والهوان

فالرجال الذين كانوا يرومون انقاذ وطنهم مما كان عليه من الاحوال المشئومة هم القسم الجزئي بين الوكلاء وكان لا يخطر على بال اكثرهم التشبث في شيء حيال هذه الامور والغريب هو انهم كانوا يشكلون الاكثرية وزد على ذلك علمهم علم اليقين ما ينتج من سوء العاقبة عند عدم اتمام اربهم فلم يجرأوا على ولوج باب امر وخيم العاقبة كهذا . فمسئلة الخلع على زعم العوام تفريط في حق السلطان والغالب على الظن ان هذا الاعتقاد هو السبب الوحيد في عدم جرأة هؤلاء الوكلاء على الخلع فلا عجب اذا وجد بين الوكلاء العثمانيين رجال من هذا القبيل في كل آن . حيث انهم جهلاء ولا يعلمون انهم مسئوون امام الله وعند الناس والامة بل كان اكثرهم يعتقد ان منشأ سعادتهم التي هم عليها هو السلطان ولا علاقة للامة برفاهيتهم ولا يفكرون في حقيقة يمكن الوقوف عليها لدى اقل تمعن وهي :

مصير السلطان سلطاناً واكتسابه للسلطنة والعظمة كل ذلك من كرم الامة فالسلطان بدون الامة لا يخرج عن حد رجل عادي ولا حاجة به لاحد وما دام السلطان

والوكلاء قد نالوا هذه الوظائف العاليـة بظل الامـة فهم مدانون لها عقلاً وشرعاً . ولكنهم لا يدركون هذه النقطة وعلى زعمهم ان سلطانهم ولو بلغ ظلمه ما بلغ او مهما كان مضراً فالقيام عليه وخلعه ضرب من ضروب الخيانة كما انهم لا يتهمون السلطان بالخيانة مهما ناب الامة من مظالمه ومغارمه او وقعت بيد الاعداء بلاد سفك على فتحها دماء ملايين من شهداء الحمية بل يكتفون بقولهم « قدر فكان »

فوزراوئنا في ذاك الوقت بل في يومنا هذا لا يزالون على تلك الافكار القديمة ولا حاجة لاثبات ما هو عليه الآن من تباين الآراء وتنوع الافكار . فلو كانت مثل هذه المعتقدات الباطلة عند العوام لما أوخذوا عليها ولكن ماذا نقول عن كبار رجال دولتنا الذين هم أصحاب الحل والعقد في امور الادارة اذا كانت هذه الاعتقادات راسخة في عقولهم بدلاً من تحريم الاسباب الموجبـة لهذا الاضمحلال وهم اجدر الكل بحل الغوامض ووقوفهم تماماً على مجرى الاحوال في ادارة الدولة

لا ندري سوى اننا ندعي بدون تردد عدم لياقة هؤلاء الرجال للمناصب التي يشغلونها وهي الكلمة الحقيقية التي لا يحتاج

اثباتها الى دليل او برهان . فاذا كان من شيء يشفع فيهم ويخلصهم من اللوم على قدر الامكان فهو معرفتهم ما ناب اسلافهم من الوزراء العثمانيين الذين عرفوا قدر وظائفهم وما هم مدانون به للامة وخدموا خدمات تذكر فتشكر من ظلم سلاطينهم الذي لم يتخاصوا منه وذهبوا ضحية خدماتهم فوزراؤنا الحاضرون ينظرون باعينهم الى عاقبة من تقدمهم من الوكلاء الغيورين فيروا انفسهم عرضة للأخطار

اما مدحت باشا فلم يكن في هذه الدرجة من الجبن والخوف وقلة الثقة بنفسه اذ كان يعلم تماماً جواز تضحية السلاطين عقلاً وشرعاً في سبيل سلامة الامة وسعادتها وضرورة محوهم من صفحات دفتر الوجود اذا كانوا هم العقبة الكؤد في سبيل تقدمها وان محافظتهم على الامة وردهم عنها ما يطرأ عليها من الاحوال المضرة اقدس عمل يؤدونه فهم المسئولون عن جميع ما يصدر من الهفوات التي تؤدي نحو الدولة وانحطاطها كما كان يعلم ان اطاعة السلاطين الذين لا يفكرون في شيء سوى شهواتهم النفسانية ولذائذهم الذاتية يغاير جميع القوانين

الموضوعة والطبيعية ورضوخ الامة وسكوتها عن هذه الاحوال لا ينتج سوى الاضرار البليغة ولوان شخص السلطان مقدس بعد اعتلائه سرير الملك والخلافة ولكنه لا يخرج عن كونه شخصاً كبقية الاشخاص فمن العبث ان يقدس مقام فرد يريد من أمة يربو عددها على الملايين ان تنقاد الى آرائه وافكاره المضرة ويستعمل سلطته في ما يوافق أهوائه و يشتت شمل الدولة و يقهرها وعليه فاحترام شخص كهذا حرام عند الامة الاسلامية التي تشرفت بدين يكره الظلم والظالمين و يأبى الا الحكم بالعدل بين جميع المسلمين بل من المحال رضوخ احدى هذه الامم لاحكام كهذه مبنية على الاستعباد والازدراء الامر الذي لا يقبله المتوحشون وتنفر منه الحيوانات الضارية . وما دام الظلم اساس كل شيء في الدولة فازالته فرض عين على كل وزير محب لوطنه ساعٍ في خيره من الوزراء العثمانيين وان التكاسل في دفع هذه المظالم والمغارم لمن الجنايات العظمى والخطيئات الكبرى التي لا يصح السكوت عنها وكان مدحت باشا يعلم كل هذه الاحوال وبناءً عليه كان يلقي تبعة تلك الثورات الداخلية على عواتق وزراء ذاك العهد ولم يستثن نفسه بل عد

شخصه من جملة المسئولين عنها . فقرر لزوم السعي في ازالة تلك المساوىء الحاضرة وانقاذ الدولة مما هي عليه من السقوط العاجل . ومن الروايات التي يوثق بصحتها ان مدحت باشا كان قبل هذه الفترة بثلاث سنوات اي منذ تولى الصدارة أول مرة قد رأى ماهي عليه الدولة من كثرة الاختلال والاعتلال فلم يستحسن سير هذه الاحوال وعلم انها ستقع عما قريب في ورطة هلاك لا نجاة لها منها فاراد خلع السلطان لانقاذها وسعى في خلعه ولكن حال بينه وبين الخلع موانع كبيرة اضطرته الى تأجيله مدة اخرى . ويقال انه قد جرت مذاكرة بهذا الامر بينه وبين كل من المرحوم حسين عوني باشا وبين شيرواني زاده رشدى باشا الذين هم اصدقاؤه الاخصاء وتذاكروا في الامر واكثروا من البحث والتنقيب ولكن داخلهم الشك من احوال شيرواني زاده رشدي باشا الخصوصية حين أرادوا تنفيذ فكرتهم وزد علَى ذلك ان السلطان عبد العزيز استدعاه في تلك الساعة ودار بينه وبين السلطان مذاكرات خفية استغرقت بضع ساعات زاد معها شكهما منه وخافا سوء المغبة فاتحد كل من مدحت باشا وحسين عوني باشا عليه كي

لا ينالا أشد العقاب اذا هو أفشى هـذا السر للسلطان ودأبا وراء نفيه حتى أبعداه عن الاستانة ولكنه توفي في منتصف الطريق بينما هو سائر الى منفاه

والروايات مختلفة في كيفية وفاته فالبعض يدعي ان وفاته نشأت عن اليأس الشديد الذي خامر فؤاده من غضب السلطان الذي لحقه والبعض يدعي ان جميع هذه الروايات المختلقة لا اصل لها وهي من قبيل المبالغات والاراجيف بل انما وفاته نشأت عن ما دسه له مدحت باشا وحسين عوني باشا من الدسائس. ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي ان مدحت باشا نفي بعد موته بيرهة من الزمان وابعد عن الاستانة · وعلى كل حال فان فكرة خلع السلطان قد ظهرت لعالم الوجود في هذا الدور حيث ان مسألة الانقلاب قد تداولت على السن الخلق في المحافل الخصوصية قبل حصولها بزمن غير قليل وهي توضح تماماً انها انما نجمت عن تلقينات مدحت باشا وحسين عوني باشا وتشويقاتهما التي اشارا اليهـا من طرف خفي · وهي حقيقة ما وضع موضع التداول من المذاكرات اذ لا يخفى على

كل عاقل ان الانسان مهما بلغ من القوة المادية والادبية ومهما كان قوي الارادة ثاقب الفكر لا بد له من معين على اتمام ما يبتغيه وعلى الاخص في المسائل التي تتعلق بادارة الدولة لتكون نتيجة عمله قرينة التوفيق . فاظهار فكرة الخلع التي تقررت بين عدة اشخاص من حيز القول الى حيز الفعل تتوقف على دراية واقتدار وجسارة ومتانة خارقة لما هي عليه من الصعوبة وعلى الاخص فان التسرع في اظهارها لما يوجب الندم اذ لا بد من اكتساب موافقة الرأي العام حيث لا يستبعد حصول ثورات عظيمة تراق فيها دماء كثيرة اذا لم يتخذ لها الحيطة اللازمة من قبل ولذا كان شهيد الوطن المرحوم مدحت باشا يشتغل فيها قبل حصولها بكثير من الزمن

فمساوىء الاحوال في ادارة الدولة ظاهرة للعيان ولكن قل من يعترض عليها او يشتكي منها وبناء عليه رأى من الضروري مراجعة الصنف الذي هو اكثر الجميع تأثراً من هذه الاحوال والذي يمكن بواسطته الحصول على هذا المقصد بسرعة وسهولة وهذا الصنف هو العلماء . ولذا كان يعلم مدحت باشا ان لا بد من استمالتهم نحوه حيث انهم الواسطة الوحيدة

في قضاء هذه المهمة كما انهم كانوا اكثر الكل معارضة للهفوات التي تصدر من حشرات السراي واكثرهم وقوفاً على حقيقة ما يجري في عموم ادارة الدولة من مساوىء الافعال . وعليه حصر المرحوم سعيه في استمالة بعض ذوي المكانة السامية من علماء الاستانة وسعى في ايجاد الوسائل لتمتين عرى المحبة معهم فشاد قصراً صغيراً وغرس حوله كرماً لا يتجاوز عدة فدادين خارج الطوپقبو[1] في عزلة عن العالم وهذا القصر لايزال معروفاً الى الآن (بكوشك مدحت باشا) فكان يدعو نخبة العلماء اليه في بادىء الامر واحداً بعد الآخر ثم صار يدعوهم زرافات وكان ينادمهم ويصاحبهم طويلاً حتى ازدادت معهم صحبته وتوثقت عرى محبته ولم تكن غايته من مصاحبتهم ومجالستهم اضاعة الوقت بل كان يتخذها وسيلة يتوصل بها الى ضالته المنشودة ويبحث عن المساوىء الموجودة في ادارة الدولة التي هي مشتكى الجميع وموضوع القال والقيل عند الرفيع والوضيع . ولم تكن غاية ما يرمى اليه من هذه

---

(١) هو احد ابواب الاستانة تخرج منه الركائب براً الى عموم بلاد الروم ايلي

الاجتماعات المتواليـة قاصرة على استحصال رضاء الحاضرين وموافقتهم على خلع السلطان وحصول انقلاب بسيط بل كان يشرح لهم احوال الادارة المطلقة وما ينجم عنها وعن تطبيقها على ادارة الدولة العثمانية وقد افهمهم بان السعي وراء تخليص الدولة مما هي عليه من الاضمحلال لا يكون الا بوضع القانون الاساسي موضع التطبيق وثبت هذه الفكرة في عقولهم ليعلموا ان السعى في نجاة الدولة من هـذه الاهوال واخراجها الى ساحل السلامة بدون هذا القانون ضرب من المحال واثبت لهم بالادلة الشرعية والايات القرآنية والاحاديث النبويةوالمؤلفات الاسلامية مطابقة اصول الشورى على الاحكام الشرعية وقد شرح لهم هذه الاحوال شرحاً مسهباً في مجالس الحب والمنادمة التي عقدها معهم فتمكن بمدة قليلة من استمالة جم غفير من العلماء نحوه ووقع رأيه المشار اليه عندهم موقع الاستحسان والقبول فامنوه على سعيهم من الان فصاعدا وراء حصول هـذه الغاية النبيلة وانهم مستعدون لبذل ارواحهم اذا اقتضت الحالة وهكذا حصل على موافقـة العلماء ورضائهم فراجت فكرة الشورى عند هؤلاء العلماء الذي كان وقتئذٍ

عددهم ينيف على الاربعين الفاً (١) رواجاً باهراً حتى كانوا يتحدثون فيها في مجالسهم الخصوصية كلما حصل عندهم اجتماع وكانت تتسع يوماً عن يوم حتى عمت جميع اهل الاستانة

وهكذا انتقل هذا الفكر الشريف الى اهالي الاستانة عن غير جهة فاثر على الرأي العام تاثيراً كبيراً وحاز عندهم قبولاً عظيماً

وكان مدحت باشا يعتمد على حزب تركيا الفتاة في وضع القانون الاساسي واصول الادارة الشورويه والمحافظة عليها حيث انهم اصحاب الاقلام السيالة الذين اكتسبوا ثقة الاهالي ومحبتهم بما كانوا ينشرونه من النشرات الحرة الحقيقية اذ كان لهم اليد الطولي في قبول الاهالي للقانون الاساسي وتعلقهم باهدابه حتى ان الاهالي كانوا يحافظون على نسخ جرائد الاحرار حفظهم على ارواحهم وقد كنا وفينا هذا البحث حقه من الكلام وقلنا ان جرائد الاحرار التي انشئت في باريز راجت عند الاهالي رواجاً كبيراً حتى وصلت قيمة النسخة الواحدة من جريدة « حريت » التي كانت تدخل الاستانة سراً بجنيه

---

(١) ولكن انقص عددهم منذ اعتلى السلطان عبد الحميد اريكة الخلافة الاسلامية

عثماني . وزيادة عَلَى ذلك نقول ان الحكومة مع شدة مراقبتها عَلَى جرائد الاحرار التي تنتقد اعمال الحكومة انتقاداً مراً كجريدة «حريت» وغيرها ومنعها من الدخول داخل البلاد العثمانية اعطت مطبوعات الاستانة نوعاً من الحرية اذ لم تكن كما هي عليه الان في حالة الاسر والضغط (١) بل كانت تنشر آرائها بحرية ضمير عَلَى قدر الامكان . ولنترك هذا البحث الان ونرجع القهقرى الى ما كنا عليه فنقول: ان المرحوم مدحت باشا كان يرمي الى غرضين من هذا الاجتماع يريد اصابتهما بسهم واحد: الاول وضع القانون الاساسي والثاني خلع السلطان عبد العزيز فكان يجالس العلماء ويصاحبهم ويستميلهم نحوه وايسعى في استحصال رضائهم على خلع السلطان من جهة ومن جهة اخرى كان يحرض جرائد الاستانة التي تتكلم بحرية ضمير «كما اشرنا سابقاً» على انتقاد احوال ادارة الدولة وتهييج الرأي العام تدريجاً وتشويقه الى الانقلاب الحقيقي لتخليص الدوله مما هي عليه من السقوط والخروج بها الى ساحل السلامة . ولا حاجة بنا لاثبات ما يعتري مسئلة الخلع من المشاكل الكثيره وما ينجم

---

(١) اي قبل الانقلاب الاخير

عن التسرع ونقصان التدبير فيها من الاضرار البليغة

ومع ان مسئلة الخلع لم تكن بالشيء الجديد عندنا اذ تقدمتها مسائل كثيرة من نوعها ولكن من امعن النظر يرى ان وضع القانون الاساسي لايسهل حصوله وعلى الاخص عند أمة لم تسمع له اسماً من قبل ودون قبوله مشكلات عظيمة تعتري القائمين بوضعه وتنفيذه وزد عَلَى ذلك وجود عقبتين كئودتين اكثر ممانعة من الاهالي في وضع هذا القانون

واحدى هاتين المشكلتين هي الوكلاء المتمسكون بالتقاليد القديمة وأصحاب العقول المظلمة والثانية هي حشرات السراي الذين لاتستبعد رغبتهم عن هذا القانون الذي يقضي على منافعهم الذاتية القضاء المبرم ومن المحتمل معاكستهم له عَلَى قدر ما يستطيعون من القوة ولهذين السببين كان يحتمل حصول مشاكل عظيمة تحدث بواسطتهم فيضعونها لتكون حجر عثرة في سبيل وضع هذا القانون وهكذا كان لابد من وضع هذه العقبات التي يمكن وضعها من طرف أهل السراي والوكلاء وعوام الناس نصب أعين من يريد خلع السلطان ووضع القانون الاساسي حين التأكد من وقوع الدولة في مصيبة وحينئذ يختار أهون

الشرين اذا لم يكن لنجاتها من سبيل آخر · فقد قدمنا قبلاً ان الطبقة الثانيـة من الاهالي والوكلاء وعلى الاخص حشرات السراي سيعارضون بلا شك في وضع هذا القانون حيث قد اعتادوا صيد الاسماك من معكر المياه (١) فلا يقربونه ولا يبتغون وضعه اذا لم يوضع رغم أنوفهم اذ هم يعتقدون انه انما وضع ليكون حائلاً بينهم وبين استفادتهم من ادارة أمور الدولة وخزينتها ولا يعلمون شيئاً أو بالحري لا يريدون ان يعرفوا غير ما اعتقدوا حالة كون العلائم ظاهرة تنذر بوقوع الدولة في بحر مصائب عميق وحدوث بعض الاحوال التي لا تحمد عقباها داخل البلاد العثمانية ولا بد من اتياننا بنبذة عن هذه الاحوال ليتسع للقاريء مجال الفهم علَى ماسيأتي من الوقائع ·



---

(١) مثل يضرب لمن يستفيد من اضطراب حبل الدولة او الامة



الثورات الداخليه والمداخلات الاجنبية

بعض الملحوظات على محاربة الروس مع الدولة العلية = دسائس الجمعية السلافية في بلاد الروم ايلي — دسائس الجنرال اغناتيف — ثورة الهرسك ونتائجها = التكاسل في مركز الحكومة بهذه الفترة = مسألة القناصل = المداخلات الاجنبية = بلاغ القونت آندراسي =

لو امعنا النظر في محاربات الدولة العلية مع الروسية لرأيناها تخوض غمار الحرب معنا في كل عشرين سنة مرة منذ عهد بطرس الاكبر حتى الآن ولا تظن ان هذا الحال ناشيء عن الصدفة أو موافقة الزمان اذ هو خطأ ظاهر باجلى بيان لا يعتقده الا كل من تعود سياسة الهزيان . فاذا امعنت معنا النظر اتضح لك الاسباب الداعية لنشوب هذه الحرب في كل فترة وآن:

مهما كانت صفة المحاربة وعلى أي صورة وقعت فانها بلا شك تزعزع اركان الدولتين المتحاربتين على السواء وتنهك قواهما وعلى الاخص اذا دامت مدة طويلة . . . حيث ان الحكومة تصرف عظيم همتها على المحاربة كي تأتي لها بالغرض المقصود وتتخذ كل وسيلة لفوز جنودها على الاعداء، فتغض

النظر حينئذٍ عن احوال الملك وتضرب صفحاً عن التجارة والزراعة والصناعة فتتعطل حركة البلاد وجميع ما يتعلق بحياة العباد. وزد على ذلك مصارفات الحرب الباهظة فانها توقع الخزينة بعسر شديد تضعضع ماليتها ولهذه الاسباب ترى الدولة المحاربة بعد خروجها من الحرب مهما كانت غنية في المال والرجال ومهما كانت عليه من سعة الجانب لا بد لها من وقت طويل ريثما تتنفس الصعداء وتصلح احوال ادارتها الداخلية

وقد جرب الروس هذه الاحوال مراراً ولذا تراهم يلتزمون الحياد مدة طويلة بعد كل محاربة اثار واغبارها علينا وخاضوا غمارها معنا كي يستريحوا من عبء الحرب الثقيل ويتمموا نواقصهم ويصلحوا ما اختل من أمور ادارة دولتهم . ولا يتعرضون لشيء ما حتى اذا ما أنسوا في انفسهم الكفاءة اثار واغبار الحرب مرة أخرى . وهي احدى الاسباب الداعية لمحاربتهم معنا في كل عشرين سنة مرة لا يتقدمون ساعة ولا يؤخرون

وعدا ذلك فان الحكومة المذكورة تشتبك في الحرب بعض الاحيان مع غيرنا من الدول كمحاربتهامع فرنسا على عهد

نابوليون الاول ومحاربتها مع السويد بعد فراغها من هذه المحاربة كما اضطرت الى حشد جيش جرار لاخماد ثورة المجر في سنة ١٨٤٨ وجملة هذه الاحوال الهتها عن التحكك بالشرق ولو مدة قصيرة . وما حدث من الثورات الكثيرة داخل بلاد هذه الدولة اضطرها الى بذل كل نفس ونفيس لتسكين الثورة وهو الذي أوهن قواها وكان اكبر رادع لها عن تعرضها للشرق . وبعد محاربة القريم بخمس سنوات سعت بعزم متين فاستأصلت شأفة ثورات القوقاز التي كانت تتأجج نارها منذ خمس قرون واستولت على ما بقي خارجاً عن طاعتها من هذه المقاطعة وبعد ثلاث سنوات ظهر في بولونيا ثورة كبيرة فسعت كثيراً في اخمادها وصرفت عليها طائل الاموال وسفكت دماء كثير من الرجال حتى توصلت الى اخمادها وبعد هذه الحادثة ببضع سنوات استولت على امارة «خيوا» الاسلامية في التركستان كما ضبطت بلاداً كثيرة في هذه المقاطعة وربطتها بها ربطاً قوياً محكماً

ومع كل هذه المشاغل التي كانت تشغل الروس لم تغفل أعين الامة الروسية وحكومتها عن الشرق بل بقيا ينظران

اليه شذراً . اذ كان أخص امالهم تنفيذ احكام وصية بطرس لاكبر في الاستيلاء على البلاد العثمانية وعلى الاخص الاستانه منها حيث انها مطمح انظارهم والشغل الشاغل لهم منذ عهده فبعد هذه المحاربة اسس عقلاؤهم الجمعية السلافية وهي كما قدمنا كانت اكبر عامل على قضاء مآرب الحكومة الروسية وتسهيل السبل في حل هذه المشكلة . وقد ساعدت الحكومة الروسية كثيراً اذ لم تتأسس حتى القت الحكومة وظيفة اهاجة العناصر النصرانية في البلاد العثمانية على عاتقها واحضار ما يلزم من والوسائل لاقامة معالم الثورة المقبلة وحصرت الحكومة جل همتها في ترتيب تفرعات هذه المادة ففي سنة ١٨٦٢ ميلادية عقدت هذه الجمعية اجتماعاً كبيراً في موسكو وطلبت من جميع الامم السلافية ارسال اعضاء من قبلهم لحضور هذا الاجتماع . ولكن لم يلب دعوتها غير السلافيين الذين يقطنون بلاد الدولة العثمانية فذهب من بلاد الصرب والبلغار والجبل الاسود كثير من السلافيين واشتركوا برغبة تامة في مناقشة المسائل الي وضعت موضع البحث والتنقيب وامتنع عن حضور هذا المؤتمر سلافي النمسا منتحلين كثيراً من الاعذار واكتفوا بارسالهم عبارات

الشكر لهذه الجمعية والثناء على اعضائها . وهذا الاجتماع هو
اول اجتماع رسمي عقدته الجمعية السلافية وقد اتخذوا تدابيراً
عديدة لما يلزم اجراؤه في الثورات القادمة ومن جملة هذه المسائل
مسئلة ما يجب عليهم اتخاذه من الوسائل عند سنوح الفرصة
المناسبة لاقامة معالم الثورة في جميع انحاء البلاد العثمانية
وعصيان السلافيين فيها وقد وضعت هذه المسئلة موضع البحث
والتنقيب فقرروا فيما بينهم اتباع الخطة التي تحققوا رجحانها
على غيرها وهي :

ان تكون مدينة موسكو المركز العمومي لهذه الجمعية وان
يكون لها فرع آخر في هذه المدينة وان تكون مدينة (بكرش)
مركز الجمعية الثانية وقد تشكل في البوسنه والهرسك وبلغاريا
وفي بعض المحلات الاخرى من المقاطعات المهمة جمعيات كثيرة
تستتر تحت ذيل الحماية الروسية وكنائس البلغار . ووظائف
هذه الجمعيات تنحصر في بث روح الثورة عند اهالي الروم ايلي
وتبشيرهم بواسطة الجرائد والمبشرين بقرب انقاذهم من نير
الاتراك واثارة افكار العناصر النصرانية التي تقطن هذه
المقاطعات وتهييجهم على الترك وتقوية آمالهم في حصولهم على

الاستقلال وتهيئة المحلات المناسبة من الآن لتخبئة الاسلحة التي ترسل لهم من قبل الجمعية المركزية وانتخاب الرجال الاكفاء الاشداء لاقامة معالم الثورة في المستقبل وارسال الجواسيس داخل المقاطعات المتنوعة لاختبار أحوال البلاد العثمانية وتهيئة جميع الوسائل اللازمة لتسهيل سبل العصيان وزرع بذور الشقاق بين العناصر المختلفة في البلاد فدأبت الجمعية على هذا المنوال سنة كاملة وسعى اعضائها بكل جد ونشاط وساروا على الخطة التي رسمت لاول مرة فصادفوا في كل أعمالهم نجاحاً باهراً كما اتضح من نتائج أفعالهم

كان مركز ادارة هذه الجمعية كما قدمنا في مدينة (موسكو) ولكن اغناتيف كان يعين لاعضائها الخطط ويهديهم الطرق التي يجب ان يسيروا عليها حيال كل طارئ فجائي يطرأ اوامر يقف لهم في سبيل اجراآتهم حجر عثرة

كما انه كان الفاعل المطلق في كل امر من امور الجمعية وقابض بيده على دفة الفساد يديرها كيف شاء و يوجهها الى اي جهة شاء وله الكلمة النافذة عند رجال الجمعية السلافية والكعب الاعلى بين اعضائها لا يأتون امراً بدون رأيه ولا يعملون عملاً

بغير استشارته . وهكذا تمكن هذا السفير المحنك من الحصول على ضالته المنشودة بواسطة هذه الجمعية حتى عم الفساد جميع البلاد العثمانية في زمن قليل ولكنه لم يبغ اثارة العناصر النصرانية على الدولة قبل الاوان لغاية في نفسه ولم يترك الفرصة حين سنوحها بل باشر عمله بكل همة ونشاط اما هذه الفرصة فهي : اننا نوهنا قبلاً عن ما وصل اليه نفوذ اغناتيف في ادارة الدولة بعد وفاة عالي باشا ولم يكتسب هذا النفوذ الا بواسطة محمود نديم باشا ولكنه لم يلبث في صدارته الاولى طويلاً حيث ان نفرة الاهالي منه وعدم محبتهم له اضطر السلطان عبد العزيز الى عزله ولم يكن من يخلفه في منصب الصدارة غير من خان وطنه وخدم سفير اعداء دولته وساعده على مفاسده الخفية ومقاصده الدنية ولما كان محمود نديم باشا احب الناس على قلب السلطان واعظمهم عنده قدراً ومنزلة استخدمه في اهم شعبات الادارة كنظارة البحرية وغيرها ولكن مركزه هذا لم يكن من المراكز التي يمكن معه ان يخدم سفير الروس ويساعده على قضاء اوطاره . ولذا جعل هذا السفير اعادة محمود نديم باشا الى منصب الصدارة نصب عينيه واتحد مع حشرات السراي

الذين هم اطوع اليه من بنانه فتوسطوا له عند السلطان حتى تمكنوا من اسناد هذا المنصب الجليل اليه ثانية وكان ذلك في سنة ١٢٩٢ هجرية

ومن هذا التاريخ وقع مركز الخلافة تماماً في قبضة حكومة الروس عدوتنا الازلية . ولم يكن الباب العالي هو الجهة الوحيدة التي وقعت تحت نفوذ السفير بل ان حشرات السراي والموظفين الاخرين كرضا باشا رئيس قوميسيون المهاجرين وكثيرين غيره ممن تربعوا في دست الوظائف العالية بهمة هذا السفير كانوا يخدمونه كما ان باب المشيخة كان تحت ادارة شيخ الاسلام حسن فهمي افندي الذي كان غريق بحر اموال السفير وهداياه

ومن المضحكات — وشر المصائب ما يضحك — ان شيخ الاسلام هذا لم يقدر حيثية منصبه حق قدرها بل كان آلة صماء في يد اغناتيف يديره كيف شاء . ومما يؤثر عن هذا الرجل وتداولته الالسن في النوادي الخصوصية في ذاك الحين انه قال ذات يوم لسفير الروس « انت احد عيناي وولدي حيدر العين الاخرى » وخلاصة القول ان الجنرال اغناتيف

نال في سنة ١٢٩٢ هـ من النفوذ في ادارة الدولة ما لا يحلم به احد من السفراء من قبل ومن بعد

وفي تلك الآونة كانت بلاد الروم ايلي جميعها كما قدمنا على اهبة العصيان بما دسه اعضاء الجمعيات السلافية من الدسائس تنتظر اشارة الجنرال كما ان مركز الخلافة كان تحت نفوذه وله القول الفصل في جميع امور ادارة الدولة او بالحرى كان الفاعل المطلق فيها . ولم يبق على السفير شيء يفعله سوى امر واحد وهو حسن التصرف في الامور بعد ان اوصل الحالة الى هذا المركز الحرج . ولم يكن اغناتيف من الرجال الذين يضيعون مثل هذه الفرصة فلم يقبض محمود نديم باشا ثانياً على زمام الباب العالي حتى سعى في اظهار مقصده الاصلي بكل قواه وامر اعضاء الجمعية السلافية بان تقيم الثورة في مقاطعة الهرسك التي هي المقاطعة النائية عن عاصمة البلاد العثمانية في الروم ايلي وثارت غبار الثورة على الخطة التي وضعها السفير من قبل وقد حدثت الثورة في ربيع سنة ١٢٩٢ هـ فبدأ قسم من اهالي الهرسك قبل هذا التاريخ بالامتناع عن دفع التكاليف الاميرية والضرائب المقررة بناء على ايعاز من اعضاء الجمعية السلافية ولما ان رأى

مركز الولاية هذا الحال ارسل مفرزة من الجند وكان القصد منها ارهاب الاهالي الذين امتنعوا عن اداء ما يجب عليهم اداؤه من الضرائب ولكن لم يأت ارسال الجند باقل فائدة سوى مجاهرة من بقي مخلداً للسكون من اهالي قرى تلك المقاطعة بالعصيان وهبوبهم للثورة فاستفاد من هذا الحال اعضاء الجمعية السلافية الذين ارسلوا الى تلك الديار لايقاظ الفتنة والتحقوا بالثوار جهاراً بعد ان ظلوا مدة مستترين تحت ذيل الخفاء . ومن جهة اخرى اوجب قرب هذه الولاية من حدود النمسا والجبل الاسود انضمام جم غفير من السلافيين الى الثوار والتحق بهم قسم من اهل الجبل الاسود حتى بلغوا عدداً كبيراً

وهكذا انضموا جميعهم تحت راية احد الاشقياء المسمى «باكوباولويچ» وهو شقي مشهور من اهالي الجبل الاسود وكان قد اشتبك قبلاً مع الدولة العثمانية في عدة محاربات ورأس العصاة اكثر من مرة فقرروا فيما بينهم علَى ان يقاوموا الجنود العثمانية حتى يفنوا عن آخرهم ولما ان وصل الحال الى هذا المركز واتخذ الثوار هذا الشكل الجدي رجعت مفرزة الجند المرسلة لتأديبهم القهقري نظراً لقلة رجالها ونفاذ ذخائرها فزادت

هذه الرجعة الثوار جرأة على جرأتهم . وكان والي البوسنة حينئذ درويش باشا رجلاً خبيراً باحوال البلاد واقفاً على غوامض الثورات المتنوعة واساليبها المتباينة اذ وجد في كثير من ثورات الروم ايلي ولكن ظهور العصيان وهلة اذهله واضاع رشده واعدمه التدبير . ومع هذا كله فقد ارتاء وجوب استعمال القوة امام الثوار فجمع القوة العسكرية الموجودة وزحف بها عليهم بدون اضاعة وقت ولكنه غلب على امره في واقعة حدثت بينه وبينهم في ٢٤ تموز سنة ١٢٩٢ ورجع بجنوده من هذه المعركة بخفي حنين . فنتج عن هذه الرجعة ازدياد نشاط الثوار واقدامهم على الثورة حتى سرت نارها الى جميع انحاء البوسنة والهرسك كما تسري النار بالهشيم . وانضم خلق كثير الى الثوار من اهالي هذه الولاية واهالي الحكومات المجاورة لها «كالصرب» «والجبل الاسود» حتى بلغ عدد من اجتمع هنالك من الثوار نيف وبضع آلاف وعلى رواية اخرى ستين الف او يزيدون

ولم تغفل عين اغناتيف بعد ان اوصل البلاد الى هذه الدرجة من الفوضى اذ لم يبلغه هذا الخبر حتى ارسل التعليمات اللازمة لاعضاء الجمعيات السلافية وقناصل الروس هنالك مبيناً

لهم طريق السعي وراء نفخ نار الثورة وطرق ايجاد وسائل المداخلة وقد اظهر في مركز الحكومة العثمانية ذكاء باهراً حيث ان القوة الموجودة حينئذ في البوسنة والهرسك كانت اقل من القليل فنادى امراء الجند في هذه الولاية طالبين من مركز الحكومة ارسال المدد ولكن اغناتيف اخرهم عن ارسال الجند قائلاً للوزراء العثمانيين «انكم اذا ارسلتم قوة عسكرية كبيرة واسرعتم في ارسالها ثقوا تماماً ان هذا الحال سيؤثر على الراي العام في اوروبا أسوا تأثير ويذهبون الى انكم تقصدون من كثرة هذه الجنود ذبح العنصر النصراني الذى يقطن تلك البلاد دفعة واحدة» من جهة ومن جهة اخرى فانه قدم الى الباب العالي بلاغاً رسمياً عن لسان حكومته وفحواه (ان من الواجب على الباب العالي تشكيل قوميسيون يتألف من قناصل الدول العظمى وارساله الى محل الثورة لاخمادها بما يتخذونه من الوسائل ولم يقصد بهذا البلاغ سوى افراغ المسألة في قالب سياسي واشعال جذوة الثورة ولما كان الباب العالي حينئذ طوع امره لم يرَ من يعارض رايه وفاز بامنيته

ولو ان الدول العظمى ابت المداخلة في هذه المسئلة بادئ بدء ولكنها رأت من العبث امتناعها عن هذا الامر بعدان رضى الباب العالي وهو حاكم البلاد وسيدها وارغمت على قبول اقتراح الحكومة الروسية واعطت لقناصلها التعليمات اللازمة وتشكل وفد يتألف من قناصل الدول وارسل الى تلك الجهة وهي فاتحة ذاك الفصل المحزن . ولم يلبث ان ظهر استحالة حصول فائدة من ارسال هذا الوفد اذ لم تكن الغاية من ارساله حصول فائدة بل كان القصد منه تسهيل حصول مقاصد الجنرال اغناتيف . اذ غاية ما يرمي اليه من ارسال هذا الوفد هو تشويق الثوار على الثورة وزيادتهم جرأة من جهة ومن جهة اخرى اكتساب الوقت لايقاد جذوة الثورة في البقية الباقية من قطعة الروم ايلي وتحريك ساكن المسألة الشرقية التي قرئ عليها صورة الحجاب منذ عشرين سنة وعرضها على انظار الدول الغربية واعطائها صفة رسمية . ومن الزوائد ان نقول ان السفير نال جميع ما يتمناه بواسطة هذه الثورة . اما وظيفة هذا الوفد فتنحصر في استفسار الثوار عما يبتغونه وتبليغ مطالبهم للباب العالي ونصحه على اجراء الاصلاحات التي تكفل حفظ الامن في

البلاد وتوزيع العدالة بين العباد . وقد قبل الباب العالي جميع هذه النصائح اودية واصدر عدة فرمانات تتعلق بالاصلاحات وعين سرور باشا قوميسيراً فوق العادة لمراقبة وضعها ولكن العصاة لم يتركوا السلاح متخذين ارتيابهم في وضع الاصلاحات الموضوعة موضع التطبيق حجة حتى اعادوا جميع هذه المخابرات بدون جدوى . فبقطع النظر عن عدم حصول شيء بواسطة المناصل فان الثورة قد تحولت الى مسألة سياسية ومن هذا التاريخ فتحت ابواب المسألة الشرقيـة للحكومـة الاوروبيـة والمطبوعات الاجنبية ولكن مرور الايام كان يزيد بالطين بلة وفي احوال الدولة وخامة وتفصيل المسألة :

هي ان الدول الاوروبية جميعها كانت تلتزم في هذه المسألة جانب الحياد حتى هذا التاريخ ومع هذا فان بعض الدول الاجنبية التي لا تهم لها غير بقاء دولتنا معززة الجانب منيعة الجوانب كانكلتره وفرنسا كانتا لا تفتران عن تقديم النصائح الوديه للباب العالي بواسطة سفرائهما في الاستانة وعلى رأيهما ان لا بد من اخماد ثورة البوسنه والهرسك بالتقريب العاجل وعلى اي وجه كان حيث انهما يعلمان ما تمشي عليه ولايات الدولة العلية في اوروبا من

الاحوال وقد خافوا الا تسري نار الثورة الى هذه الولايات اذا طال الزمان فيصبح السعي في تسكينها ضرباً من المحال ولكن انى للباب العالي ان يعير هذه النصائح اذناً صاغية والامر يومئذ لذاك السفير الداهية . فلما رأى سفراء الدول ان الباب العالي يصم اذنيه عند سماع مثل هذه النصائح من جهة ومن جهة اخرى رأت ان الدولة العثمانية قد وقعت في قبضة الجنرال اغناتيف سفير دولة الروس التي هي ألد اعدائنا اشمأزت نفوسهم من هذه الاحوال فاعرضوا عنا بعد التفافهم طول تلك المدة حولنا وحمايتهم لنا من مخالب اعدائنا ولم تلبث ان ظهرت نتائج تلك الفعال

اذ لا يخفى على كل من له المام بالسياسة ان دولة النمسا اكثر الدول الاوروبية بعد الدولة العليـة تضرراً من الثورات التي تحدث في قطعة الروم ايلي مهما كانت درجتها وعلى الاخص فانها مجاورة للولايات التي يكثر فيها الفتن فتقلق حركات الجمعية السلافية بالها وتخشى من ان تسرى روح العصيان عند السلافيين من رعاياها في بعض الاحيان وقد اجتمع فعلاً داخل مقاطعة دالماچيا التي هي على حدود البوسنه والهرسك من الثوار جم

غفير و بداء بينهم القال والقيل الامر الذي اضطر النمسا الى استعمالها القوة لتمزيق شمل هؤلاء الاشقياء وتدارك الامر قبل ان يزداد الخرق ويتسع و يقع القضاء حيث لا من يعصم ولا من يمنع . وبناء على هذه الملحوظات اتفق « الكونت اندراسي » رئيس وزراء النمسا مع الدول المعظمة على ان يرسل للباب العالي بلاغاً رسمياً لاخماد الثورة القائمة في ولاية البوسنه والهرسك باسرع ما يمكن من الزمان حتى لا يبقى لدسائس الروس مجالا ولا مكان . وقد ارسل هذا البلاغ رسمياً في ٣٠ كانون الاول سنة ١٢٩٣ هجرية وهذه هي محتويات البلاغ :

كتب الكونت للباب العالي بعد ان اوضح له احوال ولاية البوسنه والهرسك وجميع ولايات الروم ايلي ايضاحاً وافياً ونبهه الى لزوم السعي في اجراء الاصلاحات الاساسيه المهمة لاخماد الثورة وهذه الاصلاحات هي عبارة (عن مساوات العناصر النصرانية بالعناصر الاسلاميه في حقوقهم امام المحاكم وطرح الضرائب بصورة عادله ، وان يكن وضع الاصلاح موضع التطبيق تحت مراقبة اعضاء هيئة التفتيش التي يتشكل اعضاؤها من اهالي تلك البلاد العثمانيين نصارى ومسلمين وغيرهم

مهما كانت صبغة هذه الاصلاحات)

اما الباب العالي فانه قبل هذه اللائحة بكل ارتياح ولكنه اهمل امرها ولم يفكر في تطبيقها واجراء ما يلزم اجرائه من الامور الداعية لاخماد هذه الثورة حيث ان اجراء الاصلاحات وغيرها من الامور التي تعود بالخير علَى الدولة والامة اذا التبدلات التي حصلت في مركز الخلافة بعد هذا البلاغ ببضع ايام تركت الكل في هرج ومرج وزادت بالمركز حرجاً على حرج ولنبحث عن كيفية هذه التبدلات الآن طالما ان الوقت قد حان



اول الفصل

احوال الاستانة العلية — ازدياد الهياج عند الاهالي — حركات مدحت باشا — احوال حسين عونى باشا — بلاغ الكونت اندراسي وتأثيره على افكار الاهالي — اجتماع العلماء جوار جامع الفاتح وذهابهم الى الباب العالي — المواد التي طلبتها جمعية العلماء من الحكومة — تردد اهل السراي وتوسوسهم — اجتماع قناصل الدول في بك اوغلى — عزل محمود نديم باشا وحسن فهمي افندي ونصب محمد رشدي باشا وخيرالله افندي — انعكاس صدى الواقعة في اوروبا

كانت ولايه الروم ايلى في اوائل سنة ١٢٩٢ هجرية كما قدمنا شعلة نار يزداد سعيرها كلما طال الزمان عليها ولكنها لم تكن كل البلايا التي سلطها الله على البلاد العثمانية بل كانت احوال مركز الخلافة الاسلامية تزداد وخامة يوماً عن يوم وظواهر الحال تدل عَلَى قرب هبوب رياح مشؤمة تجعل سافل البلاد عاليها · وقد نوهنا في فصول تقدمت ان السلطان عبد العزيز عزل وولى سبع او ثمانية صدور عظام في مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات ولا بد من اتياننا على ادلة اخرى ليتخيل القارئ ما كانت عليه الدولة من الاحوال الداعية للاسى والاسف وليكن عَلَى بينة من هذه السيئات والاقوال كثيرة

على الغاية التي يرمي اليه السلطان من تبديل وكلاء الدولة على التوالي . فالبعض يقول انه انما كان ناشئاً عن رغبة السلطان في تولية محمود نديم باشا واعوانه منصب الصدارة وبعض النظارات المهمة والآخرون يقولون ان السلطان لم يجرأ على تولية محمود نديم باشا الصدارة نظراً لنفرة الاهالي منه وعدم محبتهم اليه ولم يقصد من هذا التبديل والتغيير سوي ازعاج الوكلاء ورجال الدولة عساه ان ينل بهذه الوسيلة ما يتمناه

وعلى كل فان مسألة التبديل والتغيير في اواخر عهد السلطان عبد العزيز لم تنحصر في مقام الصدارة بل سرت للنظارات الاخرى سريان النار بالهشيم حتى عدت ولا ترى احداً من النظار تجاوزت مدة نظارته بضع شهور وعلى الاخص فان الولاة كان لهم الحظ الاوفر من هذا التبديل والتغيير حيث ان الوالي الذي عين على احدى الولايات في الاناطول او الروم ايلي او في الجهات الاخرى لا يضع قدمه على عتبة الولاية حتى تسبقه الارادة الملوكية بنقله الى ولاية اخرى حتى ان اكثرهم بينما هو سائر في منتصف الطريق الا وارادة ثانية تأمره بالذهاب الى غيرها . فهذا الوالي القليل الحظ الذي تأتيه هذه المصيبة يصدع

بالامر ويذهب الى مركز ولايته الجديدة وبينما هو سائر اليها واذ بارادة ثالثة تنبئه بنقله الى غيرها . وكثيرون من الولاة من وقعوا في مثل هذه الاحوال وهي من غرائب هذا الفصل المضحك .

اما كون السلطنة لها مسوءلية خاصة او وظيفة يجب القيام باعباءها . . . . فهي ليست عند هذا السلطان . . . . خربت البلاد . . . . امر لا يعنيه ولا يسمع لاحد قولاً فيه . . . . احوال البلاد صائرة من رديء الى اردإ . . . . لا يلتفت اليها او يتعامى عنها . . . .

كانت الاحوال على ما وصفناها ولكن المثل يقول « لكل كمال زوال » وحقيقة هذا المثل كانت ظاهرة في هذه الاثناء ظهور الشمس في رائعة النهار — . وهو امر طبيعي ! . . . حيث ان السلطان مهما اظهر من ضروب العجز والتقصير في ادارة الدولة وعدم اللياقة لمنصبه لا بد لظهور عواقب هذه الاحوال الوخيمة من مدة مديدة كما ان وقوف الاهالي على وخامة هذه العواقب تتطلب مرور زمن طويل

ولا شك في ان قرائنا قد ادركوا مما اتينا عليه من البينات

حتى الآن عدم لياقة السلطان عبد العزيز لمقام الخلافة المقدسة . ولكن الحقيقة التي لا يشتبه فيها اثنان هو ان تعاقب تولي الرجال الاكفاء منصب الصدارة في اوائل واواسط عهد جلالته قد ستروا جزءاً من المساوئ التي نشأت عن اخلاقه . . . .

ولكن لم يقبض محمود نديم باشا على زمام الصدارة حتى اخذت حقيقة مزايا السلطان عبد العزيز الخاصة تظهر للعالم بشكلها المحزن وصارت المصائب تترى بعضها بعضاً . ففي هذه الآونة وقع بين الامة الاسلامية وعلى الاخص اهالي الاستانة منها هياج عظيم لم يسبق له مثيل وهو نتيجة هذه السياسة الخرقاء . فكانوا يتهمون السلطان ذاته بتهم عديدة واليك اهمها :

اولاً : لم يرَ للاموال من اثر وعلى الاخص في نظارة المالية بعد كل هذه القروض فعلى احدى الروايات (كذب كانت او صحيحة) التي كانت تتداول على الالسن ان القسم الكلي من هذه القروض الكثيره كان موضوعاً في صناديق بمستنقعات السراى . وعلى رواية اخرى انها كانت مودوعة في بنوك اوروبا . وبالاخص فانهم كانوا يقولون ان لدي والدة السلطان من الجواهر وغيرها من التحف الثمينة

ما يربو قيمتها على بضع ملايين من الجنيهات · ولا مشاحة في ان بعض هذه الروايات مبالغ فيها ولكن لا بد لنا من ان نضع نصب اعيننا احكام المثل العامي الذي يقول « لا دخان بلانار » وحينئذ نعلم ان بعض هذه الروايات لا تخلو من الحقيقة وان لها نصيباً من الصحة ولم تنحصر شكوى المشتكين من احوال ادارة الدولة في هذا الدور في افراد الاهالي فقط بل كان مأمورو الحكومة انفسهم اكثر الكل ضجراً منها حيث انهم اكثر الجميع وقوفاً على مجرى الاحوال العمومية : ورجال هذا الحزب كانوا يعتقدون ان محمود نديم باشا على وفاق تام مع اهل السراي على سوق الدولة الى هوة الاضمحلال

وقد قدمنا قبلا على ان تعيين الولاة ، والمتصرفين في الولايات ، والالوية ، وما اشبه ذلك من الوظائف العالية يتوقف على رضاء السفارة الروسية في الاستانة عن كل من يرشح الى احدى هذه الوظائف كما ان بقاء الموظفين في وظائفهم يتوقف على اتفاقهم مع قناصل الروس و حصول الالفة بينهم · وهذا الحال كان بلاشك داعياً لمس احساسات وطنية القسم الاعظم من اصحاب المروءة والشرف من الموظفين و نفرتهم من الحكومة العزيزية

ولا نغالي اذا قلنا انها احدى الاسباب (وربما كانت اعظمها) الداعية لزرع بذور العداوة في قلوبهم لهذه الحكومة ورؤساؤها ·

وزد على ذلك عدم قبض عموم الموظفين رواتبهم من عهد بعيد اذ كانت واردات المالية جميعها تدخل مستنقعات السراى وتدفن هنالك ·· حتى كان الموظفون في دوائر ادارة الدولة جميعها قد وصلوا الى درجة اشرفوا معها على الموت جوعاً لعدم قبضهم رواتبهم

اما اسباب اشمئزاز الاهالي : فهؤلاء وبالاخص الاغنياء منهم كانوا قد اضاعوا ثروتهم مرة واحدة في مسئلة القونسليد « الاوراق المالية » التي نوهنا عنها فالاغنياء الذين كانوا قبلاً يعيشون مع عائلاتهم بالبذخ والترف باعوا ما فوقهم وما تحتهم بعد افلاس الحكومة وباتوا على الحصير ، واصبحوا بظل الخليفة لا يملكون شروى نقير · والذي زاد بالطين بلة وضاف على الاعتلال علة هو تشديد المراقبة على المطبوعات العثمانية وحصر نطاق مباحثها « نسبة » في دائرة لا يمكنها معها ان تخرج عن حد اعلان بسيط فاصحاب الاقلام في الاستانة كانوا يدركون سوء الاحوال في ادارة الدولة ويعلمون اكثر الكل ما ينجم عنها من الاهوال ويعدون ايقاف

ابناء وطنهم عليها من اقدس الامور عندهم . ولكن اني لهم ذلك وقد تحكمت حلقات استبداد الحكومة بالمطبوعات فاصدرت اوامرها الى المراقبين بتشديد النكير عليها حيث ان حرية المطبوعات لم توافق مشرب الحكومة واولياء الامور فيها ولذا كان المراقبون يحذفون من الجريدة جميع المقالة التي يرون فيها جملة او حرفاً مغايراً للقواعد المتبعة عندهم و يحذفون فقرات كثيرة من المقالات التي يساعدون على نشرها لطفاً منهم حتى كان هذا الحال من اكبر البواعث على صدور الجرائد نصفها او ربعها وبقاء عدة اعمدة منها بدون طبع الامر الذي اوجب اشتداد بغض الاهالي لحكومتهم وترك ميداناً فسيحاً لتأويلهم . ولم تكن هذه السفاسف وحدها هي التي اوجبت نفرة الاهالي من ادارة الحكومة العزيزية بل ان ثورات الروم ايلي وما هي عليه من الاحوال الداعية للاسف كانت اكبر داع لاشتداد هياج الاهالي ورجال الحكومة الصادقين وعدا ذلك فان ثورة البوسنه والهرسك تركت جميع العقلاء من العثمانيين في حيرة لامزيد عليها حيث انهم يعلمون ان ضياع البلاد وانسلاخها عن الدولة تتقدمها الثورات في كل آن وتعقبها المحاربة مع الروسيه وتنجلي

هذه المحاربة عن وقوع قسم من بلاد الدولة في يد الاعداء ·
كيف لا واستقلال الصرب واليونان امام اعينهم كالهيكل المجسم
وشواهد ثورة البوسنه والهرسك تدل دلالة واضحة على حصول
نتيجة تشبه نتائج ما تقدمها من الثورات · اما الاحوال التي نبهت
الاهالي الى قرب حصول هذه النتيجة المحزنة فهي :

كانت الصحف على ما قدمنا من شدة المراقبة لا تجرأ على
بيان الحالة الحاضرة جهاراً ولكنها كانت تشير من طرف خفي
الى ما هي عليه بلاد الدولة العثمانية من الفوضى وهذا الحال كان
السبب في وقوع هياج كبير بين اهالي الاستانة وزد على ذلك
ان رواية « وطن » او «سلستره» احدى مؤلفات نامق كمال بك
المشهور مثلت مراراً في مرسح التمثيل الكائن في «كدك باشا»
وابكت الحاضرين بدل الدموع دماً وتركت اهالي الاستانة في
هرج ومرج والذي زاد في الحال وخامة هو نفرة بعض
وكلاء هذا العهد من اعمال الحكومة الحاضرة ودأبهم وراء
تحريك الاهالي على السلطان · وقد قلنا في الفصول الماضية
ان مدحت باشا كان ينوي خلع السلطان وبينا جميع الوسائل
التي اتخذها لخلعه

ففي اثناء هذه الحوادث كان المشار اليه لا يضيع دقيقة بدون جدوى بل سعى جهده في ايقاف هذه السيئات عند حدها وارتأى لزوم مراجعة حسين عوني باشا قبل الجميع والحصول على موافقته اذ كان جميع امراء الجندية الذين اشتهروا بطول الباع وسعة الاطلاع على الامور العسكرية في ذاك الحين من تلامذة حسين عوني باشا وله عندهم اعتبار ونفوذ شخصي كبير عدا عن نفوذ المقام الذي يشغله . ولا نغالي اذا قلنا انه كان اكثر وكلاء عهده نفوذاً واعتباراً وكان يعاكس حشرات السراي في كل شيء، ولا يحفل بأوامرهم حتى ازهب اعينهم وخلص الخلق من شرهم على قدر الامكان والاسباب في عدم رضاء حسين عوني باشا عن مجري الاحوال في ادارة الدولة كثيرة وهاك اهمها:

السبب الاول في عدم رضاء هذا الوطني الغيور : ناشيء عن مساوىء السلطان عبد العزيز الشخصية واستبداد اغناتيف بالباب العالي والوزراء وما كان يعاملهم به من المعاملات التي تمس باحساسات كل وطني يغار على وطنه ومصلحة بلاده ثانياً — مداخلات حشرات السراي في امور الجندية كل

وم بل كل ساعة وصدور الارادات المتوالية المتناقضة كلما
سعي في اجراء امر يعود على نظارة حربية الدولة بالفوائد الجزيلة
كتنظيم المعسكرات على الاصول الحديث وادخال الاصلاحات
الجدية في الجيش وتنسيقه على اصول اوروبا واجراء بعض
التبديلات والتغييرات التي يقتضيها الزمان كي لا يبقى الجيش
العثماني دون الجيوش الاوروبية علماً بالاساليب الحربية وفنونها
الحديثة المتنوعة . وكان كلما سعى في امر من هذه الامور لايرى الا
كارادة صادرة بممانعته حتى عجز عن ايفاء وظيفته كما يحتمه عليه ضميره

ثالثاً : راى المشار اليه الخلل الفاضح في امور الدولة وسيرها
السير السريع الى هوة السقوط والاضمحلال فعلم ان الوطنية
تحتم عليه بالسعي وراء تخليص الدولة والامة مما هي عليه من
الزوال .

رابعاً : وهو اتم الاسباب - ان المشار اليه نفي مراراً من
وطنه وابعد عن مركز السلطنة بدون ذنب جناه وقد تحقق
ان وجود السلطان قد اضر بالدولة العثمانية والخلافة المعظمة
الاسلامية وحط بقدر العائلة الملوكية . فاراد ان ينتقم منه
ومن اعوانه الذين خانوا وطنهم عن علم ولم يحسوا باقل وخز

من ضميرهم والذي ينظر الى احوال حسين عوني باشا،وصد
واستقامته ، وما كان يعامل به هؤلاء الاداني من المعاملا
ومركز الكبر والعظمة الذي كان يتخذه حيالهم يعلم م
تشوقه الى حصول الانقلاب في امور الدولة وفداء كل نف
ونفيس لديه وراء تخليص الامة والوطن ٠

ولهذه الاسباب جميعها كان المرحوم اكثر تشوقاً
مدحت باشا الى الانقلاب الجدي و بناء ادارة الدولة
اساس متين ٠ ولكن من الحقائق الراهنة انه كان ينبغي قبل
شي خلع السلطان واراحة الملك من عناءه وازالة المساو
الموجودة في ادارة الدولة من جذورها وترك تفرعات المس
الى ما بعد الخلع ٠ اما مدحت باشا فانه كان بعكس ذلك يبح
عن ما يلزم اتخاذه من التدابير بعد الانقلاب وقد رسم الخ
التي سيجري عليها من هذا التاريخ

وعلى كل فان الاتفاق قد تم بين مدحت باشا وحس
عوني باشا بسرعة غريبة وبدون حصول اقل تردد عند ا
الطرفين ٠ فاخذا يبحثان عن التدابير اللازمة لاستئصال ش
الثورات والذى ساعدهما على اتمام مآربهما هو نفرة اه

ستانة من ادارة الحكومة العزيزية واشتداد الهياج عند
قوم العثمانيين هذا عدا عن فدح الخلل في ادارة الولايات
الشانية واتساع نطاق الثورة داخل البلاد . وزد على ذلك فان
غ الرسمي الذي أرسله الكونت اندراسي للباب للعالي كان
بر العوامل على اتمام أربهما حيث كثر عنه القيل والقال
وصار حديث النساء والرجال فعم الخوف عموم الاهالي ودارت
على السنة الخلق اشاعة مؤداها « ان السلطان قد اتفق سراً مع
الجنرال اغناتيف على ان يجعل نجله يوسف عز الدين افندي
ولياً لعهده قبل الاهالي أم لم يقبلوا وان يأتي بثلاثين الف
جندي من الروس لتأديب كل من يعارض في الامر » وتناقلت هذه
الاشاعة السن الاهالي فزادت في بغضهم للسلطان . ومع هذا فان
محمود نديم باشا كان اكثر الكل هدفاً لسهام تنديد قومه وسخطهم
فكانت تنزل عليه اللعنات كالوابل الهطال حتى اصبح القوم
كبيرهم وصغيرهم لا يتركون ادنى كلمة الا ويقولونها في حقه
ويلصقون به اشنع التهم ولا يخشون في قولهم لومة لائم .
وتداولت مسألة الرشوة عَلَى السن العوام وبالغوا فيما يأخذه
محمود نديم باشا من الجنرال اغناتيف حتى كانوا لا يتكلمون الا

بالملايين · وشاع في هذه الفترة اشاعة بين مسيحي الاستانة مؤداها:
« ان مسلمو الاستانة سيذبحون النصارى ويمثلون بهم ويسيلون
دمائهم انهاراً » فالقت هذه الاشاعة الرعب في قلوبهم واحتاط
الكل منهم لنفسه وتسلح بما عنده وما وصلت اليه يده من
الآلات الجارحة والاسلحة النارية حتى لم يبق في مخازن الاسلحة
في الاستانة شيء يتعلق بالسلاح

وكان مدحت باشا وحسين عوني باشا واقفان على هذه
الاشاعة تمام الوقوف حيث انهما كانا لا يفتران عن مراقبة احوال
الاستانة الخصوصية ويعقبان امور الدولة وافكار الامة خطوة
بعد خطوة وينظران اليها في منظار الحقيقة وقد علما حلول
الوقت الذي ينتظرانه لاخراج آمالها ومقاصدهما الشريفة من
حيز الفكر الى حيز العمل · فانتهزا هذه الفرصة بدون اضاعة
دقيقة من الزمان واختارا بعد طول البحث والتنقيب احسن
الطرق ليسيرا عليها وراء غايتهما وهي :

اجتناب الامور التي توجب استياء الاهالي « ولو القسم
الجزئي منهم » واستعمال الحزم والتروي في مسألة خطيرة
كمسألة الخلع حيث ان اقل هفوة تصدر من احدهما ينعكس

معها الحال ويسوء المآل وتكون عاقبتها عليهما شراً ووبالاً ومع ما هي عليه الاهالي ومأمورو الحكومة من البغض للادارة العزيزية ورغبتهم في حصول الانقلاب رغبة لا مزيد عليها وانتظارهم وقوعه بفارغ الصبر، ووزن الاحوال العمومية كما ينبغي، وترتيب بروجرام مظاهرة وطنية تعتاد الاهالي على أمثالها كي لا تقلق خواطرهم من الواقعة القابلة وليكونوا على بصيرة منها . قررا استخدام طلبة العلم في سبيل الحصول على مقصدهما لعلمهما مداخلة هؤلاء في مثل هذه الامور وسهولة ادارتهم وضبطهم عند اللزوم وعدم اخلالهم بالامن العام واتيانهم امراً من الامور التي تكدر صفا الراحة وقد راجعاهم فعلاً . ولكن طلبة العلم كانوا على جانب عظيم من الهياج وكان يشتد عندهم هذا الحال في بعض الاحيان وهو ناشئ بلا شك عن التحريض الذي كان اساتذتهم يلقنونه لهم ويشيرون به اليهم من طرف خفي وكان بينهم من يشكو أفعال الحكومة جهاراً ويتظاهر بعدم الرضوخ لاوامرها مراراً وزد على ذلك ان الخطة التي اتبعوها في انتقاد أفعال الحكومة وأوضاعهم وأطوارهم والمركز الذي اتخذوه حيالها يدل دلالة

واضحة على وجود مسألة خفية تكنها صدورهم ويشتم منها رائحة سعيهم في امر ذي بال · وعلى كل حال فان طلبة العلوم بدأت تتجمع في يوم الخميس من منتصف شهر ربيع الاول سنة ١٢٩٣ حول مدارسها وعلى الاخص حول المدارس التي هي بجوار جامع السلطان محمد الفاتح ودار بينهم الحديث سراً وكانوا كل ما اخذت جمعيتهم بالازدياد يرفعون اصواتهم ويجاهرون في شكاياتهم حتى بلغ صياحهم عنان السماء ·

ولو ان ضوضاءهم هذه كانت تحول دون فهم اقوالهم وما يتحدثون به حيث كان يخرج من كل رأس صدى ولكن كان يعلو هذه الاصوات صوت « وقتنا هذا ليس وقت تعلم ، ولا مطالعة دروس ، الحكومة على شفا جرف هار من الاضمحلال ، فالدولة والامة على وشك الزوال ، يجب علينا ان نسعى وراء انقاذهما قبل ان يتعذر علينا خلاصهما » وقد دامت هذه الضوضاء ساعة من الزمن والتحق بهم خلق كثير من عوام الاهالي وخواصهم فلما ان رأوا كثرتهم اخذوا في ترغيب بعضهم بعضاً على التقدم الى الامام والزحف على نظارة الحربية

ولما تكاثرت جموعهم زحفوا على نظارة الحربية من جهة

« البايزيد » فوقف حينئذ بينهم بعض العلماء الذين لا علم لهم عن هذا الاجتماع وغاية ما يرمي اليه ونصحوهم في عدم تقدمهم وارادوا ممانعتهم ولكن تهافت اهالي الاستانة على الالتحاق بهذا الجيش العرمرم وانضمامهم اليه من كل صوب وحدب كان من اكبر العوامل عَلَى عدم رضوخ طلبة العلم الى اقوال بعض اساتذتهم . ولا مشاحة في ان بعض افراد هـذه الجمعية ايضاً ومن التحق بهم من الاهالي كانوا لا يعلمون شيئاً عن هذا الاجتماع بل كان الذين جاؤا للفرجة يلتحقون بالجمعية و يتبعونها ايما سارت حتى خيل للرائي انها قيام عمومي او ثورة اهلية

وقد سعي قومـاندان نقطة الفاتح « سواء كان بصورة حقيقية او من قبيل المجاملة » في ممانعة الطلبة عن تقدمهم الى الامام واراد ان يحول بينهم و بين التقدم بالقوة الجبرية فوضع الجنود في نقط مختلفة من الطريق ونصحهم على العدول عن تهورهم ولمـا ان رأى عدم رضوخهم الى اوامره هـددهم واوعدهم ولـكـنـه احفق سعياً وعاد من حيث اتى

حيث ان الاهـالي وطلبة العلم الذين كانوا يسكنون الجهات المختلفة من الاستانة لم يطرق آذانهم خبر قيام علماء جامع الفاتح

حتى تهافتوا على هذه النقطة المركزية وانهالوا عليها كالسيل الجارف واحاطوا بالجند احاطـة السوار بالمعصم وتركوهم حياري لا يعلمون ماذا يصنعون · وهكذا ظلت جموع العلماء زاحفة بضوضائها الى ان وصلت ميدان نظارة الحربية ولم تقف فيه كثيراً فتركته وسارت وجعلت وجهتها الباب العالي ·

وحركتهم هذه تدل صراحة على انه كان بين الجمعية رجال يقودونها و يسيرون بها على الخطة التي وضعت من قبل وهم مستترين تحت زيل الخفاء · وفي هذه الاثناء كان العلماء وطلبة العلم يطعنون على الصدر الاعظم وشيخ الاسلام حسن فهمي افندى جهاراً وزادوا بالتهديد والوعيد حتى طرق كلامهم هـذا آذان القريب والبعيد حتي اذا دنوا من الباب العالي نادوا جميعاً بلسان واحد « لا نريد الصدر الاعظم ولا نريد شيخ الاسلام » وكرروا هذا العباره

فشاع خبر اجتماع العلماء بجوار جامع الفاتح وزحفهم على الباب العالي بسرعة عجيبة وانتشر في جميع انحاء الاستانة وضواحيها حتى لم يبق احد الا وسمع هذا الخبر · وكان محمود نديم باشا وشيخ الاسلام اكثر الكل تأثراً من هذه الحوادث

حيث كان اسم النديم يتداول على السن الخلق بالتحقير يسجون بشتيمته ويهللون بلعنته على رؤوس الاشهاد غير مبالين به وبمقامه · فوقع النديم بادئ بدء في حيص بيص ووقف في غرفته كمن تسمرت ارجله بالارض وظل باهتاً لا يدري ماذا يفعل برهة من الزمن ولكنه استفاق من غفلته فجمع من ضعفه قوة ومن وهنه جرأة فترك مقامه وولى هارباً الى سفارة العجم التي هي على قاب قوسين من الباب العالي · اما شيخ الاسلام فانه لم يبد من المتانة والجلد اكثر مما ابداه الصدر الاعظم اذ لم يطرق اذنه خبر المظاهرة التي اجرتها جمعية العلماء ضده وعزمهم على ارسال هيئة الى باب المشيخه حتى فر من دائرته كما يفر الطير من وجه الصياد واختبأ في بيت احد اقاربه

ولا تسل حينئذ عن احوال السراي فان مظاهرة طلبة العلم جعلت عاليها سافلها واوقعت الرعب الشديد في قلوب حشراتها · · · · لأن من الحقائق الثابتة ان الملوك المستبدة تضع نصب اعينها جناياتها وجرائمها وتوجس خيفة من الاهالي وتبقى محترسة منهم على الدوام

حيث ان المستبدين يرتكبون الجرائم ويقتلون افراد

الاهالي عند صفو الليالي . ولكنهم يوجسون خيفة عند اول اعتراض يقع على اعمالهم او هياج يحدث داخل عاصمتهم . ولا يأمنون جانب احد و يرون جميع اهل الدنيا اعداء لشخصهم و يعجزون عن المقاومة مهما بلغ من جرأتهم ولذا ضاع رشد السلطان عبد العزيز عند سماعه هذه الحادثة وحار في امره وخامر الخوف الشديد قلبه وتشنجت اعضائه ومفاصله ولم يبق له ملجأ للخلاص وعلم انه سينال اشد القصاص . ومع هذا فلم يأخذ هذا بالسكوت حتى توسل في اتخاذ بعض التدابير اللازمة متبعاً فيها الخطة التي رسمها له بعض الذين حافظوا على عقلهم اثناء الحادثة فاستدعى للسراي بعض الوزراء والرجال الموجودين وارسل للجمعية الباش ما بينجي والسرياور وجميع الرؤساء فاستفسروا منهم عن قصدهم من هذه المظاهرة فتقدم اثنان من العلماء وعددوا لهم ما ناب الحكومة من الرزايا والمصائب من جراء افعال الوكلاء عديمي الاهلية والحمية وافصحوا لهم عن عدم ممنونية مأمورو الملكية ، وامراء الجندية والتجار ، والاصناف ، وعموم العثمانيين عن افعال الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وطلبوا عزلهما وتعيين الرجال الاكفاء الذين نالوا

ثقة الامة مكانهما

وكان يعلو هذه الضوضاء اصوات ترشيح مدحت باشا او رشدي باشا لمقام الصدارة وخيرالله افندي للمشيخة الاسلامية · فنصح مندوبو السراي طلبة العلوم واوعدوهم المواعيد الكثيرة قصد تفريقهم ولكن لم تأت نصائحهم بأقل فائدة بل ذهبت مع الريح اذ اصر افراد الجمعية على عدم مبارحتهم محلهم دون ان يروا انفسهم قد نالوا جميع مطالبهم المشروعة فرجع مندوبو السراي من حيث أتوا وعرضوا على الذات الشاهانية ما سمعوا وكانت السراي حينئذ مرتبكة ولشدة ارتباكها لم تقر حشراتها على شيء حيث انهم جميعاً كانوا في هرج ومرج ولذا لم يبق فيهم من يقدر على ابداء فكر بهذا الامر · ومع هذا فقد رجحوا اخيراً ان ينتظروا ريثما تجتمع الوزراء حيث ان اكثرهم قد احتاط لنفسه ولازم مخبئه بعد ان رأوا تقهقر السراي وعجزها عن اجراء شيء امام هذه الجمعية كما انهم كانوا فرحين لهذا الحال يتمنون ان لو تقع اهل السراي في اشر الوبال ومن جهة اخرى كان رجال الحزب الذي يميل اليه السلطان عبد العزيز يرون بأعينهم هول الموقف ولا

يجرأون على ترغيب سلطانهم للمقاومة . اللهم الا سفير الروس اغناتيف فانه لم يسمع بهذه الحادثة حتى ارسل للسراي رجاله يستحث السلطان على المقاومة واصر على هذا الامر اصراراً كبيراً . وكانت رجال الجمعية في هذه الفترة تنتظر نتائج مطالبها بجوار « السركه جي » و « الباب العالي » وانتظروا حتى المساء ولم يظهر شيء من هذا القبيل وحينئذ رأى رؤساء الطلبة والمتنفذون منهم انهم اذا رجعوا تكون عاقبة الرجعة عليهم شراً ووبالاً بعد ان اوصلوا الحال الى هذا المركز فقرروا الانتظار حتى الصباح . ولم يرجع من افراد الجمعية احد وانتظروا حتى مطلع الفجر .

ومع هذا فلم يستبعد سوء تأثير هذه الحادثة على الراحة العمومية حيث ان الذين يعلمون اسباب قيام الجمعية اقل من القليل ولذا وقعت مسيحي الاستانة وعلى الاخص منهم الاجانب الذين يقطنون (بك اوغلي) في حيرة شديدة من جراء اجتماع طلبة العلوم . وقد شاع في محافل بك اوغلي قبل الحادثة بضع اسابيع ان الاسلام قد علقوا على ابواب جوامعهم والقوا في ازقة الاستانة اعلانات تدل على عزمهم على ذبح النصارى

والتمثيل فيهم ولا ريب في ان هذه الاشاعات نتيجة دسائس سفارة الروس في الاستانة ولم تقصد من هذه الاراجيف غير اثارة افكار الاجانب علينا

والذى اكد صحة هذه الاشاعة عند الاجانب هو قيام جمعية العلماء بالمظاهرة في ذاك اليوم حتى ان اكثر الاجانب قد احتاطو لانفسهم لئلا يؤخذون على غرة منهم. وتسلحوا بالاسلحة الكاملة ووقفوا في احيائهم كالمدافع عن نقطته. ومن جهة أخرى فان الخوف الشديد قد خامر قلوب قناصل الدول الموجودة في الاستانة فعقدوا في قونصلاتو النمسا اجتماعاً بناء على تحريض قنصل الروس وتذاكروا فيما بينهم على ايجاد الوسائل التي يجب عليهم اتخاذها لمحافظة أرواح وأموال رعايا حكوماتهم وبعد ان أبدى كل منهم رأيه في اساس المسئلة قال قنصل النمسا «ان الترك اذا هجمت على بك او غلي فانني قادر على ان أجمع من رعايا النمسا المقيمين في الاستانة الف وخمساية شخص وأسلحهم بالسلاح الكامل وأردبهم غارة الاتراك» وعقبه قنصل الروس الموسيو «ختراوو» صاحب الحظ الاوفر في جميع الدسائس والحيل السياسية التي دسها الروس في الاستانة حتى الآن

وأَوعد الحاضرين انه سيجمع بضع مئآت من رعايا حكومة الجبل الاسود الذين يقطنون الاستانة ليدافع بهم عن الاروبيين فقال له أحد القناصل مستهزءاً « لاعلاقة لكم باهل الجبل الاسود ولاهم من رعاياكم فكيف اذاً تقدر على جمعهم فجاوبه القنصل جواباً يشف عن حنكة ودراية «هنالك سر لا يعلمه احد غيري »

فكان قنصل الروس يفوه في المجلس المذكور بمثل هذه التفوهات من جهة ومن جهة اخرى يحرك سواكن الفتن على قدر ما يستطيع من القوة فلم يخل له الجو حتى اخذ يفكر في ايجاد طرق الاستفادة من هذه الواقعة واستعمال الوسائل الممكن استعمالها لاثارة الترك على الاروبيين وتحريضهم على ذبحهم كي يجلب سخط الرأي العام الاوروبي علينا ويضطر الدول المعظمة الى تجريد جنودها واحتلال الاستانة وهي اهم امال الروس ومطمح انظارهم منذ القديم · ولهذه الاسباب جمع جناب السفير بعض رعايا الجبل الاسود الذين يتكلمون التركية كما ينبغي ومن شاكلهم من اللئام والبسهم ملابس العلماء وارسلهم الى الجمعية

والغاية الوحيدة التي يرمي اليها هذا القنصل من ارساله هؤلاء الزعانف هو تحريضهم العلماء على ان يمروا من جهة (بك اوغلي). سعى كثيراً ولكنه اخفق سعياً ولم ينل ولله الحمد بغيته حيث ان رؤساء الجمعية كانوا قد اخذوا الاوامر الخاصة بهذا الامر ولذا منعوا افراد الجمعية من اتيان اي شيء له مساس بالآداب العمومية او ما يتعلق بالاجانب كما منعوهم عن التعرض لاحد ما من اهالي الاستانة نصارى كانوا او يهوداً. وظلوا على هذا الحال حتى هجمت جيوش الصبح وتغلبت على جيوش الظلام وقامت من مراقدها النيام وكان ذاك اليوم يوم الجمعة فازداد عدد رجال الجمعية كثيراً والتحق بالمتظاهرين الخاص والعام

وقد ثابر طلبة العلم على مظاهرتهم وانتظروا في جوار السركه جي والباب العالي نتيجة عملهم دون ان يعلم اعضاؤهم شيئاً عن هذا الاجتماع او غاية ما يرمي اليه. ولم ينفجر الفجر حتى شاع خبر دعوة السراي لكثير من العلماء وعقبه خبر توجيه مسند الصدارة الى رشدي باشا والمشيخة الاسلامية علي خيرالله افندي فهتف الجمهور حينئذ بهتاف الفرح والسرور وما لبثت ان ظهرت مقارنة هذه الحوادث بالصحة فمر الصدر الاعظم

الجديد بعربته بين الجمعيـة قاصداً الباب العالي تحفـه المهابة والوقار فدخل الباب العالي وجرت مراسم التشريفات وبعد ختام المراسم شرف شيخ الاسلام الجديد خيرالله افندي باب المشيخة واستلم زمام وظيفته فلما ان رأى اعضاء الجمعية باعينهم هذا الحال تأكدوا من نيل بغيتهم فانصرفوا قاصدين مدارسهم داعين للذات الشاهانية بطول العمر ودوام البقاء ولم يحدث اثناء انصرافهم ايضاً ما يخل بالآداب العمومية . وهذه هي واقعـة العلماء التي تشغل في صحائف التاريخ العثماني موقعاً ممتازاً . ولا بد لي قبل اتمام الواقعـة من ابداء الملاحظات على بعض النقط فيها كي يفهم القارئ واقعة العلماء تماماً

فالمتوغلون في التاريخ من القراء الكرام لا بد وانهم قد لاحظوا على ان قيام جمعية طلبة العلوم لا تقاس بقيام أشقياء الانكشارية التي كانت تنجلي على الاكثر عن خلع السلاطين او قتلهم فمظاهرة الانكشارية وقيامهم كان يترك العالم في هرج ومرج بين خائف على روحه وحاسب حساب سلب امواله اذ كانوا كلما قاموا يوقعون الخوف في قلوب اهالي الاستانة ويتركونهم حيارى . اما واقعة العلماء فانها لم ينشأ عنها اقل شيء مغاير

للادب وكانت من مبدأها الى منتهاها على غاية من السكون والسكوت وقد نال اعضاءها جميع ما طلبوا بدون اراقة نقطة دم حتى انصرافهم وتشتتهم ولم تستغرق هذه الحادثة زيادة عن ثلاثين ساعة

فنوالهم بغيتهم بهذه السرعة الغريبة وبدون استعمالهم السلاح في وجه الحكومة لابد وان تكون ناشئة عن اخلاق السلطان الخصوصية · اذ من الخطأ ان ننسب تنزل السلطان الى اجابة مطالب العلماء الى مرحمته وعلو جنابه حيث ان السلطان عبد العزيز كبقية المستبدين لا تظهر امارات الخطر حتى يخامر قلبهم الخوف الشديد ويمعون في حيص بيص مهما اظهروا قبل الواقعة من الجرأة وشدة البأس · وهذا الحال خاص بالملوك والعلامة التي تميزهم عن بقية الافراد · فما اظهر السلطان عبد العزيز جبنه اثناء هذه الواقعة حتى اثبت الصدر الاعظم الخائن خيانته بما فعله من الالتجاء الى سفارة العجم ، ومن العبث ان ينتظر من نذل كهذا اقل دناءة منها · اذ كانت دناءته وخيانته اشهر من نار على علم عند جميع اهالي العاصمة · ففراره اثناء هذه الحادثه والتجاءه الى سفارة العجم وتركه مولاه وحيداً فريداً يتقلب على

لظى الخوف اثبت خيانته ولؤمه مرة اخرى

ولا بد من اضافة شيء على ما قلناه لكي تنجلي المسألة تماماً فنقول : ان سفير الروس ابدى من المتانة والثبات اثناء حدوث هذه الواقعة ما دل على حنكته ودربته السياسية حيث انه اوضح في تقرير رفعه الى حكومته بعد هذه الواقعة ببضع ايام الخطة التي سار عليها والتدابير التي اتخذها حيال هذه الجمعية (جمعية طلبة العلم) وانه ارسل الى السراي رجاله مراراً عديدة وحث السلطان على استعمال القوة مع اعضاء هذه الجمعية وانه اوصى ان تستعمل الجنود الموجودة بجوار السراي « وطاش قشله » السلاح لتمزيق شمل المتظاهرين كما انه اخبر السلطان بسهولة جلب جنود الروس من اودسا اذا مست الحاجة . وقد اخبر السفير حكومته ايضاً انه بذل كل نفس ونفيس لديه في سبيل ايقاع السراي بشراك حيلته ودسائسه ولكنه لم يفلح وانه مشغول الان في تدبير حيلة اخرى عل وعسى ان يتوفق فيها ويستعيض ما اضاعه من تلك الفرصة الكبرى (*)

---

1 Moscovski Vedomostit, Corresqondance de Constantinople. 1876

اما من دبروا هذه الواقعة فانهم نالوا ما يبتغونه تماماً اذ عودوا بفعلتهم هذه اهالي العاصمة على الحادثة القابلة حتى لا ترهب أعينهم مما سيحدث بعد . وبهذه الوسيلة امنوا جانب ازعاج الاهلين

ثانياً . انهم قد ربحوا الزمن لوزن الاحوال واختبار القوى الفعالة حين اظهار مقصدهم الاصلي الذي رسموا خطته قبلاً ولم يفهم تأثير الواقعة على السياسة الخارجية مرة واحدة . فالاوربيون حتى السفراء الموجودين في الاستانة قد صرفوا أموالاً طائلة في سبيل حصولهم على معلومات اكيدة ووقوفهم على معيشة الاتراك ولكنهم لم يقفوا على شيء منها حيث ان اهل الاستانة عندنا يعيشون منفردين منذ القديم ولا يختلطون بالاجانب كثيراً وقليل منهم من له معرفة بلغتهم اللهم الا المأمورين وهم اقل من القليل ولو ان هؤلاء الموظفين الذين لهم المام باللغات الاجنبية يحضرون بعض الأحيان الضيافات الرسمية و « البالو » التي تقام في « بك اوغلي » ولكنهم لا يفوهون ببنت شفة عن احوالنا الداخلية حيث اعتادوا على كتم كل شيء عن الاجانب . ومع

هذا فان حدوث هذه الواقعـة الكبرى اثرت على الرأي العام الاوروبي وزادت في اهمية المسئلة الشرقيـة التي كانت مطمح انظار العالم المتمدن والنقطة التي تشرأب اليها اعناق الدول الغربية في ذاك الزمان . وقد فهم من هذه الحادثـة دول الغرب الذين سمعوا بوقوع بعض الحوادث في الاستانة ولا يعلمون عنها شيئاً ان في المسئلة سرّ يلزم كشف النقاب عنه وان لا يتركونه بعيداً عن اعينهم ولذا بادرت الجرائد الاوروبية الى ارسال مكاتبيها للاستانـة العليـة كي يوافوها بحقيقـة هـذه المسئلة ففي هذه الآونة ملاء مكاتبوا الجرائد الاجنبية الذين هم متشوقون الى اخبار هذه الحادثة تشوق الظمآن الى المـاء الزلال اعمدة جرائدهم بالحوادث المختلفـة وامتلأت صحف الجرائد المصورة في رسوم الرجال والوكلاء العثمانيين الذين كانت تتداول اسماؤهم على ألسن الخلق . وكتبت ترجمة حال الذين اشتهروا من العائلة المـالكه مفصلاً وخلاصة القول ان اقل واقعة كانت تقع داخل البلاد العثمانية تتلقاها جرائد اوروبا وتهول في امرها وتوصفها بما تصل اليه مخيلة كتابها . ومع هذا كله فان هذه الحوادث والاخبار لم تذهب

سدى بل نجم عنها ظهور احوال وكلائنا الذين يشغلون اعلى المناصب في ادارة الدولة

وقد ذاعت شهرة مدحت باشا ، ونديم باشا من وزراء ذلك الزمن فعدوا نديم باشا ممن يلتزمون طرف الروس او بالحري « طرف اموالهم » اما مدحت باشا فانهم كانوا يعدونه ذا مبدأ وطني محب لوطنه وحيد وكلاء عهده بالمتانة والثبات واكثرهم وقوفاً على الامور السياسية وكانت الجرائد الانكليزية والفرنساوية تعد دصفات شهيد الوطن هذا كل يوم وتترنم بمديحه ولكن جرائد الروس كانت على عكس ذلك تلعن المشار اليه وتنسب له من الدنائة ما تصل اليه اقلام كتابها . وكانت هذه الجرائد ترى املا اعمدتها في ذمه من اقدس الوظائف عندها . فعلي زعمهم الفاسد انه لم يات ولن يأت مثل هذا الشهيد المقدس رجل خبيث فاسد ولا يمكن ان يأتي الزمان بمثله وكان اذا سمع احد الروسيين اسمه حتى في اصغر القرى استعاذ بالله استعاذته من الشيطان الرجيم حتى وصل الحال بهم الى درجة كانوا يطيلون لسانهم عليه كلما ذكره ذاكر . والحقيقة هو ان الاعداء شهدت لهذا الوطني الغيور واقرت له بالمقدرة والفضل

ولو بنسبتهم تتقهقر سياسة الروس الخارجية اليه بما استعمله من الدسائس والحيل السياسية كما سيأتي مفصلاً

ازدياد المساوئ

ازدياد الثورات داخل الولايات العثمانية — الحكومة الروسية — آراء الغربيين في العثمانيين — سراية الثورة الى بلاد البلغار والوقائع الاخرى مداخلة الروس مع الصرب والجبل الاسود — بلاغ القونت غورچاقوف . احوال الاستانة في هذه الاونة = السلطان عبد العزيز .

بينما كانت احوال مقر الخلافة الاسلامية على ما قدمناه عليه ازدادت الثورات في بلاد الروم ايلي حيث ان الامدادات العسكرية التي ارسلها ولاة الامور في دار السعادة الى ولاية البوسنة التي هي منبع الثورات لم تف بالغرض المقصود وغلبت على امرها القلة عددها وعديدها وعدم اجتماعها في نقطة واحدة حيث ان ظهور الثوار في نقاط مختلفة اضطر امراء الجند الى تقسيم الجنود الى مفرزات صغيرة وتوزيعها على نقط عديدة وهي السبب الوحيد في انهزامها امام الثوار واتساع نطاق الثورة يوماً عن يوم حتى اصبح جميع اهالي ولاية البوسنة متقلدين السلاح

رافعين لواء العصيان على حكومتهم واضعين الاستقلال نصب اعينهم مفضلين الموت على بقاءهم تحت نير الذل والهوان وخضوعهم لدولة بني عثمان، وكان كلما طال الوقت تفاقم الخطب وزادت الثورة اشتعالاً، والتحق بالثوار كثير من اشقياء الروس والصرب والجبل الاسود حتى امتلأت بهم تلك السهول والوديان. والذي زاد بالطنبور نغمة هو تفاقم الخطب في تلك الديار حيث قد وصفنا قبلا امة الروس وما تعضد به الجمعية السلافية كما قلنا ان غاية ما يرمون اليه من هذه المسئلة هي ابادة الدولة العثمانية والاستيلاء عَلى الممالك المحروسة التي هي مطمح انظارهم منذ القديم وعليه فلم يطرق آذان الروس خبر وقوع الثورة في الهرسك حتى فتحت اعينها وحملت بخيلها ورجلها علينا واشتغلت جميع جرائد الروس التي كانت تصدر حينذاك في المسأله الشرقية وأخذت تفندها تفنيداً. وكانت الاخبار والتلغرافات التي تأتي من دار السعادة عن الثورة التي كان يشتد لهيبها يوماً عن يوم تشغل افكار عموم الاهالى حتى كانت حديث العوام والخواص منهم. وكانت اكثر هذه الحوادث مختلقة لا اصل لها ولا يقصدون منها سوى اثارة افكار الاهالي حيث ان اعمدة الجرائد ملئت

١٥

بالفظائع التي يأتيها الاتراك ضد ابناء جنسهم كقتل وسلب وتمثيل وما اشبه من ضروب الهمجية والتوحش فلا تخلو صحائفهم كل يوم من مثل هذه السفاسف والافتراآت فتراهم يختلقون في كل ساعة خبراً جديداً عن فظاعة الجنود العثمانية والاهالي فيقولون في اليوم الفلاني سطت العساكر (؟) على القرية الفلانية وقتلوا نساء القرية وأخرجوا من بطونهن الجنين وشووا لحمهم على الاسياخ واكلوهم اكل الذئاب للغنم حتى صارت هذه الحوادث من الامور المعتاد سماعها عن جنود الترك عندهم . كما ان كل مكاتب لجريدة روسية انتدب الى تلك الجهه لا يرسل خبراً لجريدته الا وفيه من الفظائع ما فيه كقتل الآباء . وخنق الاولاد . وذبح الامهات . والتسلط على عرض البنات . وخلاصة القول ان الجرائد كانت تردد صدى الوقائع وتزيد عليها ما شاءت وشاء لها الهوى

ولا شك ان في اشتغال الامة الروسية بحوادث الثورة وتهافتها على اخبارها هذا التهافت سرّ يعلمه ساسة الروس ودهاتهم . اذ لا غاية لحكومة الروس من هذه الاراجيف سوى تداخلها بالشرق بلا واسطة . فكانت ترى خطتها هذه

موافقة كل الموافقة للاحوال التي كانت وقعت داخل بلادها ذاك الحين . والاسباب التي دعت حكومة الروس لاثارة غبار الحرب معنا كثيرة اولاً : ان البلاد العثمانية قد طرأ عليها ضعف ووهن لا مزيد عليهما

حتى يئس اكثر الناس شغفاً بها وعطفاً عليها نظراً لما ظهر في هذه الآونة من الدلائل التي تدل على سرعة تدهورها في هوة السقوط

ثانياً — تأكدها من عدم مساعدة احوال الدولتان اللتان اعانتانا فعلاً في محاربة القريم وهما فرنسا وانكلتره على معاونتهما لنا الآن في امر من الامور : ومع هذا فان اصل المسئلة لم يكن ما ذكرنا بل ان احوال دولة الروس الداخلية اضطرتها الى خوض غمار الحرب وهي :

ظهور « جمعية النيهيلست » في بلاد الروس قبل هذا التاريخ ببضع سنين واخلالهم بالامن العام اذ كان الاهالي وعلى الاخص منهم الطبقة السفلى كالعمال والفلاحين قد شقوا عصا الطاعة على حكومتهم في بعض الولايات حتى عجزت امامهم بايعاز من اعضاء الجمعية المذكورة : والتحق بهم تلامذة المدارس العليا وتركوا دروسهم وهكذا ظهرت ثورة كبيرة داخل بلادها

فأشغلت هذه الثورة الافكار واظهر جميع الاهالي استياءهم من الحكومة في كثير من الامور . ولهذه الاسباب سعى الوزراء والقيصر في ايجاد مسئلة تحويل افكار الاهالي عن هذه الامور وقد كان تصادف ظهور هذه الثورة في تلك الفترة اكبر وسيلة لحصولهم على آمالهم وما يتمنون . حيث ان حكومة الروس تعلم أن نزوع الاهالي للعصيان وقيامهم مثل هذا القيام يضر بصالحها ويضعفها وربما كانت العاقبة عليها اشد وبالاً من الحرب . ولم تسع في اهاجة افكار الاهالي على الاتراك الالتلهيهم عنها وتحول انظارهم الى جهة اخرى وبناء علَى هذه الاسباب كانت حكومة الروس دائبة على دس الدسائس وايقاظ الفتن في الخارج من جهة ومن جهة اخرى تحرض الاهالي على الاتراك بما تنسبه اليهم جرائدها من الفظائع والمنكرات حتى اهاجت الاهالي وحولت انظارهم عن اثارة الفتن الداخلية وجعلتهم على قدم الاهبة للمحاربة التي كانت واضعة خطتها منذ القديم

اما اوروبا . فان احوال حكوماتها واهليها كانت تناقض منفعة الاتراك كل المناقضة بالرغم عن علمهم تمام العلم غاية الروس واما لهم الفاسدة حيال المسئلة الشرقية وتاكدهم من

وجود يد للروس في كل ثورة حدثت في تلك الجهات . كما انهم يعلمون ما هم عليه الاتراك وعلى الاخص الحكومة العثمانية من الاستعداد لاجراء المظالم والمغارم . وزد على ذلك ان حكومة االروس كانت قد اشترت ضمائر بعض اصحاب الصحف التي كانت تصدر في أوروبا بهذا العهد اذ كانت تملى اعمدتهابما توحيه اليه ساسة الروس من الاخبار الملفقة وتنقل عنها بعض الجرائد التي هي على الحياد ولذا كانت مندرجاتها لا تقل عن مندرجات جرائد الروس بنسبة الهمجية والفظاعة الى الاتراك حتى كانت هذه الاخبار كافية لاثارة الرأي العام في اوروبا علينا

ومع هذا فان وجد شيء يوجب يأس بعض محبي خير الدولة العثمانية من الدول الاوربية وسرور اعداءها هو بلا شك دوام الثورات في البلاد المحروسة واتساع نطاقها يوماً فيوماً وسرايتها الى جميع بلاد البلقان حتى وصلت الى درجة لم يسبق لها مثيل

ولما ارسل الكونت اندراسي بلاغه المعهود الى الباب العالي كانت الثورة منحصرة في ولاية البوسنة والهرسك ولكنهاسرت الى جميع الولايات العثمانية في اوروبا وكان كلماقامت

ثورة لعنت اختها · حتى ان الثورة التي حدثت في شرق الروم ايلي أرخت سدول النسيان عَلَى ما تقدمها من الثورات الهائلة

وكان في هذه الاثناء اعضاء الجمعية السلافية الصغرى الذين هم مختبئون في ولاية الطونة يجرون على الخطة التي وضعتها لهم الجمعية السلافية الكبرى في شهر (بكرش) في احداث ثورة كبيرة بتلك الولاية واضرموا نار الثورة هنالك فقام اهالي قريتي (تاتار بازارجق) و (اوتلق كوى) وما جاورهما من القرى وهجموا على من جاورهم من اهالي القرى الاسلامية فلما رأى الاسلام هذا الحال تسلحوا وقاموا يدافعون عن ارواحهم واموالهم ووقعت بينهم واقعة انجلت عن انهزام الاولين ولكن ما الفائدة منها وقد عادت هذه الحادثة بالشدة على الثوار ونالوا بها اكثر مما املوه من العصيان بما استعمله معهم الاسلام من الفظائع وما أتوه من ضروب الهمجية والتوحش اذ كان غاية ما يرمي اليه الثوار من قيامهم هذا على المسلمين اهاجة الاهالي الاسلامية واجبارهم عَلَى مهاجمة البلغار واشاعة ما يحتمل حدوثه طبعاً من الهفوات اثناء هذه الواقعة وترديد صداها على صحف الجرائد الاوروبية واثارة الرأي العام فيها على المسلمين ولا حاجة بنا أن نقول ان البلغار بين

قد ظفروا بما املوا من هذه الحادثة واستفادوا مما هي عليه الاسلام من الجنون ولله في خلقه شؤون

وبينما كانت احوال البلغار عَلَى هذا الحال اذ ظهر في (سلانيك) حادثه ازعجت الخواطر فزادت في الطين بلة وفي الاعتلال علة وهي : ان احدى بنات البلغار اللائي اتين من (عورتحصار) الى سلانيك ارادت التشرف بالدين الاسلامي فوقع من جراء هذه المسئلة نزاع بين الاسلام والنصارى ووسطوا السلاح فيما بينهم فتداخل قنصلا فرنسا والمانيا اللذان كانا يريدان تسكين الثورة بين المتنازعين فقتلا من ايدي الاسلام تصادفاً فزادت حادثة قتلهما في الرأي العام الاوروبى هياجاً وتركت لدسائس الروس الذين كانوا يستعملونها ليحملوا الدول الاوروبية على عدم معاونة الدولة العثمانية مجالاً واسعاً وهكذا نالت الروس غايتها من هذه الجهة وامنت جانب مساعدة بعض الدول الاجنبية للدولة العثمانية عند نشوب الحرب بينهما حيث كانت هذه الوقائع المؤسفة من اكبر العوامل عَلَى نوال الروس بغيتهم وتسهيل السبل لحصولهم على غاياتهم

والحقيقة التي لا ريب فيها هي : ان حكومة الروس رأت ان الفرصة سانحة والوقت مساعد فلم تغفل لها عين ولكنها تاكدت عدم مناسبة الوقت لتبجحها بحماية المسيحيين الذين يقطنون بلاد الروم ايلي ومعاضدتهم جهاراً بناء على بعض الاسباب الموجبة فحرضت حكومتي الصرب والجبل الاسود على هذا الامر وبذلت جهدها في قيامها لحماية المسيحيين ولذا لم تبدأ الثورة في ولاية البوسنة والهرسك حتى تسلحت هاتان الحكومتان واستعدتا لكل طاريء مفاجيء وتداركتا الاسلحة وحشدتا الجنود على الحدود ووقفتا ينتظران انتهاء الوقت المحدود . فكان البرنس ميلان امير امارة الصرب وقتئذ يدعي بناء على تحريض الروسيا حماية المسيحيين ويعد معدات الحرب من جهة ومن جهة اخرى يرسل البلاغ وراء البلاغ والانذار وراء الانذار للباب العالي ويهدده كانه الحاكم والباب العالي المحكوم . ومقابلة لخدماته هذه كان ياخذ من الروس اعانات كثيرة ولو ان حكومة الروس كانت ترسل اليه الاموال سراً في باديء الامر ولكنها اتخذت اخيراً عدم تاثير البلاغ الرسمي الذي قدمه القونت اندراسي للباب العالي حجة وصارت ترسل اليه الاموال على سبيل

الاعانات جهاراً . وقد ارسلت الى امارة الصرب كثيراً من ضباطها المستخدمين في معسكراتها كما انها لم تأل جهداً في ارسال جميع المتشردين من رعاياها بصفة فدائيين الى تلك الامارة وانهالوا جميعهم على بلاد الصرب بعد ان اخذوا على حساب الجمعية السلافية من الاعانات ما لا يدخل تحت حصر وحساب . وكان بينهم الجنرال (چرنايف) الذي اشتهر في محاربات « التركستان » القديمة ولكنه احيل قبل هذه الحادثة ببضع سنين على المعاش نظراً لسوء اخلاقه وشراسة طبعه وعدم رضوخه لاوامر اولياء الامور

وهكذا كانت المسئلة تزيد كل يوم وخامة حتى وصلت لدرجة عجزت معها الحكومة عن اجراء شيء ما . ولكن ساسة اوروبا كانوا حينئذٍ يرومون حل المسئلة حلاً سلمياً ومن الغرائب ان ساسة الروس ايضاً كانوا يظهرون ميلاً شديداً للمحافظة على السلم ابان المذاكرات والمخابرات الرسمية . ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي : ان الروس لم يقصدوا من تحويل المسئلة الى المخابرات الرسمية الا ليكتسبوا الوقت وقد ارادت الروسية ان تظهر للعالم الاوروبي ميلها للسلم وعدم

رغبتها في خوض غمار الحرب مع الدولة العلية . وبناء عليه طلب البرنس «قورچاقوف» ناظر خارجية الروسية من الدول العظمى ان يتداخلوا مع الباب العالي مرة اخرى في حل المسئلة حلاً سلمياً ورغب في ذلك كثيراً وأخذ على عاتقه عهدة مخابرة الباب العالي فارسل اذ ذاك بلاغاً رسمياً بالوكالة عن الدول العظمى و بالاصالة عن دولته ولم تزد محتويات البلاغ الذي ارسلة البرنس «قورچاقوف» عن محتويات البلاغ الذي ارسله الكونت «اندراسي» ناظر خارجية النمسا الى الباب العالي قبلاً اللهم الا ما زاده على البلاغ بقوله «اذا كان الباب العالي لايخمد الثورة القائمة في ولايات الروم ايلي ويصلح امورها في ظرف ثلاثة اشهر فان الدول الثلاث المتفقة «روسية ، والنمسا ، والمانيا ، تتخذ التدابير اللازمة كي لا تترك مجالاً لما يحتمل حدوثه من الاضرار التي تنشأ عن هذه الفتنة» ومن هذا البلاغ يفهم القارئ ما لساسة الروس وعلى الأخص منهم البرنس قورچاقوف في ايجاد الدسائس والحيل السياسية من طول الباع وما هم عليه من المهارة في حياكة مثل هذا المتاع لان المذكور كان يهدد الباب العالي في هذا البلاغ

من جهة ومن جهة أخرى كان قد اعطي للباب العالى مهلة شهرين او ثلاثة اشهر من الزمان لتسكين الفتنة القائمة ليظهر للدول الاوروبية تعلق الحكومة الروسية باهداب السلم · وعدا ذلك فانه لم يقصد من هـذه المدة القليلة سوى اكتساب حكومتي الصرب والجبـل الاسود الوقت لاتمام المعدات الحربية التي لم يتوفقا لاتمامها حتي الان · والا فهو من اعلم الناس بعدم تمكن الحـكومة العثمانية من اخماد الثورة في هذه المدة القليلة · كما انه كان يوجس خيفة من اعادة المياه الى مجاريها ، فتذهب اذ ذاك مساعي الروس هباءً منثوراً ويستحيل عليها حصولها عَلى مآربها وأَمانيها ، حيث انهـا رأت فدح الخلل الطارىء على ادارة الولايات العثمانية وما هي عليه اهليها من التنابذ والتنافر فعلمت ان الفرصة سانحة لحل المسئلة الشرقية حلاً يوافق غايتها ومقاصدها الخفية ·

فسعت بكل قواهـا واظهرت مـن ضروب المهارة السياسية ما لا تأتي باعظم منها ساسة دولة مهما بلغوا من التفنن في الحيل · وعلى كل حال : فان افكار الروس وآمالهم كانت ظاهرة للعيان ولكن ما الفائدة وقـد توالى وقوع الاحوال

الداعية للاسف في مركز السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية بصورة تروج امالهم ، وتوافق كل الموافقة مجرى سياستهم ، وتساعدهم على نيل بغيتهم ومآربهم وتناقض كل المناقضة لكل شيء يوجب سلامة كيان الدولة وتوافق كل الموافقة لزوالها

وقد قلنا قبلاً ان واقعة العلماء قد اثرت على ادارة الدولة تأثيراً حسناً وبهمة رجالها طرد اولئك الوكلاء الذين كانوا ينقادون الى سفير الروس انقياد الاعمى وبانقيادهم اوقعوا الدولة في شراك اعدائها وتركوا لمداخلة السفير مجالاً واسعاً في ادارتها وتعين مكانهم اصحاب الغيرة الوطنية من الوكلاء . ولكن ما الفائدة من هذا كله وذاك التمثال الذي تنبعث عنه عوامل هذه السيئات قابض بيده على زمام الامور ، فلا الدولة خالصة من العناء ، ولا الامة ذائقة الهناء ، ولا فائدة تنتظر من الوكلاء ، وكل ما يسعون في اجراءه هباء في هباء

ومن الحقائق الثابتة ان هؤلاء الوكلاء قد سعوا في بعض التدابير المفيدة حين تولوا زمام الامور كارسالهم الجنود اللازمة لاخماد الثورات القائمة في ولايات الروم ايلي واتخاذهم بعض التدابير الاحتياطية لرد كل طاريء مفاجيء يفاجيء الدولة من

جهة الصرب والجبل الاسود · ولكن نتائجها كانت عبارة عن جزئيات اذ كانت بعيدة عن ملافاة الاخطار التي تتهدد كيان الدولة في هذا الحين وتترك بقائها بين الشك واليقين ،

حيث ان الدواء الوحيد لخلاص الدولة مما هي عليه من الاضمحلال وازالة المصائب التي اصيبت بها البلاد العثمانية هو اجراء الاصلاحات التي يقتضيها الزمان وبناء ادارة الدولة على أساس متين، وقد كان يمكنهم بهذه الوسيلة تخليص الدولة بدون اضاعة قسم كبير من املاكها والا فكل سعي غير مقترن بالاصلاحات عقيم لامحالة · حالة كون مواقع الرجال الذين بيدهم الحل والعقد في هذه الاثناء لم تكن مساعدة على قيامهم باجراء الاصلاحات الجديدة اذ كانوا كما قدمنا قد نالوا هذه الوظائف بطرق غير مشروعة عند ضرورة الحال اثناء واقعة العلماء التي اتينا عليها مفصلاً ·

ولهذه الاسباب كانوا لا يأمنون جانب أهل السراي ويخافون شرهم ويعلمون ان حياتهم محفوفة بالاخطار في كل وقت وزمان بما يمكن ان يحصل لهم من الاذى عن يديهم فيوقعون انفسهم بالمهالك اذا هم سعوا وراء امر يفيد الدولة والامة

وينقذها مما هما عليه من السقوط السريع · وكان هذا الحال اكبر باعث على عدم سعي وكلاء ذاك العهد في شيء ما وقد اثر على افعالهم تأثيراً كبيراً وهدم ما بني على وطنيتهم من صروح الآمال · وقد اضطروا الى عدم تطبيق آمالهم الحسنة واخفاء ما تكنه صدورهم من الآمال الشريفة التي كانوا يتصورونها لخلاص وطنهم ·

وهكذا حرمت الدولة والامة من الانتفاع من مزاياهم ومقدرتهم حتى كانت امارات الخوف والوجل تبدو على محياهم كلما قاموا في عمل امر من الامور · وعدا ذلك فان مجرى الاحوال في العاصمة بعد واقعة العلماء كانت من اكبر العوامل على حصول التنافر والتنابذ بين السلطان من جهة ووكلاء الدولة والاهالي من جهة اخرى حتى اصبحوا جميعاً في نفور دائم ، ونزاع قائم ، كما ان افكار الاهالي ضد السلطان كانت تزداد يوماً عن يوم حتى اخذت شكلاً مهيباً لا يصعب على كل ناظر لبيب ينظر اليها التحقق من قرب حدوث امر ذي بال ! · ·

وكانت المطبوعات في اواخر عهد السلطان عبد العزيز على ما قدمنا من الضغط والمراقبة · وقد دام هذا الحال حتى

وقوع الواقعة المعلومة (واقعة العلماء) ولكن المطبوعات العثمانية تنفست قليلاً بعد هذه الواقعة وخفت وطأة المراقبين عنها بالنسبة الى الماضي

ولو ان احكام قانون المطبوعات كانت تظهر صولتها على الجرائد في هذا الزمان ايضاً ولكنها لم تكن كما كانت عليه قبل الواقعة من الافراط في الضغط . وخلاصة القول : ان عموم اهالي الاستانة اخذت تستنشق هواء غير الهواء الذي كانت تستنشقه من قبل وكان اصحاب الجرائد والمطبوعات واثقون من معاضدة بعض ذوي الحل والعقد من رجال الدولة لهم ولذا كانوا لا يخافون شر السراى ولايهابون سطوة حشراتها . وبناء عليه كانت المطبوعات العثمانية في ذاك الحين تبدي رأيها على احوال الدولة بحرية ضمير غير خائفة مراقبة مراقب اوعقاب معاقب بل كانت لا تدخر وسعاً في انتقاد الاحوال الحاضرة والماضيةو تقبح خطة الحكومة وتنسب سوء الاحوال الحاضرة الى عدم لياقة اولياء الامور للوظائف التي يشغلونها .

وكان بين مطبوعات الاستانه في هذا الدور الذي نحن في تعداد وقائعه جريدة (بصيرت) و (عبرت) وغيرهما من

الجرائد المهمة وعدا ذلك فقد كان يصدر فيها جرائد هزلية كجريدة (چايلاق) و(ديوژه ن) وما شاكلهما وكانت مندرجاتهما على جانب عظيم من اللطافة وكان اصحاب الاقلام يبدءِن آرائهم بصورة هزل لطيف مملوء بالمعاني والالغاز. ولهذه الاسباب كان اقبال الاهالي عليهما عظيماً حتى ان نشرياتهما لا تزال في مفكرة الخلق الى الآن وهما من اشهر واروج جرائد ذاك الزمان

وعلى كل حال: فان مطبوعات ذاك الدور قد اخذت مركزاً مهماً وكانت على جانب عظيم من الاهمية نظراً لتاثيرها على الرأي العام وقد اخذ جميع اصحاب الغيرة الوطنية من ذوي المقدرة واللياقة يظهرون ما تكنه صدورهم من الغيظ منذ زمن قديم. حتى صارت الجرائد مرسحاً للشكايات يظهر عليه كل مشتك مصيبته متحسر على دولته. فكانوا يظهرون باجلى بيان شدة تأثرهم مما ناب وطنهم من المصائب وما هي عليه دولتهم من الاحوال الداعية للاسى والاسف وعدم استنكافهم عن اقتحام اي مخطرة يجب اقتحامها لا يقاف هذه المساوي عند حدها ولو اقتضى الامر فداء ارواحهم

ونضحية أموالهم وعيالهم . وكانوا يطيلون السنتهم حين اظهار العداوة الى الوكلاء السابقه وعلى الاخص منهم محمود نديم باشا حيث كانوا ينزلون عليه اللعنات كالوابل الهطال وقد صار تعداد افعال هذه الشركة (محمود نديم واهل السراي) وما اضرت به الدولة كنز لا يفنى ورأس مال كبير لتأويل الاهالي وعلى الاخص فان اختلاط الباب العالي بسفارة الروس كان حديث الخاص والعام، من نصارى واسلام، يؤولونها كما شاؤا وشاءت لهم الايام.

وقد دام الحال على هذا المنوال مدة طويلة وكانت حيثية ملك الزمان وموقعه في تزلزل دائم . كلما ازداد الهياج عند اهالي الاستانة من اصاغر واعاظم . ولوان المطبوعات كانت لا تتعرض لشخص جلالة السلطان مباشرة ولكن الجميع كانوا يعلمون ان نتيجة تعريض الجرائد بادارة محمود نديم باشا عائدة على الذات الشاهانية . فالاهالي يعتقدون ان القسم الكلي من المساوئ التي نجمت عن ادارة هذا الوزير انما حصلت برضاء السلطان ان لم تكن بامره . وعلى الاخص فانهم كانوا يعلمون مداخلة (والدة السلطان) بالامور السيئة التي تعود على الدولة بالويل

والخراب. ولذا كانوا لا يستثنون احداً من اهل السراي نساءً كانوا او رجالاً ولم يتركوا كلمة الا قالوها بحقهم ..

كان مركز الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية بعد واقعة العلماء على هذا الحال

فلو استيقظ السلطان (ولو بهذه المدة) من غفلته، واستفاق من سباته، وسار على طريق معقول في جميع حركاته، لما صعب عليه تلافي الامر نظراً لما جبلوا عليه افراد الامة العثمانية من الشغف الزائد بسلاطينهم، وما هو منبث من الصداقة الاكيدة في اعماق روحهم. ولكن كان الحال على عكس ذلك. حيث ان السلطان عبد العزيز لم يقدر حرج المركز حق قدره بعد واقعة العلماء ولم يظهر اثراً من المقدرة على اختيار طريق يؤدي به الى انقاذ نفسه مما يحيط به من المهالك والاخطار. بل قضى ايامه في الخيالات الباطلة والاحلام العقيمة ولم ينتبه من الوقائع الكثيرة التي كانت تقع في كل آن بل كان يشتغل دوماً في ما يخطر على عقله من الاحلام الفاسدة التي لا ينجم عنها سوى الضرر، وتؤدي بحياته وملكه حتماً الى الدمار. ولم يستبدل قديم اخلاقه وعوائده

حتى في ابان هذا الاضطراب بل كان يعامل الصدر الاعظم وشيخ الاسلام بفتور زائد . حيث قد عدهم له من الد الاعداء ، وزاد في مخابراته مع محمود نديم باشا والجنرال اغ اتيف أحباؤه القدماء . ومن العبث ان يؤمل دوام الحال، مدة طويلة على هذا المنوال، اذ الظفرة محال . فجميع النتائج الحسنة التي نجحت بعد بذل كل هذه المساعي حتى الان ، قد تذهب هباء باقل ارادة من السلطان .

وعلى الخصوص فان احوال السلطان عبد العزيز وحركاته التي كانت تصدر منه عقيب هذه الواقعة كانت تدل اكثر الوكلاء على انهم عرضة لخطر كبير . ولذا رأوا ضرورة انهاء هذه الاحوال التي هي مثقلة كاهل الطرفين (السلطان، والوكلاء) على اي وجه من الوجوه وشدة الاحتياج لعمل نهائي

خلع السلطان عبد العزيز

بعض الملحوظات على كيفيه خلع السلطان عبد العزيز — تقرر الخلع بالقوة العسكرية — سليمان باشا ورديف باشا = امتناع شيخ الاسلام والصدر الاعظم عن المداخلة في الخلع وموافقتهما أخيراً اختياراً أحمد باشا القيصري وبقية الرجال = احوال السلطان عبد العزيز، والجنرال اغناتيف، ومحمود نديم باشا ليلة الخلع — وصول سليمان باشا الى المدرسة الحربية والخطبة التي القاها على الضباط — زحف تلامذة المدرسة الحربية على سراي بشكطاش = وصول حسين عوني باشا وتهيئة مسألة الخلع — دخول سليمان باشا على دائرة السلطان مراد — امتناع السلطان مراد عن الخروج من القصر = احوال السلطان عبد العزيز .

لا مشاحة في ان مسألة خلع السلطان عبد العزيز هي من اهم وقائع العصر الاخير حالة كون أصحاب اليد الطولى في هذه المسألة التي تشغل أهم صحائف اسفار التاريخ العثماني من الرجال قد ارغموا على ستر بعض الوقائع التي كانت سبباً في ظهور هذه الناجعة على مرسح التمثيل بشكلها المهيب المحزن واكتفوا بايضاح بعض الامور المهمة لمن اشترك معهم في تشخيص هذا الفصل من الرجال . ولذا ترى ان بعض أسباب هذه الواقعة لا تزال مستترة تحت زيل الخفاء بالرغم عن قرب هذه الحادثة

من زماننا ووجود بعض الذين شهدوها باعينهم واشتركوا فيها بانفسهم على قيد الحياة · ولا زالت تفرعات هذه الفاجعة المعلومة حتى الآن في عالم الغياهب والظنون تورث المؤرخين والكتاب اتعاباً عظيمة وتقف امامهم حجر عثرة في سبيل اظهار ما استتر منها جوازاً ووجوباً

فعلى رواية (*) ان مدحت باشا وحسين عوني باشا قد رأيا باعينهما ما هي عليه الاهالي من البغض الشديد للحكومة العزيزية يوم قيام طلبة العلم بالمظاهرة المعلومة فجمعا بعض افراد النصارى الذين اشتهروا بين ابناء طائفتهم بالغيرة الوطنية وحبهم للدولة العلية وسعوا في وضع مسألة الخلع موضع الفعل بواسطة جمعية تتشكل من مسلمين واروام وأرمن · حتى ان بعض الرواة يؤكدون انهم اجتمعوا فعلاً وتآمروا على الخلع واستنسبوا للخلع يوم الجمعة في التاسع من شهر مايس وانتخبوا جامع نور عثمانية (الذي هو اكثر الجوامع ازدحاماً في كل وقت) للجمعية مركزاً واتفقوا على ان يزحفوا بعد صلاة الجمعة

(*) هذه الرواية منقولة عن لسان رجال يوثق باقوالهم
راجع أثر Mourod. V. Cont.E. dd keratry

على الباب العالي ويطلبون من السلطان اصدار ارادة تتضمن الاصلاحات الجديدة وانه اذا لم يجب طلبهم هذا يفعلون كما كانت تفعل الانكشارية من خلع السلطان الحاضر واعلان جلوس السلطان مراد الذي هو الوارث الشرعي لعرش آل عثمان . فنحن لا ننكر على الرواة روايتهم هذه ولا نصدقها على علاتها بل اننا نقول ان من المحتمل حديث مذاكرة على اظهار فكرة الخلع لحيز الفعل بينهم وربما كانت اقرب للحقيقة من الروايات الاخرى .

اما مساله رضاء الاهالي وموافقتهم على خلع السلطان فمما لا نصدقه ولا نوافق عليه . حيث قد ثبت بالتجارب العديدة استحالة ارضاء الاهالي وسوقهم بالهين اللين على مسألة كهذه هي أمنع من عقاب الجو بل ربما اظهروا استياءهم منها

ثانياً : ان الوسيلة الوحيدة والنقطة المهمة في حصول المتآمرين على ما يبتغونه هي كتم الاسرار وحيث ان محافظة العموم على السر ضرب من المحال، كان لا بد للرجال الذين يقتضي كتم السر عنهم من معرفته ووقوفهم عَلَى كنهه مهما حاول المتآمرون من اخفاءه . ووقوع أقل هفوة منهم في هذا

الزمان ينعكس معها الحال ، ويسوء المآل ويوقع حياة رجال كثيرة في اشد الاخطار ، وتكون العاقبة عليهم شراً ووبالاً

ثالثاً : ان مداخلة النصارى من التبعة العثمانية في الامر واشتراكهم في الخلع لا يخلو من الفائدة على كل حال ولكنها تترك مجالاً للقيل والقال بين الاهالي عند حدوث ما يحتمل حدوثه عقب الواقعة من الاضطراب وتكون لفرقة المعارضين بعد الخلع ذريعة يتذرعون بها لأقامة معالم الثورة . وبناء عليه نقول انه ربما كانت هذه الاسباب من اكبر العوامل على عدم حصول الخلع بواسطة الجمعية العمومية التى تقرر انعقادها في جوار جامع (نور عثمانية) واضطرتهم الى احداث الانقلاب بواسطة الوكلاء والجنود . حيث ان الذين دبروا مسئلة الخلع قد رأوا انهم يصونون بهذه الوسيلة حياتهم مما يطرأ عليها من الاخطار ويكونوا في حرز الجند الحريز فيدافعون عنهم ، اذا اقتضت الحالة ويردون غارة كل غائر عليهم ، وينالون مآربهم باسرع ما يمكن من الزمان . ويتمكنوا من ازالة المساوئ التي يحتمل حدوثها عند وقوع مثل هذه الواقعة

وعلى الاخص فان قليل من امراء الجندية من يعلم

حقيقة الامر و بقية افراد هذه القوة التي يسعى رجالها في حصول الغاية امتثالاً لاوامر رؤساءهم لا يعلمون مما يفعلونه شيئاً بل كانوا دائبين وراء تنفيذ اوامر امراءهم وسيعلمون ما فعلوا بعد ان تنجلي امامهم نتائج اعمالهم و يرون بأعينهم ذلك الانقلاب العظيم . وعلى كل حال فان مسئلة الخلع قد تقرر ايجادها بالقوة العسكرية ولكنهم ارتأوا قبل كل شيء تنويم أهل السراي واغفالهم لاكتساب الوقت ولذا كتب اعضاء جمعية العلماء كتب الشكر والاخلاص وارسلوها للسراي وحلفوا لاهلها أعظم الايمان ، انهم لا ينحرفون عن موالاتهم مدى الازمان . ولم يكن القصد من هذه الرسائل كلها سوى ذر الرماد في أعينهم وتحويل انظارهم الى جهة اخرى . كي يدبر المدبرون امورهم آمنين جانب كل طارئ فجائي يطرأ من جهتهم . فاشيع حوادث كثيرة متنوعة لتنتظر الاهالي ما تولده الليالي فهاجت الافكار وعقبها حصول ذلك المقصد العالي ...

ولو ان مسئلة الخلع والانقلاب كانتا من بنات افكار مدحت باشا الصائبة وناشئتان عن سعيه المتواصل كما ان سوق الاهالي الى هذه الجهة كانت نتيجة تدابير المشار اليه الصائبة . ولكن

مداخلة حسين عوني باشا في الامر واشتراكه بالخلع كان اعظم عامل على سهولة حصول النتيجة نظراً لمساعدة موقعه على ان يكون صاحب الطول والحول في هذه الفاجعة · حيث كان ناظراً للحربية وجميع امراء العسكرية تحت ادارته هذا عدا عن حب اصحاب الغيرة الوطنية وذوي الكفاءة في امور الجندية له وشغفهم به شغفاً يكاد يكون عبادة وانقيادهم الى اوامره انقياد الاعمى وزد على ذلك ان جميع الذين يشغلون اهم النقاط في الاستانة كانوا ممن نشأوا على عهده وارتقوا في ظله ولذا كانوا يتمنون كلمة يفوه بها ولي نعمتهم ، اوامر يأمرهم به ليفدون في سبيل تنفيذه ارواحهم

وعدا هذا وذاك فان المشار اليه كان كما قدمنا عالماً بدقائق امور الجندية واقفاً على كنهها وقد وضع قواعد الانتظام والطاعة بين الجنود ونظم المعسكرات احسن تنظيم كما استمال جميع امراء عسكرية ذلك العهد نحوه واحرز موقعاً ممتازاً بين رجال المعسكرات وزرع بذور محبته في قلوبهم واحرز عندهم من النفوذ والاعتبار ما لا يحرزه احد غيره من قبل ومن بعد ومع هذا فان الحقيقة التي لامراء فيها هي : ان

حسين عوني باشا مهما كان كبير المواقع ومهما عظمت درجته في اعين العالم فلا بدله من معين على اتيان امر عظيم كخلع السلطان وانه في اشد الحاجة الى معونة بعض الامراء ادبياً ومادياً . ولذا كان يعلم انه من الواجب عليه استمالة بعض امراء الجند ذوي المكانة العالية عند رجال العالم العسكري في الاستانة ومشاركتهم له في الخلع ولا شك ان اول هؤلاء الامراء واشهرهم هو : سليمان باشا ناظر المدرسة الحربية في الاستانة

ومهما قيل في حقه . فانه كان فائقاً على جميع الامراء الذين اشتهروا في ذاك الحين بفضلهم وعلمهم وقد كان من اقدر الناس على ايفاء خدمات عظيمة لدولته وامته

تربي المشار اليه في المدارس العسكرية وتخرج فيها وارتقى في الوظائف حتى وصل هذه الدرجة بجدارة واستحقاق . كيف لا وهو اهل للارتقاء لا يشتبه في اهليته اثنان، فطر على النشاط وفرط الذكاء واحرز قصب السبق بين الاقران ، ونبغ في جميع الفنون التي تتعلمها تلامذة مدرسته وتفرد في علم التاريخ حتى عد هرودوت ذاك الزمان

ولا زالت آثاره ومؤلفاته الجدية المتروكة محافظة على

وكان حسين عوني باشا يعتمد عليه كثيراً لما عرف عنه من الصدق والاستقامة ولم ير بدًّا من تحريضه على الاشتراك في مسئلة الخلع · حيث كان يرى بعينه سوء الادارة فينفعل منها شأن كل محب لوطنه غيور على مصالح امته · و يعلم شدة الاحتياج لايقاف هذه المظالم والمغارم عند حدها المحدود

والذي اعان ناظر الحربية على هـذا الامر من الرجال هو رديف باشا رئيس مجلس الشورى العسكري في الاستانـة وهو لا يقل عن سليمان باشا كفاءة واستعداداً وذكاء فقد اثبت كفاءته في جميع ما تقلد من وظائف الجنـدية وارتقى الى هذا المنصب بجدارة واستحقاق · ومع هذا فلم يكن ذا غيرة وطنية او محب لخير امته — وهو الفرق بينه و بين سليمان باشا ـ والوقوعات المتوالية اوضحت للمؤرخين هذا الامر بشكل لا يبقى معه اقل شك وارتياب ·

اذ كان رديف باشا محباً لمنفعته الذاتيـة شغوفاً بمصالحه الشخصية لا يفكر الا فيما يعود عليه بالفائدة ولو كان من وراءه خراب الدولة والامة · يتدانى الى اخذه الرشوة وخلاصة القول انه كان جامعاً للاخلاق السيئة لا ينقصه شيء منها ·

اهميتها حتى الآن . وقد كان حائزاً كل الصفات الادبية واقفاً على كنه العلوم العصرية خبيراً بالفنون الحديثة الحربية ولم يصعب عليه ادراك الاسباب الحقيقية في سوء ادارة الدولة التي نشأت عنها تلك السيئات التي اثقلت كاهل الدولة منذ قرون . فسعى جهده في ازالتها ووضع الاصلاحات موضع العمل والمصيبة العظمى التي نابته بعد محاربة الروس لأكبر شاهد على ما قدمنا من الحقائق الكثيرة

حيث كان للمشار اليه حينئذٍ اعداء كثيرة كما يوجد حتى الآن بعض اعداءه الالداء وهؤلاء لا يألون جهداً في اختلاق الاكاذيب ولا يجتنبون اسناد المفتريات للمشار اليه لينتقموا منه ولو بعد وفاته

فنحن لا ننكر بعض النقائص ـ في الحركات العسكرية ـ التي يسندونها اليه ولكننا لا نصدق ان مصيبته المعلومة كانت ناشئة عن هذه النقائص بل ربما كان تفرده بين اقرانه بالذكاء واحرازه قصب السبق في الامور الحربية وتمثيله اهم فصل من فصول تلك الفاجعة — فاجعة عبد العزيز — هو السبب الوحيد في ذهابه ضحية آمال اهل السراي الفاسدة

ونحن مع عدم انكارنا اشتراكه في مسئلة الخلع وكبر مسئولية الوظيفة التي اخذها على عاتقه نقول اننا لو حملنا هذا الامر على نفوذ حسين عوني باشا لكان اقرب للحقيقة كما لو نسب الى غيرته الوطنية . وهذان الرجلان كانا اكبر مساعد لحسين عوني باشا يوم وقوع الواقعة . حيث ان المشار اليه قد اعطاهما التعاليم اللازمة وعين لهما الخطة التي سيسيران عليها . ودلائل الاحوال تدل دلالة واضحة على عدم افشاءهما هذا الامر الى امراء الجند حتى قرب وقوع الانقلاب اي قبل حصوله بيوم او يومين اذ لم يكن من داع يدعوهما لافشاءه . فالذين بيدهم الحل والعقد من امراء الجند يمكنهم ان يزحفوا بالجنود الموجودة تحت قياداتهم الى الجهات المقصودة وضبط النقاط المطلوبة بغير ان يعلموا احداً عن غايتهم .

فبعد ان أمن المتآمرون جانب الجند واستمالوا نحوهم رؤساءهم . توسلوا في ايجاد الوسائل الاخرى لتسهيل سبل حصول الانقلاب . وأول شيء كان يجب عليهم اجراءه هو ادخال محمد رشدي باشا ، وخير الله افندي اللذين توليا

أمور الصدارة وباب المشيخة الاسلامية بعد قيام طلبة العلم ضمن المتآمرين ·

اما رشدي باشا المترجم : فقد كان لين العريكة عديم الاعتداد بنفسه ينهج على الدوام منهج سائر الوزراء بالرغم عن تعلقه باهداب القواعد القديمة ، ينجذب نحو اصحاب النفوذ من الوزراء ذوي الرأي الثاقب والفكر الصائب ، لعدم ثباته واتخاذه مبدأ خاصاً به · فشغفه الزائد بالوطن وحبه لخير امته ودولته اشهر من نار على علم ، كما انه كان وزيراً منصفاً يلبس لكل حلة لبوسها فيطيع من تحقق عنده كفاءته واهليته ويصغي لقوله ونصائحه ويأبى مواجهة من ثبت لديه لؤمه وخيانته · وهو السبب الوحيد لمحافظته على حيثية مقامه · ومع هذا فقد كان محروماً من الاوصاف والمزايا التي يجب ان يتحلي بها رجل مثله يشغل أعلى منصب في الحكومة لاستئصال شأفة المساوىء التي عمت البلاد ونشأ عنها ضيق العباد ·

والادلة القطعية على كيفية اقناعه على الاشتراك في هذه الحادثة مفقودة فعلى رواية = وهي اقربها للعقل = انه امتنع عن المداخلة عند اول مذاكرة حصلت ولكنه رضي اخيراً

ودخل ضمن المتآمرين بعد ان هدده مدحت باشا اولاً واوعده حسين عوني باشا ثانياً .

ومهما كانت درجة لزوم اشتراك الصدر الاعظم في هذا الانقلاب فان اشتراك شيخ الاسلام واعطاءه الفتوى بهذا الامر ومساعدته مادياً وأدبياً لأهم منها والزم، نظراً لتقدم وظيفته على جميع وظائف المتآمرين في مسئلة كمسئلة الخلع هي في اقصى درجات الاشكال . حيث قد جرت العادة منذ القدم في اخذ الفتوى من شيخ الاسلام لكي يظهر للعالم ان الانقلاب حدث بصورة مشروعة

اما كيفية اشتراك شيخ الاسلام خيرالله افندي في هذه المسئلة ودخوله في عداد المتآمرين فنوردها ههنا على علاتها كما نقلها لاحد اصحابه وهي :

كان ذات يوم في مجلس الوكلاء الذي عقد عقب قبضه على منصب المشيخة الاسلامية فبعد ختام المذاكرات اخذه مدحت باشا وعزله عن بقية الوكلاء وقص عليه القصة وسئله رأيه فيها فداخله الشك بادئ بدء وخامر قلبه الخوف الشديد من هذا الامر ولكن مدحت باشا اخذ يورد له الادلة على

شدة اللزوم والاحتياج الى الانقلاب و يثبت له ما حاق بالدولة من الخطر العظيم وما هي عليه من الاضمحلال السريع من جراء سوء افعال السلطان عبد العزيز . ولما كان شيخ الاسلام ممن لا ينكرون لزوم اسقاط السلطان عبد العزيز عن سرير السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية وجواز خلعه لم يتأخر عن تصديق كل ما فاه به مدحت باشا ولكنه اظهر له كثرة العقبات التي تقف في سبيل الخلع وصعوبة ازالتها . وما ينجم عنها من الاضرار البليغة عند عدم حصول النتيجة المطلوبة وربما كانت القاضية على حياة جميع المتآمرين . وأوصاه بالعدول عن فكره . ولما ان رأى عدم تأثير كلامه على افكار مدحت باشا وشدة تعلقه باهداب الانقلاب طلب اليه ان يمهله مدة من الزمن ريثما يفكر في الامر ويتبصر بعواقبه او تأخيره الى حين . وعلى اثر هذه الكلمة افترقا وذهب كل منهما الى مكانه »

وبعد هذه المحادثة ببضع ايام اجتمع به محمد رشدي باشا الصدر الاعظم وحسين عوني باشا ناظر الحربية في الباب العالي وفاتحاه بالمسألة ذاتها وطلبا منه جواباً قطعياً بهذا الامر ولكنه

ووقع في حيص بيص ولم يجرأ على اعطاءهما قولاً نهائياً .

وقبل وقوع الواقعة بيومين قصد سليمان باشا منزله وبعد ان اعتزلا غرفة من غرف المنزل ابلغه سلام هيئة الوكلاء واخبره انتظارهم جوابه القطعي عن المسألة واكد له تهيئتهم جميع الوسائل اللازمة لاظهار مسألة الخلع من حيز الفكر الى حيز الفعل باسرع ما يمكن وبدون اضاعة دقيقة من الزمن فاعترض عليه واراد تأخير الخلع لمدة اخرى فقاطعه الباشا بقوله « لقد مضى ايها الاستاذ ما مضى ، وستقع الواقعة اليوم أو غداً ، فلا تضيع الوقت سدى ، وتتركنا عرضة لانتقام العدا ، ففي هذه الدقيقة بين يديك ارواحنا ، وعليك اتكالنا ، فلا تخيب فيك آمالنا ، »

فما اتم كلامه حتى عرف شيخ الاسلام حقيقة الحال ، وما يتهددهم من الاخطار ، فاضطر الى وضع ختمه على المضبطة التي قدمها اليه وبعد يومين صدرت من باب المشيخة تلك الفتوة التي كان ينتظرها الخلق بفارغ الصبر .

وهكذا اشتركت المشيخة الاسلامية صاحبة القول الفصل في مسائل الانقلاب التي كانت تحدث داخل البلاد العثمانية من

قديم الزمن في المسألة ولم يبق من خطر يخشى حدوثه من تلك الجهة

ومع هذا كله فان همة الرجال الذين ذكرناهم قبلاً مهما عظمت ومهما كانت عليه وظائفهم من الاهمية لا بد لهم من مراجعة بعض الذين يخشى من معارضتهم او وضعهم العقبات في سبيل المسألة وادخالهم في عداد المتآمرين لعظيم اهميتهم بين رجال الدولة ووزرائها واهم هذه الفئة هو بلا شك احمد باشا القيصري ناظر البحرية . حيث ان المشار اليه قد تفرد بين امراء البحرية بالعقل والذكاء واصالة الرأي فالقى في قلوبهم محبته ، وبسط عليهم ظل نفوذه ، واستمالهم نحوه ، وخلاصة القول انه كان الفرد الوحيد بينهم وله الكلمة النافذة في كل امر عندهم .

وقد كان كغيره من الوزراء المحبين لدولتهم ووطنهم يعارض اشد المعارضة مجرى الاحوال في دور السماوي حتى كان هدفاً لسهام سفير الروس واعوانه من حشرات السراي فنفي من الاستانة مرتين بدون ذنب جناه او منكر اتاه . وكان في تلك الفترة على وشك الابعاد مرة ثالثة لما بينه وبين محمود نديم باشا من التنافر والتنابذ . وهي السبب الوحيد في دخوله

قبل الجميع في عداد المتآمرين واشتراكه في الانقلاب

وقد وجد غير هؤلاء كثير من الرجال الذين اشتركوا في مسألة الخلع ولكن يتعذر معرفتهم لتستر اكثرهم بعد الواقعة خيفة ان يتخذها اعداءهم من حشرات السراي حجة للانتقام منهم

ولكن من الحقائق الواضحة ان سعدالله باشا الذي كان باشكاتباً للمابين الهمايوني عَلَى عهد السلطان مراد الخامس وانتحر حين كان سفيراً للدولة في فينا حضر الفاجعة من مبدأها الى منتهاها ومثل الفصل المهم منها

كانت احوال الوكلاء في اواخر عهد سلطنة السلطان عبد العزيز في هذا المركز · فالقابضون على زمام المناصب العليا قر قرارهم على خلع خليفة زمانهم واتخذوا التدابير اللازمة بمهارة فائقة وساقوا الخلق الى هذا الانقلاب العظيم بواسطة مطبوعات ذاك العهد التي كان لها من الحرية ما لا يقاس معها حرية المطبوعات العثمانية في زماننا هذا ولو انها لا تعد شيئاً بجانب حرية المطبوعات الاجنبية

ولا تسل عن احوال الاستانة في هذه الفترة فان هياج الاهالي بلغ حد الافراط فالناظر اليها لا يرى فيها الا كل غارق

في بحر التأمل او واضعاً على خده اكف الحيرة والذهول

وقد اخذ اهالي الاستانة يتباحثون في الامور التي كانت مجهولة حتى هذه الساعة وتداولت الالسن مسئلة وضع القانون الاساسي وسعي مدحت باشا وحزب تركيا الفتاة في تطبيقه على ادارة الدولة . فاذهل هذا الانقلاب الفجائي الذي حدث تحت سماء دولتنا عقول العالم وجعلهم في حيرة ولم يتفقوا الا على رأي واحد وهو عدم دوام هذا الحال مدة طويلة من الزمان

اين كان السلطان عبد العزيز في هذا الوقت وفي اي مركز كانت افكاره ؟ نقول وقولنا الحق انه لم يكن عنده علم من هذه الامور ولم يسمع عنها خبراً بل كان لاهياً بما لديه من وسائل اللهو واللعب مشتغلاً فيها عن ادارة الدولة والملك . ولا يعلم ان تلك السحب السوداء المتلبده في سماء نحوسه ستمطر عليه من غضبها مطراً كالسيل ، تجعل نهاره كالليل ، وتقلب عالي سعده اسفله

اما الذين نفروا من سوء سلوكه ، ومشربه ، واخلاقه فانهم كانوا يحاصرون قصره ويحيطونه بسور من حديد ! . . . مسكين يا عبد العزيز ! اين عينيك تنظره هذه الاحوال ! واين اصحابك

ليخففوا عنك وطأة هـذه الاهوال ؟ اين الرجال الذين نالوا محبتك وداسوا حقوق الامة والدولة لينالوا السعادة الموهومه ؟ اينهم ؟ اين محمود نديم باشا وجناب السفير اغناتيف؟ لماذا نراهما قد نكصا على عقبيهما حين ترآت الفتن . وتركا صاحبهما في اشد المحن . ؟

اما محمود نديم باشا ! فكان في هذه الليلة كما هي عادته جامعاً حوله الغلمان ، يعاقر واياهم بنت الحان ، يسقونـه ويسقيهم ، يداعبونه ويداعبهم ، ويشنف بصوت عوده آذانهم ، غريق بحر حسنهم وجمالهم

اما جناب السفير : فقد كان جامعاً حوله الجواسيس ، يلعب مع الكونت زيجي ، والموسيو ووئوفيدس سفيرا النمسا واليونان بالورق غير عالم بما سيحدث في فجر ذلك اليوم من الانقلاب العظيم

وكان هذا الحال يدل دلالة واضحة على عجز اعوان السلطان عبد العزيز وغفلتهم ، وانتباه المتآمرين ويقظتهم ، اذ كانوا قد هيئوا جميع وسائـل الخلع بدون ان تشعر بهم اعداءهم ينتظرون حلول الوقت الذي سيقضون فيه القضاء المبرم على الاستبداد والمستبدين

اما السلطان الذي لا علم له بما دبرته له يد المقادير فقد دعي حسين عوني باشا الى السراي لأمر من الامور ، فانتحل هذا عذراً وامتنع عن الحضور ، ولكن هذه الدعوة خالجت ضميره فظن ان سر المؤامرة قد اكتشف فارسل رجاله لكل جهة كي يستنشقون له الخبر واتحد حينئذ حزب المتآمرين على المبادرة لخلع السلطان في هذه الليلة

وهكذا رفع الستار عن اول فصل من فصول هذه الفاجعة ! . . . .

. . . .

كانت ليلة الاثنين سابعة ليالي شهر جماد الاول سنة ١٢٩٣ ه ليلة ظلام حالك ، فالسماء تهطل المطر بدل الدموع آسفة على هذه الاحوال ، والريح يعصف من البوغاز فيقيم البحر ويقعده ، وتتلاطم امواجه بشاطئه ، فتستر اصوات ملاطمتها ضوضاء الاهالي فيعم السكون

ولم يظهر في ذاك اليوم وتلك الليلة امارة تدل على قرب حدوث واقعة تاريخية في « قصر طوله بغجه » تشغل الكتاب والمؤرخين وتكون رأس مال كبير للمحررين . فالسكون

العميق مستول على جوار بشكطاش ، والسراى مشغولة كعادتها بما لذ لسكانها وطاب ، من انواع اللهو والطرب ، والنقاط العسكرية المجاورة للسراي لا علم لها بما سيأتي به الزمان من العجب ، ولا شيء خلاف المعتاد ظاهر يدل على شعور الخلق بالانقلاب . ولكن من دقق النظر كان يرى قبل زوال الشمس ثلاث دوارع حربية ، مملوءة بعساكر من سوريا ، متحفزة للزحف على الجبل الاسود ، لتأديب كل من هدد السلام واوعد ، راسية في عرض البحر ، تنتظر من رؤسائها الامر ، وبعد غياب الشمس بقليل سارت الهوينا داخل البوغاز توهم العالم انها ذاهبة الى المحل المقصود ، ولم تدنو من السراي حتى القت رواسيها واستقر بها النوى ، ولسان حالها يقول ان لي شيء ههنا انتظره . كما انه كان لا يرى في القشلاقات المطلة على السراي شيئاً يجلب نظر الناظر اليه ، وتلامذة المدرسة الحربية خرجوا للتفتيش بعد تناول طعام العشاء ونادوا ثلاثاً « پادشاهم چوق يشا » اي « فليعش سلطاننا كثيراً » وانصرفوا بعدئذ . وفي الساعة الثالثة بعد الزوال صفر صفير النوم واستلم كل منهم سريره واخذ الموكلون بحراسة التلامذة من الضباط يتمشون

ذهاباً واياباً كعادتهم [1]

فما ازفت الساعة الخامسة بعد الغروب حتي شوهد عربة مقبلة من جهة (البك اوغلى) وقفت امام باب المدرسة وخرج منها رجل طويل القامة . فاستلم الباب ودخل ، غير هياب ولا وجل ، وبعد ان رد السلام الى الجند الواقف بهيئة طابور دخل غرفة ناظر المدرسة مستصحباً معه ضابطين خرجا لاستقباله فقلع رداءه وعرف حينئذ ان هذا الضيف الذي حضر على غير ميعاد هو سليمان باشا ناظر المدرسة الحربية . ولما جلس مكانه اشار للضباط اشارة خرجا معها مسرعين واخذ هو يفكر بعد خروجهما واطال بالتفكر ولم تمض عشر دقائق حتى عاد احد الضابطين الذين كانا مع الباشا ودخل الغرفة وقال (كل شيء حاضر يا مولاي) وهذا الرجل هو احمد بك احد امراء المدرسة الحربية .

وبناء على اشارة الباشا فتح شق الباب ودخل خمس عشرة ضابط تقريباً وجلسوا على الترتيب كما امر الباشا وغلق آخر من

---

(١) واقعة المدوسة الحربية هذه منقولة عن لسان رجل كان بمعية سليمان باشا وشاهدها بعينه ولا يزال حتى الآن حياً يرزق

دخل منهم الباب وكان هذا الاخير هو احمد بك المذكور .

فنظر اليهم الباشا نظرة ممعن فاذا بهم مدججين بالاسلحة لابسين ملابسهم كأنهم على اهبة التعليم . فاسر في اذن البعض منهم همساً، وكلم الاخرين، وقام اخيراً بينهم خطيباً وفاه بطلاقة لسان تحير العقول مازجاً اقواله بما كان يخرج من صميم فؤاده من الشكوى ، شارحاً لهم ما عم البلاد من البلوى . قائلاً : « ايها الرفقاء ! .... ان الدولة والامة يطلبان منكم في هذه الليلة وظيفة كبيرة ومقدسة ، فاذا استنكفتم عن اداء هذه الوظيفة التي ينتظرانها بفروغ الصبر من سواعد همتكم ، فدولتنا ستنقرض ، وامتنا ستضمحل ، ترون اعداءنا الخارجية ظهرت من كل صوب وحدب ، ولوان ردعهم بعناية الله وظل حميتكم من اسهل الامور علينا ، ولكن ماذا نفعل مع من هم بين ظهرانينا من الاعداء وما يمكننا ان نعمل ! ... سلطاننا سلم زمام امور دولتنا للروس الذين هم الد اعدائنا ، اغناتيف قد صار في الاستانة فعال لما يريد ، كان لنا قبلاً شيء يسمى الباب العالي ، ولكنه انتقل الآن الى سفارة الروس ، ولم يقف الحال عند هذا الحد ، بل بدأ السفير يتداخل في امورنا

حتى اصبح كما تروا ينفي كل يوم اكبر رجالنا ، واشهر امرائنا ، ويبعدهم عن عاصمة بلادنا ، واعلموا ان هذا الحال اذا دام معاذ الله مدة اخرى فمقر الخلافة الاسلامية واقعة بيد الروس لا محالة ، اذ هي غاية ما ترمي اليه اعداءنا .

فمن الواجب علينا ان نكف يد السلطان الذي هو منشأ جميع هذه المساوئ عن ادارة امور الملك . والا فما لنا وسيلة نجاة تتصور غيرها ، وطننا الذي اهين واحتقر ، وامتنا التي سيقت الى وادي الاسارة والذل ، حصرا جميع امالها في همتكم وحميتكم يطلبان منكم الاسعاف) فما اتم هذه الجملة حتى اغرورقت عيناه بالدموع ولم يبق له مجال للكلام كما لم يبق لمستمعيه عين تنظر اليه وكل منهم مطرق برأسه في الارض لشدة الهيجان يكابر على نفسه لضبط دموع الأسى والأسف عند سماعهم هذه الحقائق التي قصها عليهم بلسان ملئه التأسف والتأثر، فتابر الباشا على كلامه قائلاً « وبناء على هذه الاسباب المجبرة قر قرار العلماء والوكلاء ، ورجال الدولة على خلع السلطان عبد العزيز ، ، وانا الآن عائد من مجلسهم ، وقد القوا على عواتقنا اكبر وظيفة من هذه من هذه الفاجعة ، فعساكر البحر من البحر ،

وعسكر طاش قشلة وما جاورهـا تحت قيادة رديف باشا من البر ، ونحن سنزحف من ههنا على السراي لنؤدي واجباً فرضته علينا الوطنية ، فما اتم كلامه حتى نادت الضباط بصوت واحد اننا حاضرون ، ولامركم مطيعون ، والى اي جهة تريدونهـا ذاهبون ، ولو اقتضت الحالة لافدينا ارواحنا في سبيل ما به تأمرون ! » وانتصبوا جميعهم قائمين فاشار الباشا الى احمـد بك واخذه الى جانبه فاخرجا من جيوبهما ساعاتهما واخذا يتباحثان فقال الباشا للضباط « هيا ايها الرفقاء انتظروا النفير » وبعد خروج الضبـاط بقليل ذهب احمـد بك الى فسحة المدرسة مستصحباً معه « نوبتجي البورزان » وامره ان يصفر صفير القيام فما سمع ضباط المدرسة صوت النفير حتى خرجـوا مسرعين . اذ كانوا قبلاً على تمام الأهبة واخذ حينئذٍ ضباط المدرسة بايقاظ التلامذه فقامت التلامذة من حديث نومهـا ولبست ملابسها واخذت سلاحها وخرجت من المدرسة وكان احمد بك يعطى الاوامر لصف التلامذة على النظام في فسحة المدرسة بصوت جهوري ولم تمض خمسة عشر دقيقة حتى انقطع الصوت وساد السكون واصطفت التلامذة بهيئة طابور ووقفت

الضباط في مكانها فلا عدبت تسمع الا قوماندة (على الحذاء) «صاي» فخرج اذ ذاك سليمان باشا من غرفته ودنى من احمد بك واعطاه الاوامر اللازمة وبعد قليل زحف صف تلامذة المدرسة الحربية من خلف المدرسة بقيادة احمد بك بشكل طابور نظامي واخذوا بالتقدم من امام قشلة «كموش صو» دون ان يشعر بهم احد وظلوا سائرين على هذا المنوال الى ان قربوا من ميدان قصر «طولمه بغجه» فأوقف الطابور حينئذٍ ولم يتقدم من ضباطه سوى احمد بك وسليمان باشا وبعض الضباط

فبينما هم سائرون اذ قابلهم في الطريق ثلاث اشخاص . وهؤلاء هم رديف باشا، ومن بمعيته من الضباط فتحادث سليمان باشا ورديف باشا ملياً وبعد ختام الحديث توجها معاً الى الساحل فنظرا الى نقاط على وجه الشاطىء لا ترى تماماً لشاسع بعدها عن النظر والظاهر انهما قد رأيا ما اوجب انشراحهما وزاد في سرورها حتى انهما تركا النقطة وسارا الى مدخل الزقاق المؤدي الى الطوبخانة ووقفا هنالك ولم يمض على وقوفهما زمناً طويلاً حتي اسرعا لملاقات العربة المقبلة عليهما من تلك الجهة يحيطها ثلة من الفرسان .

وكان الراكب في هذه العربة هو حسين عوني باشا ناظر الحربية فبعد ان تحادث سليمان باشا ورديف باشا مع الناظر افترقا وذهب كل منهما الى جهة ولم يمض كثير من الزمن حتى خرجت تلامذة المدرسة الحربية من الزقاق المتقدم ذكره واتوا الى الميدان واصطفوا صفاً حربياً

وحينئذ اخذت الضباط من كل جهة تعطي الاوامر بصوت منخفض وزحفت التلامذة مفرزة وراء مفرزة . فصف سليمان باشا واحمد بك قسماً منهم على ريختم السراي وحافظوا على جهة الميدان ومدخل الزقاق محافظة من كل طارىء مفاجىء يطرأ في ذاك الظلام الحالك . ووضعوا الجند في الزقاق المؤدي الى مسجد بشكطاش كما وضعوا مفرزات قوية في مداخل الازقة الاخرى ولم تمض نصف ساعة زمانية حتى احاطوا السراي بالجنود المسلحة احاطة السوار بالمعصم . والعابر حينئذ لا يرى في الازقة فرداً واحداً غير الجند

والضباط يدنون بعض الاحيان من العربة فيعرضون على حسين عوني باشا معروضاتهم و يعودون مسرعين بعد ان يتلقوا منه الاوامر اللازمة وبعد ساعة مضت على هذا الحال توجه

سليمان باشا الى قصر « طولمه بغجه » مستصحباً معه ست ضباط ودنى من احد ابواب القصر فطرقه . ولم يفتح حتى دخل القصر فلما ان سمع البوابون الضوضاء في خارج القصر ورأوا دخول بعض الضباط اليه فروا الى دائرة الحريم وهذا الحال يدل على انهم فزعوا من هول المشهد ولكنهم لم يفوهوا ببنت شفة لما اعتراهم من الذهول عند حدوث هذا الحادث الفجائي .
ولما دخل الباشا دائرة الحريم فتح الباب ودخل الى الدائرة فاستفاق اغاوات الحريم حينئذ من هذه الضوضاء واخذوا يمسحون اعينهم بايديهم وينظرون يميناً وشمالاً كمن اعتراه البله . ففاجئهم الباشا بقوله « اخبروا سمو ولي العهد ان لي معروضات مهمة ابغي عرضها عليه وارجو ان يتكرم بقبولي بين يديه بدون اضاعة وقت » ففر الاغاوات للداخل وسمع بعدئذ من اعلى القصر بكاء النساء ونحيبهن ولم يعد احد من الداخلين بخبر . فاراد بعض الضباط الصعود الى اعلى القصر ولكن سليمان باشا استحسن الانتظار مدة اخرى .

ولما ان مضت مدة طويلة ولم يأتهم احد بخبر اضطر سليمان باشا الى الصعود وعند صعوده اتاه بعض الاغاوات

وابلغوه امتناع ولي العهد عن الخروج « فقال لهم ان الامر مهم لا يقبل تأخير ، وعندي بشرى سأبشره بها ، فلا يخاف وجميع من ههنا هم عبيده الامناء الصادقين ، فلا بد لي من مشاهدته » ولما الح عليهم ادخلوه غرفة محاذية لغرفة السلطان مراد وخرج حينذاك من الباب فدنا منه سليمان باشا وبايعه الخلافة بكل صدق واخلاص ، واخبره بجلوسه على سرير الخلافة وخلع عمه السلطان عبد العزيز من طرف الوكلاء والامة . ومع هذا فان السلطان مراد قد ظل باهتاً مدة من الزمن لا يبدي اقل حراكاً ولا يفوه ببنت شفة . وكان في هذه الاونة نساء السراي يبكين وينتحبن في غرف القصر واحداهن تبكي قرب الباب وتقول « لا تأمن جانبهم فانهم خونة يريدون ان يخرجوك من القصر ويغدروا بك » فتفرس سليمان باشا بها واذا هي والدة السلطان مراد فدنا من الباب وطمنها على نجلها ببعض الاقوال فاخذ الصوت عندئذ بالانقطاع . ومع هذا فان السلطان مراد اظهر التردد في الخروج مراراً ولكنه وافق اخيراً على الخروج بعد ان طمنه سليمان باشا على حياته وسكن روعه بما فاه به من العبارات المطمئنة كما هو مشهور بسبك امثالها . وعند

خروجه هجمت عليه والدته وضمته الى صدرها قائلة « ولدي مراد ! . . . » وبكت حتى ابكت الحاضرين معها . ولكن سليمان باشا سعي كثيراً في تطمينها وقال لها « لا تخافي ولاتحزني فلا شيء يوجب الخوف والحزن وهو من الآن فصاعداً سلطاننا وولي امرنا » ووضع يده في يد السلطان وأنزله عن السلم : . . .

وبعد خروجهم من القصر توجهوا نحو الميدان وكان سليمان باشا وقتئذ يرافق السلطان جنباً لجنب والضباط يسيرون عَلَى اثرهم . اما السلطان مراد فقد كان سائراً بذهول دون ان يعلم الى اي جهة سائرون به واقطع المدى لا تتمكن من فتح فاه والوقت ما بين الفجرين والظلام حالك

ولم يطرق اذن ناظر الحربية الذي كان منتظراً في عربته بميدان السراي خبر قدوم السلطان مراد حتى نزل من العربة وخف لاستقبال السلطان الجديد وبايعه الملك والخلافة وقص عليه مجمل الاحوال بكمال الادب والاحترام راجياً منه اسعاف طلب العلماء والوكلاء ورجال الدولة الذين ينتظرون تشريفه في نظارة الحربية ليبايعونه السلطنة والخلافة وعليه فقد استراح

قلب جلالة السلطان مراد وزال ما يخامره من الخوف الشديد وصدرت ارادته بتشريفه الى جهة استانبول . فاعطى حسين عوني باشا الاوامر اللازمة للامراء وجلس في عربة الملك امام السلطان امتثالاً للدعوة السنية وتوجهت العربة حينئذ بسرعة البرق قاصدة جهة الطوبخانة يحيط بها الياوران وثلة من عساكر السواري

ولنرجع الآن الى ما كنا عليه من وصف احوال عبد العزيز فنقول :

انقسمت تلامذة المدرسة الحربية بعد وصولها لميدان السراي الى مفرزات متعددة حيث القى على عواتقهم محافظة النقط المناسبه . وصرف المتآمرون جل همتهم في مراقبة النقط التى كانت تحافظ عَلَى السراي . اذ كانوا يوجسون خيفة من الجنود الموجودة هنالك وعَلَى الاخص الضباط منهم حيث ان اكثرهم كانوا ممن اغدق عليهم عبد العزيز نعمه وتمكن في قلوبهم حبه ، لكونهم كل يوم امام عينه ،ولذا كان ينتظر منهم اظهار الصداقة له والمدافعة عنه على قدر الامكان .

ولكن التعرض الفجائي الذي تعرضه والمكيدة التي

كادها لهم من توكل بمراقبتهم من الضباط بمهارة خارقة اذهلهم واضاع رشدهم وجعل مدافعتهم من رابع المستحيلات . حيث ان الضباط الموكلين بضبط هذه النقاط اعطوا لتلك الجنود قوماندة (رمي السلاح في الارض) فالقت الجنود بسلاحها وهي لا تعلم شيئاً عن هذا الامر . فقام بعض ضباطها يستفهمون عن الخبر ممن اعطوا الاوامر . فما كان من المتآمرين الا ان وضعوا بنادقهم في صدور من تعلل منهم مهددين بالقتل كل من فاه منهم ببنت شفة . فلما ان رأى الضباط عجزهم عن ابداء اقل حركة سلموا بسلاحهم وانفسهم معاً . ومع هذا فقد رأى المتآمرون ان الحزم يحتم عليهم ان لا يطلقون سراحهم فنقلوهم تحت الحفظ الى جهة اخرى

اما داخل السراي فقد كان السكون مستولياً عليها لا يشاهد اقل حركة فيها ولكن ركض نساء دائرة السلطان مراد من جهة الى اخرى وجلبتهن فهمت سكان قصر عبد العزيز حدوث امر ذى بال . فاستفاق جميع الخدم من نومهم واطلوا من النوافذ الى الخارج يستعلمون الخبر فرأوا ان القصر محاطاً بالجنود احاطة السوار بالمعصم فعلموا سر المسئلة وتناقلتها السنتهم حتى وصل

الخبر الى نساء القصر جميعهن ولكن لم تجرأ احداهن على اخبار السلطان

وكان سليمان باشا حينئذ مشغولاً بأصعاد السلطان الجديد الى أعلى القصر ورديف باشا بمحافظة دائرة السلطان الخليع وما أتم سليمان باشا وظيفته حتى أتم رديف باشا محاصرة السراي ولم يدع أحداً يخرج منها او يدخل اليها واتخذ دائرة (السلاملق) مركزاً له وطفق يعطي الاوامر اللازمة للضباط ويتجسس احوال دائرة عبد العزيز وما يجري فيها

وترصد محافظ السراي من ياوران ومابينجية وأعلمهم بالخبر وافهمهم ان جل ما يطلب منهم من الصداقة هي المحافظة على السلطان ولي نعمتهم وان من يأتي باقل حركة خلاف اوامره لا ينال الا اشد العقاب . ولما كان هؤلاء . ليسوا من الذين يحافظون على الولاء ، وقت الشدة والعناء اضاعوا رشدهم ولم يفه احد منهم ببنت شفة . والمعلومات الأكيدة في ما كان عليه السلطان عبد العزيز حينئذ من الاحوال مفقودة . ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي ان جميع اهل السراي عدا عبد العزيز قد وقفوا على سر المسئلة وعلموا بسقوطه عن سرير

الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية · وكانت والدته اول من سمع بهذا الخبر المحزن · فعلى رواية ان المدافع التي اطلقت عند توجه السلطان مراد وحسين عوني باشا هي التي انذرته بخلعه وهذه الرواية اقرب للحقيقة من غيرها · حيث يروي عن بعض مقربيه انه كان حين اطلاق المدافع نائماً ولم يسمع بها حتى استفاق من نومه وأخذ يعد طلقات المدافع فلما رأى ان عدد الطلقات تجاوزت العدد المختص بالحريق قام منذعراً وقال انها لمدافع الجلوس (*)

تمّ

(*) من أراد ان يعلم عاقبة السلطان عبد العزيز وكيفية وفاته فليراجع كتاب « فاجعة السلطان مراد الخامس » تأليف مؤلف هذا الكتاب وترجم بقلم هذا المترجم وهو الآن تحت الطبع

مطبوعات مترجم هذا الكتاب وصاحب الحماره

واقعة السلطان عبد العزيز ثمنها نصف مجيدي

واقعة السلطان مراد وهي تحت الطبع

اوائل سلطنة عبدالحميد " " " ريال مجيدي واحد



الحماره

اشهر جريدة هزلية مصورة تصدر في بيروت كل اسبوع مرة لصاحبها ومحررها توفيق جانا قيمة اشتراكها في بيروت ريال مجيدي وفي البلاد العثمانية مجيدي وربع

